بسم الله الرحمن الرحيم

١- جغرافية اليونان

تمثل الجغرافيا العنصر المادى الذى يؤثر تأثيرا هاما فى صنع تاريخ وحضارة أى مجتمع من المجتمعات البشرية، وقد كان العامل الجغرافى عنصرا هاما من عناصر تاريخ وحضارة بلاد اليونان، حيث أسهمت البيئة والتضاريس بشكل مباشر فى صناعة أحداث التاريخ اليونانى منذ عصوره الأولى، ولا بد لدارس هذا التاريخ أن يتعرف على هذا العنصر الهام وأهميته فى التاريخ .

١- أهم ملامح التكوين الجغرافى لبلاد اليونان هو الطبيعة التضاريسية التى تشكل الجبال الجانب الرئيسى فيها، حيث أن الجبال تشغل ما يقرب من أربعة أخماس إجمالى السطح،وتمتد على هيئة سلاسل جبلية لا تكاد تخلو منها أى جهة من الجهات، كما أن الأنهار التى تخترق هذه الأراضى ليست من الأنهار الصالحة للملاحة أو الصالحة لان تكون وسائل اتصال بين هذه الأجزاء الجبلية، وقد أدت هذه العوامل إلى ظهور النزعة الانفصالية منذ بدء تاريخ اليونان، وأسهمت بالتصيب الأوفر فى ظهور دولة المدينة والمجتمعات الصغيرة الانفصالية التى انقسمت إليها البلاد.

٢- أهم السلاسل الجبلية الموجودة فى بلاد اليونان والمسئولة عن تمزيقها السياسى على هذا النحو هى :

أ - جبال جرانية (Geranea): بين كورينثة وأتيكا.

ب- جبال كراتة (Kerata): فى نفس المنطقة.

ج- جبل كيثايرون (Kithaeron): فى الممر بين كورينثة و بوئوتيا .

د- جبل هليكون (Helicon): بين بوئوتيا وفوكيس.

هـ- جبل بيندوس (pindos): بين تيساليا وايبيروس.

٣- معظم الأنهار كانت غير صالحة للملاحة، كما لم تكن صالحة أيضا كوسيلة للإتصال وذلك بسبب فترات الجفاف التي تتعرض لها في فصل الصيف وعدم استواء السطح حتى يصلح كممر برى في فترات الجفاف،كما أن الانحدار القوى عند المنابع وإختفاء النهر تقريبا عند المصب قد اسهم في عدم صلاحية هذه الأنهار للملاحة فيما عدا أنهار قليلة مثل نهر اخيلوس Achelous.

٤- المناطق السهلية كانت تتسم هي الأخرى بصغر المساحة، وعدم الترابط أو الامتداد الكبير، كما أن التربة في هذه المناطق كانت تربة فقيرة قليلة الخصوبة ولم تكن صالحة لزراعة كافة المحاصيل، وقد كانت نتيجة ذلك أن عانت اليونان فقرا شديدا في المحاصيل الزراعية، ولعل أهم الحبوب كانت أبرز أوجه النقص الذى عانى منه السكان، حيث انسحبت اثار نقص الحبوب إلى نتائج سياسية و إجتماعية خطيرة كان أهمها الحرب بين أثينا واسبرطة في القرن الخامس ق.م، ثم حرب فيليب المقدونى في القرن الرابع ضد أثينا، وفي كلتا الحالتين استغلت اسبرطة ثم فيليب المقدونى حاجة أثينا إلى الحبوب وخاصة القمح وتم استغلال هذا النقص كسلاح فعال ضد أثينا، مما أدى في نهاية الأمر إلى هزيمتها في المرتين .

٥- وجد اليونانيون في البحر المتوسط وسواحلهم المطلة عليه عوضا عما فقدوه في الداخل من تربة فقيرة وتضاريس صعبة وأنهار غير صالحة للملاحة، فقد كانت السواحل اليونانية على البحر المتوسط شديدة التعاريج، ما سمح بإيجاد موانىء طبيعية، كما أن بحر إيجة قد أسهم بدوره في تجارة وملاحة اليونانيين، حيث قاموا بإستخدام هذا البحر في الملاحة والهجرة إلى الشواطىء الأخرى في البحر المتوسط وتمكنوا من إنشاء مستعمرات خاصة بهم، أهمها تلك التي أقاموها جنوبي شبة الجزيرة الايطالية، ووصلوا كذلك إلى أسبانيا وافريقيا وصقلية وقبرص، والساحل الغربي لآسيا الصغرى، وعمل اليونانيون أيضا بالتجارة من خلال ركوبهم البحر وقادهم النشاط التجارى إلى

معظم شواطىء وموانىء البحر المتوسط وخاصة فى الجانب الشرقى منه، كما أن بعضا منهم قد أتخذ من القرصنة عملا لهم إلى أن تمكن الرومان من القضاء على هذه الظاهرة فى القرن الأول ق.م .

٢- مصادر دراسة التاريخ اليوناني

أ - المصادر الأثرية

وهي المخلفات الأثرية التي أسفرت عنها الحفائر والأبحاث الأثرية، ومنها المباني والتماثيل والمقابر والمعابد وغيرها من الآثار التي تتصل بحياة الانسان أو العالم الآخر.

وأهم ما تم العثور عليه من مخلفات الحضارة اليونانية القصر الملكي المسمى قصر كنوسوس Knossos والذي يرجع العلماء تاريخه إلى القرن السادس عشر ق.م، ويمتاز بمساحته الضخمة التي يمكن نستنتج منها أنه كان مقرا للسكن الملكي ومركزا للادارة الحكومية مما يدل على تركيز السلطة في يد البيت الحاكم، كما يدل القصر على حالة الرخاء والاستقرار التي كانت تسود في جزيرة كريت .

وهناك أيضا معبد البارثينون في الأكروبوليس Acropolis في أثينا والذي تدل الرسومات والنحت البارز الموجود به على معتقدات اليونانيين الأسطورية، كما يعكس بناؤه حالة الرخاء التي عاشتها أثينا في هذه الفترة من تاريخها (القرن الخامس ق.م) ورغم أهمية المباني المعمارية في التاريخ، إلا أن العملة والفخار تعد أكثر أهمية في هذا المجال، حيث أن العملة تسجل عليها أسماء الحكام وتواريخ حكمهم، ويمكن عن طريق المادة المصنوعة منها أن نحدد الوضع الاقتصادي للعصر الذي استخدمت فيه، أما الفخار فهو يحدد لنا معالم الحياة اليومية في المجتمع، والأدوات المستخدمة فيه، وتصور على الأواني مظاهر الحياة اليومية من أساطير وأنشطة يومية وملاحة وصيد ورياضة وغيرها، بالاضافة إلى أن أماكن العثور على الأواني الفخارية يؤدي إلى معرفة الأماكن التي كانت ترتبط مع بلاد اليونان بعلاقات تجارية مثل مصر وصقلية وايطاليا وغيرها.

ب – المصادر الكتابية

المصادر الكتابية هى كتابات المؤرخين المعاصرين للأحداث التى سجلوا بها مشاهداتهم ومعارفهم عن أحوال المجتمع اليونانى فى عصورهم أو العصور السابقة عليهم، وتنقسم الكتابات التى نعتمد عليها إلى عدة أنواع هى :-

المؤرخون

وأهم المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ بلاد اليونان " هيرودوت " Herdotus وهو مؤرخ ينتمى إلى القرن الخامس ق.م، وقد حاول أن يكتب تاريخا يضم كل أخبار العالم كما يعرفها، وفيه جزء خاص ببلاد اليونان، وامتاز هيرودوت فى مؤلفه هذا بوصف الأحداث دون اللجوء إلى التحليل، كما أن اعتماده على الروايات المتواترة يجعل احتمالية حدوث الخطأ أمرا واردا .

وهناك أيضا " ثوكيديدس" Thucydides الذى عاش فى منتصف القرن الخامس وبداية القرن الرابع ق.م، وامتاز بتخصيص كتاباته للحروب التى نشبت بين أثينا واسبرطة والمعروفة بالحروب البلوبونيزية، وقد كان معاصرا لهذا الحدث، بل واشترك فى الحرب بنفسه كقائد من القادة الأثينيين، وامتاز كذلك بالتجرد والحياد فى تناول الأحداث، ويعد بذلك أول من كتب التاريخ مستخدما المنهج العلمى التحليلى .

ومن المؤرخين الذين ظهروا فى هذه الفترة أيضا " اكسينوفون" Xenophon وله عدة مؤلفات عن تاريخ ونظم بلاد اليونان، ويمتاز بتعدد الموضوعات التى يتناولها ومعاصرته للأحداث واشتراكه فى البعض منها، إلا أنه كان أقل قدرة على التحليل من ثوكيديدس.

To: www.al-mostafa.com

الخطباء السياسيون

إلى جانب المؤرخين يوجد نوع آخر من المصادر الكتابية للتاريخ اليوناني، وهي الخطب التي كانت تلقى أمام المجالس الشعبية والهيئات السياسية والقضائية، والتي يمكن عن طريقها التعرف على العلاقات الاجتماعية والسياسية في المجتمع اليوناني، وأشهرها خطب " بركليس" و "ديموستينيس" في القرنين الخامس والرابع ق. إلا أن هذه الخطب يجب تناولها بشيء من الحذر حيث أنها تمثل وجهة نظر واحدة ولابد أن تكون بعيدة عن التجرد والحياد .

الفلاسفة والمفكرون

تعد أعمال الفلاسفة مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو والجماعات الفلسفية والفكرية الأخرى مثل السوفسطائيون وعلماء الفلك والطب والرياضيات من مصادر دراسة التاريخ اليوناني الكتابية، حيث أننا نقيس بها الانجازات العلمية التي تم تحقيقها في هذه الفترة من التاريخ في المجتمع اليوناني .

الأدب

يعد الأدب بصوره المختلفة مصدرا غير مباشر من المصادر الكتابية للتاريخ اليوناني، وينقسم الأدب إلى عدة أنواع منها شعر الملاحم والشعر الغنائي والمسرحي، ولعل المسرح هو أهم ما يمكن الاعتماد عليه في التعرف على أفكار ومعتقدات المجتمع اليوناني، حيث أن الأفكار التي كانت تتناولها المسرحيات والشخصيات التي كانت تقدمها، كانت تعبر بطبيعة الحال عن المجتمع الأثيني في هذه الفترة، وهي إن شابها بعض المبالغات أو الخيال صالحة لأن تكون مؤشرا لأحداث المجتمع وعاداته وتقاليده

والفكاره، كما أن شعر الملاحم وخاصة أعمال هوميروس " الإلياذة والأوديسية " والتى تدور حول حرب طروادة تعد تراثا شعبيا يمكن الاعتماد عليه، ليس فقط فى التأريخ للأحداث التى ساقها الشاعر فى ملحمتيه، ولكن فى معرفة اتجاهات التفكير لدى الشعب اليونانى والتراث الاسطورى الذى يستمد منه تاريخه وعقائده، ووصف الحياة اليومية لهذا المجتمع .

٣- اليونان فى العصور المبكرة

الحضارة الكريتية

وتمثل هذه المرحلة العصر المبكر من عصور التاريخ اليونانى،ويطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى جزيرة كريت التى كانت أقوى مراكز هذه الحضارة،وقد بدأت بشائر هذه الحضارة بالقرب من بحر إيجة بداية من العصر الحجرى الحديث وازدهرت نحو القرن الثلاثين ق.م، حين بدأ السكان يعرفون استخدام المعادن، وبدأ تأثير هذه الحضارة على بلاد اليونان حوالى القرن السادس عشر ق.م.

وقد كانت أهم مظاهر هذه الحضارة تتمثل فى إزدهار الفن المعمارى وفن صناعة الأوانى الفخارية والخزف، كما عرف أهل كريت الكتابة على شكل صور ثم خطوط كما شهدت هذه الحضارة تقدما فى الفكر والسياسة بحيث صار هناك شكلاً لدولة مترابطة لها ملوك وجيوش وأساطيل استطاعت أن تسيطر على بحر إيجة والجزر الموجودة به، كما عرف السكان هناك الجوانب الترفيهية للحياة مثل المسرح والمصارعة، كما تقدمت الكتابة، وتوصل السكان إلى معرفة العملة المعدنية لتسهيل معاملاتهم المالية .

وقد أثبتت الحفائر الأثرية وجود علاقات خارجية وإتصالات وتفاعل حضارى بين هذه الحضارة وحضارات الشرق الأخرى، حيث تم العثور على أحد الأوانى الكريتية فى مصر، كما عثر أيضا على تمثال حجرى لشخص مصرى فى أحد قصور كنوسوس مما يدل على وجود علاقات مبكرة بين مصر وكريت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى عهد تحتمس الثالث.

هذا ويقسم العلماء هذه الحضارة إلى ثلاثة عصور رئيسية على النحو التالى :

- العصر المبكر ٢٦٠٠ ق.م - ١٨٠٠ ق.م
- العصر المتوسط ١٨٠٠ ق.م - ١٦٠٠ ق.م
- العصر المتأخر ١٦٠٠ ق.م - ١٢٠٠ ق.م

الحضارة الموكينية

تمتاز هذه الحضارة بانها قد ظهرت فى بلاد اليونان الأصلية، كما أنها قد أتت بعد الحضارة الكريتية، حيث أنها قد بدأت حوالى القرن السادس عشر ق.م وتأثرت بالطبع بهذه الحضارة تأثرا كبيرا.

وقد بدأت هذه الحضارة فى مدينة موكيناى شمال شرق شبه جزيرة البلوبونيز وهى مدينة تقع على تل مرتفع عن سطح الأرض بنحو تسعمائة متر، وتسيطر على سهل أرجوس، وتتوفر لها المياة اللازمة للزراعة، أى انها كانت صالحة إقتصاديا وجغرافيا لظهور حضارة فيها . وقد استمرت هذه الحضارة واقعة تحت تأثير حضارة كريت لمدة قرنين من الزمان وحتى ١٤٠٠ ق.م، وخلال هذه الفترة سيطرت التأثيرات الموكينية على موكيناى والمدن اليونانية الأخرى فى الصناعات الفخارية والمعدنية كما يبدو من المخلفات الأثرية التى ترجع لهذه الفترة، إلا أنه منذ القرن الرابع عشر ق.م يبدأ تدهور بطىء فى حضارة كريت يواكبه تبلور واوزدهار فى حضارة موكيناى وتكوين شخصيتها المستقلة، ولعل أهم مظاهر ذلك التحول تبدو من ظهور طابع جديد للمقابر الموكينية بعيدا عن الطراز الكريتى، كما أن زخرفة الأوانى بدأت هى الأخرى فى الابتعاد عن المؤثرات الكريتية، وبدأ تصوير الشخصيات عليها، كما ظهرت أشكال جديدة للدروع والسيوف والحراب .

إلى جانب ذلك، فقد شهدت هذه الفترة نمو القدرة العسكرية والسياسية لهذه الحضارة، وبدأت فى بسط سيطرتها على المدن المجاورة، كما بدأ ظهور علاقات لها بالدول والقوى الخارجية، ولعل الدليل على سيطرة موكيناى على بلاد اليونان يمكن

استخلاصه من قصة حرب طروادة كما أوردتها الإلياذة، حيث أن ملك موكيناى قد تمكن من جمع كل المدن اليونانية تحت قيادته لعملية حصار طروادة، بالاضافة إلى وجود الطرق التى تربط بين موكيناى وسائر البلاد اليونانية الأخرى فى بلاد اليونان، وانتشار حضارتها فى تلك البلاد يعد دليلا أخر على سيطرة موكيناى الداخلية فى هذه الفترة .

أما من الناحية الخارجية فقد تم العثور على آثار تؤكد وصول النفوذ الموكينى حتى صقلية وايطاليا ومصر وقبرص والعلاقات السياسية مع الحيثيين . وقد بدأ التدهور فى حضارة موكيناى فى القرن الثانى عشر ق.م واستمر حتى القرن الحادى عشر حين بدأت القبائل الدورية القادمة من الشمال فى تحطيم الحضارة الموكينية وبقايا الحضارة الكريتية، واستمر الغزو الدورى حتى القرن العاشر ق.م وأسفر عن تدمير انجازات الحضارتين السابقتين عليه وإنتقال السيطرة فى بحر إيجة إلى الفينقيين وعاد المجتمع اليونانى إلى حياة القبائل الانفصالية حتى القرن الثامن ق.م ٦٠ .

اليونان فى عصر هوميروس

تطلق على حضارة اليونان فى العصر الموكينى تسمية " حضارة عصر الأبطال"، وذلك نسبة إلى الأبطال الذين خلدهم هوميروس فى ملحمتى "الإلياذة والأوديسية"، ويعد هوميروس هو المصدر الأدبى الوحيد لحضارة هذ الفترة .

وأهم ملامح هذه الفترة هو ما ذكره هوميروس من أن أجاممنون أعظم ملوك اليونان فى مطلع تاريخهم، قد قام بجمع جيش كبير وأبحر نحو طروادة الواقعة فى آسيا الصغرى عند مدخل البحر الأسود بغرض شن حرب انتقامية ضدها .

ويتفق العلماء على أن هوميروس كان شاعرا أعمى يقوم بقرض الشعر وإنشاده فى قصور الملوك والنبلاء، وكانت ملحمته الأولى "الإلياذة" تدور حول غضب "إخيليوس" أحد أعظم المحاربين فى بلاد اليونان،وذلك أثر خلافه مع أجاممنون القائد العام لجيوش اليونان فى حرب طروادة، وكان هذا الخلاف فى العام العاشر من حصار طروادة، ذلك الحصار الذى تم بغرض اسقاط المدينة واستعادة هيلين زوجة منيلاوس ملك اسبرطة وشقيق أجاممنون، وكانت الزوجة قد فرت هاربة من بلادها مع باريس ابن ملك طروادة .

وقد جعل هوميروس من قصة غضب اخيليوس محورا لأحداث الملحمة، وقص من خلالها قصة وتفاصيل الحرب وما سبقها وما تلاها من أحداث، وتعرض أيضا لأحوال اليونانيين والطرواديين .

أما الملحمة الأخرى "الأوديسية" فانها تدور حول عودة أوديسيوس أحد أبطال اليونان إلى بلادة بعد انتهاء الحرب، وذلك من خلال ثلاث مراحل، أولها يدور فى قصر أوديسيوس فى إيثاكا، حيث كان الأمراء طامعين فى ملكه وزوجته بينلوبى بعد اعتقادهم

بأنه قد قتل ولن يعود، والمرحلة الثانية تصور وقوع أوديسيوس فى الأسر فى جزيرة اوجيجية ثم وساطة أثينا له حتى يعفو عنه زيوس ويساعده فى الخروج من الأسر، وما تعرض له من أخطار وأهوال فى رحلة العودة، أما المرحلة الثالثة فتدور فى قصر أوديسيوس فى ايثاكا مرة أخرى بعد عودته وقتاله مع الأمراء الطامعين فى ملكه وزوجته .

الوضع السياسى فى عصر هوميروس

يدل إطلاق هوميروس اسم "الأخيون" على كل اليونانيين، أن القبائل الآخية كانت اقوى الفئات الموجودة فى ذلك الوقت، وكان الآخيون يسكنون شبه جزيرة البلوبونيز، وانتشروا أيضا فى ثيساليا، وصاروا الطبقة الحاكمة فى البلاد حوالى القرن الثالث عشر ق.م ونشروا اللغة اليونانية والديانة والآلهة الخاصة بهم بين سائر السكان.

الوضع الاقتصادى

أهم الأنشطة الاقتصادية التى سادت بلاد اليونان فى هذه الفترة كانت الزراعة والرعى، وكان الكروم والحبوب هى أهم الحاصلات الزراعية، وحيث كانت الأرض الصالحة للزراعة والمراعى لا تزيد عن خمس مساحة البلاد على أكثر تقدير، فقد ظهرت أنشطة اقتصادية أخرى أهمها قطع الأخشاب وصيد الحيوانات وصيد الأسماك .

إلى جانب ذلك كان هناك نشاط تجارى داخلى بين المدن اليونانية وخارجى مع البلاد الواقعة على شواطىء البحر المتوسط، وقد استورد اليونانيون فى هذه

الفترة الأقمشة وأدوات الصناعة الذهبية والأوانى الفخارية والسلال المصنوعة من الفضة والأدوات العاجية والبرونز وكذلك الرقيق. وقامت صناعة المنسوجات والمعادن والأخشاب والأوانى الفخارية والسفن والمعادن والجلود.

نظام الحكم

كان النظام الملكى هو السائد فى عصر هوميروس وإلى جانب الملك كان هناك مجلس الشيوخ الذى يمثل المجلس الاستشارى للملك، وكان يتكون من رؤساء العشائر، وكان هناك أيضا مجلس الشعب وكان يتكون من سكان المدينة والذين يمثلون جنودها فى نفس الوقت، ولم يكن لهذا المجلس أية سلطات ، ولكنه كان يجتمع لمجرد الاستماع لقرارات الملك بعد مشورة مجلس الشيوخ.

وكان الملك يتمتع بصلاحيات سياسية ودينية وعسكرية مطلقة، وكان الارستقراطيون فى هذه الفترة قد بدأوا فى الشعور بقوتهم وأخذوا فى توجيه الضربات للنظام الملكى سعيا للحصول على السلطة. ورغم أن دولة المدينة لم تكن قد ظهرت بالمفهوم السياسى فى ذلك الوقت، فان الشعور الاقليمى كان يسود البلاد، ولم يكن هناك ما يؤدى إلى الاندماج السياسى بين سائر المدن على الرغم من وجود النزعة الوطنية والتراث المشترك بين الاغريق .

٥- الهجرات والاستيطان خارج بلاد اليونان

كانت العوامل الجغرافية والاقتصادية سببا فى لجوء سكان اليونان إلى الهجرة خارج بلادهم سعيا وراء الرزق الذى لم يكن متوفرا بالقدر الكافى لهؤلاء السكان، وقد شهدت العصور التاريخية لبلاد اليونان العديد من حلقات الهجرة والاستيطان الخارجى.

وقد كانت أهم الهجرات هى تلك التى حدثت فى أعقاب النزو الدورى لبلاد اليونان في القرن الحادى عشر ق.م، وتنقسم هذه الهجرات إلى ثلاث مراحل على النحو التالى:

المرحلة الأولى

١- الأيوليون

وهم سكان شمال اليونان الذين تركوا بلادهم بسبب غزو الثيساليين والذين كانوا إحدى القبائل الدورية،وقد توجه الايوليون عبر بحر إيجة نحو الشاطىء الأسيوى،واستقروا فى آسيا الصغرى تحت اسم " ايوليا"

٢- الأيونيون

وقد عبروا بحر إيجة ثم وصلوا إلى آسيا الصغرى، واستقروا جنوب منطقة ايوليا،وسميت منطقتهم باسم "ايونيا"

٣- الدوريون

وقد هاجروا بدورهم إلى آسيا الصغرى واحتلوا المنطقة الواقعة جنوب ايونيا وسميت تلك المنطقة باسم "دوريس".

المرحلة الثانية

المرحلة الثانية من هجرات اليونانيين تمت في القرن الثامن وحتى القرن السادس ق.م، وقد كانت أهم العوامل التي أدت إلى هذه الهجرات هي :

١- الحكم الارستقراطي أو الاستبدادي الذي مارسه ضد باقي الطبقات.
٢- انقسام طبقة النبلاء ذاتها على نفسها بسبب استئثار أقلية منها بالسلطة وكافة الامتيازات.
٣- ازدياد عدد السكان مع نقص الموارد الزراعية، واستيلاء الارستقراطيين على معظم الاراضي الزراعية.
٤- ظهور التجارة كأحد الانشطة الرئيسية، والحاجة إلى البحث عن المواد الخام والاسواق خارج الحدود.

هذا وقد نجح اليونانيين في حركة الهجرة والاستيطان الخارجي، وساعدهم على ذلك الفراغ السياسي في منطقة بحر ايجة والبحر المتوسط بعد سقوط الاشوريين وتدهور الامبراطورية المصرية، وعدم ظهور الفرس كقوة كبرى حتى ذلك الوقت.

وهذا بالاضافة إلى التقدم الكبير الذي أحرزه اليونانيون في مجال صناعة السفن، حيث ساعدهم ذلك على الهجرات والتقدم التجاري في البحر المتوسط.

انشاء المستعمرات

كانت هناك نظم وقواعد تحكم مسألة انشاء المستعمرات خارج الحدود، وكان هذا الأمر يجد معاونة من الحكومات اليونانية حتى تتخلص من احتمالات الثورة، ولهذا السبب قامت الحكومات بتشجيع الهجرة وتنظيمها، وكان هناك مرشد يتم ارساله مع كل مجموعة من رجال الدين والمهندسين إلى المستعمرة، كما كان يتم وضع تخطيط للمدينة الجديدة وتقسيم لاراضيها على السكان الجدد.

وكان الموقع الخاص بالمستعمرة يتم اختياره على أسس وشروط خاصة، بحيث يكون الموقع يتميز بالثراء أو التحكم في الطرق التجارية أو كمنفذ بحرى أو ميناء.

أما سكان المستعمرات فقد كانوا خليطا من كافة الطبقات، مع استئثار الطبقة الارستقراطية بمجموعة المؤسسين.

وكان من الضروري أن يقوم مؤسسو المستعمرة بإستشارة كهنة الاله أبوللو في اختيار الموقع، وكان هذا الاله يعد راعيا لهذه المستعمرات الجديدة. أما فيما يتعلق بالدستور والقانون، فانه كان في الغالب مشتق من دستور وقانون المدينة الأم.

ولقد كان المهاجرون حريصين على عدم قطع صلاتهم بالمدينة الأم والوطن الأصلي، حيث حافظوا في وطنهم الجديد على نمط المدينة الاغريقية، كما كانوا يرسلون وفدا يمثلهم في الأعياد الدينية. ولا يمنع هذا وجود تدهور في العلاقات بين المستعمرات والوطن الأصلي في بعض الأحيان، وخاصة حين تتدخل المدينة الأم في شئون المستعمرة أكثر مما ينبغي.

نتائج حركة الاستيطان

١- تنمية الروح القومية لدى الاغريق بسبب احتكاكهم بالأمم الأجنبية.
٢- التطور السياسى والديمقراطى فى المجتمعات الجديدة.
٣- ازدهار الآداب والفنون والفلسفة.
٤- اتساع حركة التجارة وظهور تغييرات اجتماعية واسعة النطاق.
٥- دخول بلاد اليونان دائرة الاقتصاد النقدى بسبب التوسع التجارى.
٦- ظهور طبقة التجار والحرفيين وصراعها على انسلطة مع الطبقة الارستقراطية.

٦- دولة المدينة

بعد انهيار الحضارة الموكينية مع مطلع القرن العاشر ق.م وسيادة العنصر الدروى ساد التخلف والانهيار بلاد اليونان لمدة ٢٠٠ سنة تقريبا، وشهدت هذه الفترة امتزاج العناصر الجديدة بالسكان القدامى مما أدى إلى ظهور مجتمع جديد كانت أهم معالمه دولة المدينة.

ولقد امتاز هذ المجتمع بوجود كيانات سياسية مستقلة ومقومات الدولة وذلك فى كل مدينة من مدن بلاد اليونان وما يحيط بها من امتداد جغرافى يتفاوت من منطقة إلى أخرى، ولقد عرفت هذه الجماعات اشكالا سياسية تدرجت من القبائل إلى الملكية حتى وصلت إلى مرحلة الحكم الشعبى والمجالس النيابية.

ولقد ساعد المجتمع اليونانى على الوصول إلى هذه المرحلة أن هذه الفترة التى ازدهرت فيها مجموعة من الامبراطوريات والممالك القوية مثل الحيثيين والفرس والمصريين والاشوريين لم تتجه أطماعهم إلى بلاد اليونان ولم يحاول أى منهم أن يقوم بمد سلطانه إليهم، ولذلك كانت الفرصة متاحة أمام المجتمع اليونانى للنمو السياسى المستقل الذى أسفر عن ظهور دولة الدينة والنظم السياسية والنيابية التى اتبعت فيها.

وجدير بالذكر أن نظام دولة المدينة هذا لم يظهر هكذا مرحلة واحدة، ولكنه مر بعدة مراحل حتى تبلور فى شكله النهائى الذى سوف نتعرف عليه، ولقد بدأ هذا النظام أولى مراحله فى القرن العاشر والقرن التاسع ق.م حيث اختلط الغزاة الدوريون بالسكان الاصليين ليكونوا المجتمع الجديد، وكان هذا المجتمع عبارة عن مجتمعات ذات طبيعة قبلية، تتكون من كبار ملاك الأراضى الزراعية والرعوية حيث يمثل أكبر هؤلاء الملاك دور الملك Basileus، بالاضافة إلى وجود مجلس الأعيان ورؤساء العشائر، ومجلس آخر للعامة من سائر السكان، وكان الملك فى هذه الفترة يتحم فى كافة الأمور السياسية

والعسكرية والدينية، بينما يشاركه مجلس الارستقراطيين فى صلاحياته حسب قوة الملك وحسب شخصيته بينما لم يكن لمجلس العامة صلاحيات أو تأثير يذكر.

ويمكن أن نتصور الدور الرئيسى الذى لعبه الملك فى هذ الفترة فى اطار حرص الملك على تجميع وتوحيد التجمعات السكانية المجاورة له فى كيان سياسى واحد يسيطر عليه هو ورجاله عليه، ولعل هذا النوع من التفاعل كان يتم بشتى السبل، احيانا بالسلم واحيانا بالقوة، بحيث صار الملك القادر على توحيد المناطق المجاورة له ملكا على المدينة بأسرها وعلى التابعين لها من المناطق المجاورة، ويعد هذا الأمر هو الانجاز الأساسى الذى يمكن ارجاعه إلى فترة الملكية وإلى أحداث القرنين العاشر والتاسع ق.م، حتى تحولت المجتمعات السكانية إلى وحدات سياسية مترابطة، وظهرت لأول مرة كلمة Agora بمعنى السوق الذى لا يستخدم فى التجارة فحسب وانما أيضا فى مناقشة أمور المدينة وسياساتها حيث يتجمع السكان Demos أو الشعب لمناقشة أمور مدينتهم.

استمر الوضع على هذا النحو حتى مطلع القرن الثامن ق.م، ذلك القرن الذى شهد مرحلة التطور بالنسبة لنظام دولة المدينة، حيث انتهى فى هذه الفترة دور الملوك بعد أن قاموا بتوحيد التجمعات السكانية وظهرت فى عهدهم ملامح دولة المدينة كنظام سياسى جديد، وبدأ العنصر الاقتصادى يحكم الأمور فى هذا العالم الجديد، حيث بدأ الارستقراطيون الذين يملكون الأرض والثروة فى التطلع لدور جديد يلعبونه فى هذا المجتمع، وبدأوا فى انتزاع سلطات الملك الواحدة تلو الأخرى، فقد رأوا أن الملك لا يمتاز عنهم فى شىء، فهو صاحب أرض وثروة وهم أيضا أصحاب أرض وثروة،وان كانت الأرض والثروة هى التى تمنح الملك شرعيةالحكم، فانهم بمقتضاها أيضا يمكن أن يزحفوا على سلطات الملك ويسلبونه اياها، وهكذا بدأ الارستقراطيون فى الاستيلاء على مقاليد الحكم واستمر هذا الوضع حتى القرن السابع ق.م، حيث سقطت معظم الحكومات الملكية فى شتى أنحاء البلاد وحلت محلها حكومات جماعية تتكون من الارستقراطيين، واعتمد الارستقراطيون فى حكمهم على الأساس الاقتصادى فى المقام الأول، حيث كانوا يملكون الثروة ومصادرها كما اعتمدوا أيضا على قدرتهم العسكرية فى الدفاع عن المدينة أو شن الغارات العسكرية على المدن المجاورة، وكانت الأوضاع آنذاك- فى

ظل غياب الجيش النظامى- تحتم على المقاتل أن يقوم بكافة التكاليف الخاصة بالتسليح وخلافه، وكان الارستقراطيون هم القادرون على هذا الأمر بالنسبة لأنفسهم ولأتباعهم ولهذا كانت مهمة القتال خاصة بهم،، وهم الذين يتحملون نفقاتها وتبعاتها.

وإلى جانب العاملين الاقتصادى والعسكرى، فقد استمد الارستقراطيون شرعية حكمهم أيضا من الجانب القانونى أو الدستورى، حيث أن فترة الحكم الملكى كانت قائمة على الحق الالهى ولم تكن ثمة قوانين تخول للملك حكم المجتمع وبعد انهيار الملكية اختلفت الأمور، حيث صارت الطبقة الطبقة الارستقراطية تحكم البلاد من خلال المجلس التشريعى الارستقراطى وهو هيئة يتم انتخابها سنويا من هذه الطبقة، كما أن النزاعات المختلفة قد انتقلت من أيدى رؤساء العشائر والقبائل إلى المحاكم ليتم الفصل فيها من خلال القوانين التى رسمتها الطبقة الارستقراطية.

وحين اتم الارستقراطيون إحكام قبضتهم على البلاد، كانت هناك ظاهرة جديدة فى المجتمع اليونانى، حيث ضاقت الأرض والموارد بالسكان فاتجه جزء كبير من السكان إلى الهجرة للبحث عن موارد جديدة، وشكلت حركة الهجرة هذه مرحلة جديدة وهامة من مراحل تطور المجتمع اليونانى، وأسفرت عن تكوين مستعمرات يونانية على ساحل البحر المتوسط وظهور التجارة كأحد الأنشطة الاقتصادية الرئيسية للمجتمع اليونانى، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ظهور التجار كطبقة جديدة متميزة فى المجتمع، وشهد القرن السادس ق.م بداية محاولات هذه الطبقة التى صارت لا تفتقر إلى الثروة للمشاركة فى الحكم تأمينا لمصالحها واثباتا لوجودها، وهكذا ظهرت حكومات جديدة مشتركة من تحالف الارستقراطيين والتجار وهى الحكومات التى يطلق عليها اسم الحكومات الاوليجركية Oligarchy أو حكومات الأقلية.

ولم يكن هذا التطور، الذى كان العامل الاقتصادى هو الدافع الرئيسى له هو التطور الأخير فى نظام الحكم فى دولة المدينة، إذ أن التجارة التى أدت لظهور طبقة جديدة من الأثرياء تمكنت من المشاركة فى الحكم، هى نفسها التى أدت إلى تخليص قطاع كبير من الشعب من سيطرة الاقطاعيين وملاك الأراضى على أرزاقهم، فسرعان

ما تخلص هؤلاء من العمل في الأراضي الزراعية الخاصة بالارستقراطيين، وبدأوا في ممارسة الأعمال التجارية والحرف والمهن المختلفة اللازمة لامداد التجار بالسلع التجارية، كما أن عملية تأمين الطرق التجارية المختلفة والصراعات العسكرية بسبب التنافس التجاري أوجبت على المجتمع اليوناني استخدام طبقة العامة كمقاتلين لتأمين خطوط القوافل.

من هنا بدأ العامة في الشعور بكيانهم وأهميتهم، وبدأوا في البحث عن دور سياسي يلعبونه في المجتمع الجديد،وبدأ ظهور الثورات الشعبية في شتى مدن اليونان في محاولة للتخلص من الحكومات الاوليجركية القائمة، وأدى كل هذا إلى بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور النظام السياسي اليوناني، وهي مرحلة حكم الطغاة، والطغاة هؤلاء Tyrannoi هم أشخاص من غير الطبقات الشعبية تمكنوا من استغلال الثورات الشعبية للقفز إلى الحكم على أكتاف العامة وتمكنوا من الاطاحة بالحكومات الاوليجركية، ورغم انحيازهم للعامة ومحاولة استرضائهم، ورغم تشجيعهم للنشاط الثقافي والفني، إلا انهم لم يستمروا في ذلك، إذ سرعان ما كان الجيل الثاني منهم يستخدم الارهاب كوسيلة للحكم مما أدى إلى انهيار نظامهم وسط السخط الشعبي العام ليحل محله الحكم الشعبي الديمقراطي.

بعد انهيار حضارة موكيناي في القرن العاشر ق.م، شهدت بلاد اليونان فترة من التدهور والانهيار لمدة قرنين من الزمان، ولعل أهم أحداث هذه الفترة هي اختلاط السكان الدوريين بالسكان الأصليين وامتزاجهم بهم، مما أدى في النهاية إلى تغيير في البنية السكانية والاجتماعية في البلاد، وقد أسفرت كل هذه التغيرات عن صورة جديدة للنظام السياسي اليوناني، تلك هي دولة المدينة، فقد أصبح المجتمع اليوناني منقسما إلى مجموعة من المدن كل منها وحدة سياسية مستقلة مركزها احدى المدن، وامتدادها مجموعة من القرى والضواحي. ولعل أهم العوامل التي أدت إلى وجود هذا النظام هو العامل الجغرافي، فقد كانت بلاد اليونان كما سبق ووضحنا تعاني من وعورة التضاريس بشكل كان يمنع توحيد البلاد جغرافيا، وقد أدى ذلك دون شك إلى ظهور نظام دولة المدينة نظرا للعزلة الجغرافية بين هذه المدن، وقد تطور النظام السياسي في

دولة المدينة بشكل طبيعي، حيث بدأ بسيطرة زُعماء القبائل، ثم الحكم الملكي، الارستقراطي، الاوليجركي، ثم تطور بعد ذلك إلى الحكم الشعبي الديمقراطي، وقد أسفر التطور التاريخي لنظام دولة المدينة في بلاد اليونان إلى ظهور مجموعة من المدن القوية التي سعت إلى بسط زعامتها على باقي أجزاء البلاد، وأهم واقوى هذه المدن كانت أثينا واسبرطة، ولذا سوف نخصص هذا الجزء من لدراسة نظام دولة المدينة في كل منهما.

دولة المدينة في أثينا

تميزت أثينا على سائر بلاد اليونان في تلك الفترة بتنوع الموارد الاقتصادية التي يعتمد عليها المجتمع، فقد مارس السكان الزراعة والتجارة والحرف والصناعات الصغيرة، وقد أدى هذا التوازن في الموارد إلى توازن آخر من الناحية الطبقية بحيث لم يشهد هذا المجتمع سطوة لاحدى الطبقات نتيجة لاستئثارها بموارد المجتمع أو مستلزمات الانتاج، وقد أدى هذا التوازن الطبقي في نهاية الأمر إلى ظهور الحكم الشعبي الديمقراطي الذي يمثل مصالح كافة الطبقات بشكل متوازن، وإن كانت أثينا قد شهدت دون باقي مدن اليونان هذا النظام الديمقراطي السبي الفريد، فإن هذا النظام لم يحدث هكذا بلا مقدمات، ولكن شهد المجتمع اليوناني عدة تطورات أسفرت في نهاية الأمر عن النظام الشعبي الديمقراطي.

بدأ التطور السياسي في المجتمع الأثيني بظهور النظام الملكي، حيث تمكن أحد الملوك من أن يوحد المجتمعات السكانية القبلية في مجتمع واحد تحت قيادته، وينسب ذلك إلى ملك يسمى تيسيوس Theseus ، وتركزت السلطات السياسية والعسكرية والدينية في هذه الفترة في يد الملك، وكان يعاونه مجلس من الطبقة الارستقراطية، ولم يستمر هذا الوضع طويلا، إذ سرعان ما استولى الارستقراطيون على صلاحيات وسلطات الملوك الواحدة تلو الأخرى حتى انتقل الحكم اليهم، وأصبح النظام السياسي

ممثلا في مجموعة من الوظائف التي يشغلها أعضاء الطبقة الارستقراطية،وتمثلت هذه الوظائف في منصب الحاكم Archon، وهو رئيس الجهاز التنفيذي، ومنصب البوليمارخوس Polimarchos وهو المشرف على الشئون العسكرية،هذا إلى جانب مجلس تشريعي كل أعضائه من الارستقراطيين وهو مجلس الاريوباجوس Areopagos

ولقد اتسمت هذه الفترة من تاريخ المجتمع الأثيني بالتسلط الشديد من جانب الطبقة الارستقراطية سعيا لتحقيق مصالحها دون النظر لمصالح الطبقات الأخرى، وأثار هذا السلوك سخطا شديدا في صفوف الطبقات الأخرى، فلجأ الحكام إلى سن مجموعة من القوانين – قوانين دراكون– لامتصاص سخط العامة، إلا أن هذه القوانين لم تكن قادرة على تغطية كافة أوجه القصور في المجتمع، واتسمت هذه القوانين بالقسوة الشديدة تجاه العامة مما أدى إلى وصولهم إلى درجة بالغة السوء، وتم بيع البعض منهم كرقيق وفاء لديونهم، بينما لجأ البعض الآخر إلى الفرار من أتيكا بأكملها للنجاة من هذا المصير.

وشهد المجتمع اليوناني في هذه الفترة تطورا آخر، وهو اتجاه المجتمع إلى النشاط التجاري، مما أدى إلى ظهور طبقة جديدة هي طبقة التجار، واستطاعت هذه الطبقة أن تنافس الطبقة الارستقراطية على السلطة والحكم، وفي هذه الفترة ظهر "سولون" الذي قام بوضع تشريعات تنسب إليه، حاول فيها التوفيق بين المصالح المتضاربه بين طبقات المجتمع حتى يمنع الانفجار الوشيك بسبب سيطرة الطبقة الارستقراطية على كل شيء، والحنق الذي أصاب طبقة التجار والعامة.

ويمكن ايجاز تشريعات سولون في أنه قام بالغاء الارتباط الطبقي بملكية الأرض، حيث أنه قسم المجتمع الأثيني إلى أربع طبقات بمقتضى ما يملك الفرد من ثروة وبصرف النظر عن مصدر هذه الثروة سواء كانت من الأرض أو

من التجارة أو غير ذلك، وقد أدى هذا التقسيم الجديد إلى اشترك طبقة التجار في الجهاز التنفيذي للدولة، وكذلك عضوية مجلس الاريوباجوس، كل حسب ثروته، وانهى بذلك احتكار الطبقة الارستقراطية لكالة السلطات.

بالاضافة لذلك استحدث سولون مجلسا جديدا هو مجلس البولى Boule يتكون من ٤٠٠ عضو وتقتصر عضويته على الطبقات الثلاث الأولى من المجتمع الأثيني،وبالاضافة إلى ذلك فقد تضمنت تشريعات سولون قسما خاصا بعلاج مشاكل طبقة العامة وقد كان أهم ما تضمنته هذه التشريعات هو الغاء ديون هذه الطبقة والنتائج المترتبة عليها، كما ألغت هذه التشريعات أيضا اشتراك هذه الطبقة في مناقشات الجمعية الشعبية (مجلس الاكليزيا)، كما تم ايضا انشاء المحاكم الشعبية التي أصبح العامة أعضاء فيها، وأصبح لهذه المحاكم حق محاسبة أعضاء الهيئة التنفيذية.

عصر الطغاة

بعد الانتهاء من وضع واقرار تشريعات سولون في القرن السادس ق.م أصبح الوضع الدستوري في المجتمع الأثيني يتمثل في نظام الحكم القائم على أساس الثروة ، وأصبح التجار وملاك الاراضي هم عماد النظام الجديد، ويطلق على هذه المرحلة مرحلة الحكم الاوليجركي أو حكم الأقلية، وكانت تشريعات سولون قد أرضت طبقة التجار حيث أشركتهم في الحكم كما حققت بعض الانجازات لطبقة العامة، كلم أنها قد سلبت ملاك الأرض أو الارستقراطيين بعض امتيازاتهم، لهذا لم تلبث الأوضاع في أثينا أن تفاقمت وانقسم المجتمع إلى ثلاث أحزاب رئيسية هي.حزب الجبل وهو حزب العامة أو الفقراء، وحزب السهل ويمثل الارستقراطيين، وحزب الساحل ويمثل التجار، وأسفر الصراع بين هذه الأحزاب عن تفوق حزب الجبل بقيادة بيزاستراتوس ونجاح ذلك

الحزب فى تولى السلطة، وأصبح بيزاستراتوس حاكما لأثينا فى منتصف القرن السادس ٥٤٥ ق.م.

وقد بدأ بحكم بيزاستراتوس عهد جديد فى أثينا يسمى بفترة حكم الطغاة والسبب فى هذه التسمية أن الحكم قد صار فرديا وبقيت المؤسسات الدستورية فى البلاد دون صلاحيات حقيقية، وإن كان هذا لا يمنع أن بيزاستراتوس قد قام بعدة خطوات اصلاحية لارضاء العامة، حيث صادر بعض أملاك الطبقة الارستقراطية وقام بتوزيعها على المعدمين من العامة، وقام بتنشيط التجارة، وشجع الفنون والآداب، وتمت فى عهده حركة عمرانية وازدهار فى المسرح.

وقد خلف بيزاستراتوس ابنه هيبياس، الذى اتجه إلى الارهاب والتسلط مما جعل الأثينيين يطلقون عليه لقب الطاغية، وقاموا بثورة ضده اسفرت عن طرده من المدينة وعودة العمل بالدستور حيث تولى كلايستنيس السلطة وقام باستكمال قوانين سولون،ووضع دستورا جديدا يقضى بتقسيم البلاد إلى قبائل تقوم على المكان مما أدى إلى القضاء على التكتلات الطائفية، وأصبح اختيار مجلس الشورى يتم بالاقتراع من هذه القبائل، وصار المجلس ممثلا حقيقيا لكافة السكان، كما تم توسيع صلاحياته لتشمل الجوانب الادارية والتنفيذية.

دولة المدينة في اسبرطة

ارتبط ظهور المجتمع الاسبرطي بغزو القبائل الدورية التي استقرت في شبه جزيرة البلوبونيز بعد استيلائهم على منطقة لاكونيا جنوب شبه الجزيرة، حيث أطلقوا على انفسهم اسم "اللاكيدايمونيون" ونشأت مدينة اسبرطة في هذه المنطقة.

هذا عن نشأة المدينة، أما عن سكانها فقد اختلف شأنهم عن باقي المدن اليونانية، فقد امتازت اسبرطة بان مؤسسيها هم الغزاة الدوريون الذين لم يندمجوا مع السكان الأصليين، كما انهم ظلوا بمعزل عن أقرانهم من الغزاة الذين احتلوا المناطق الأخرى وحافظ هؤلاء الغزاة على انفصالهم عن السكان، وظلوا يمثلون طبقة حاكمة تمارس السيطرة على باقي الطبقات الأخرى وأطلقوا اسم" بيراويكوى" Perioikoi على السكان الآخرين ومعناها السكان المحيطون باسبرطة، وكان هؤلاء السكان أحرار المولد إلا انهم كانوا محرومين من الحقوق السياسية أمام سيطرة اللاكيدايمونيين.

بالاضافة إلى ذلك قام الاسبرطيون بالسيطرة على منطقة ميسينيا الواقعة غرب بلادهم والتي تمتاز بالخصوبة وحولوا سكانها إلى عبيد.

وهكذا أصبح الوضع في اسبرطة ممثلا في أقلية حاكمة وحولها فئات مختلفة من الأحرار والعبيد يمثلون أغلبية مغلوبة على أمرها يوحد بينها السخط والكراهية لهذ الطبقة الحاكمة.

تشريعات لوكرجوس

اعتمدت النظم الداخلية في المجتمع الاسبرطي على تشريعات تنسب لشخص يسمى لوكرجوس Lycurgos وهي تشريعات تهدف إلى انشاء مجتمع عسكري قوامه جيش مستعد للدفاع عن المدينة في أية لحظة، وكان هذا النظام يقضي بأن تكون الدولة مسئولة عن الأطفال منذ لحظة ميلادهم، حيث يتم فحص المولود سواء كان ذكر أم أنثى ويتم نبذ الأطفال المشوهين أو الضعفاء بتركهم في العراء حتى الموت أو الوقوع في أيدي أحد العبيد، أما الأصحاء فيظلون حتى سن السابعة في حضانة الأم أو المربية، وحين يصلون إلى سن السابعة ينتقل الإشراف عليهم إلى الدولة حيث يوضعون في معسكرات صارمة بحيث تكون كل مجموعة من هؤلاء الأطفال تحت قيادة شاب اسبرطي، وتتم تنشأتهم على الحياة العسكرية والتدريبات الرياضية الشاقة وكانت الموسيقى على الرغم من ذلك الاتجاه الصارم تدخل ضمن المناهج التعليمية ولكن فقط لخدمة ذلك الغرض الاساسي وليس الجانب الترويحي أو الفني، وحين يصل الأطفال إلى سن الرشد كانوا ينضمون إلى الجيش كجنود، وكانت الدولة تهتم بأمر أسرهم وتمنحهم أرضا وعبيدا حتى يكونوا في غنى عن العمل لكسب العيش، وكان من غير المسموح به للاسبرطي أن يعمل في أي نشاط آخر مثل التجارة أو الصناعة، وكانت هذه الانشطة حكرا على الطبقة الثانية وهي "البيراويكوى".

نظام الحكم

انقسمت السلطات فى النظام السياسى الاسبرطى بين عناصر أربعة هى :

أ – ملكان على رأس الجهاز التنفيذى.
ب – مجلس الشيوخ.
ج – المجلس الشعبى.
د – مجموعة من المشرفين.

أ– الملكان

تميز النظام الاسبرطى عن غيره من النظم السياسية الأخرى بوجود ملكين على رأس اجهزة الدولة بدلا من ملك واحد، ويرجع هذا الوضع فيما يبدو إلى أن اسبرطة كانت تضم قبيلتين أساسيتين كونتا باتحادهما هذه المدينة ، وكان من الطبيعى أن تصر كل منهما على أن يكون الملك منتميا لها، ولهذا استقر الرأى على وجود ملكين، كل منهام يمثل احدى القبيلتين، ويعد رقيبا على الآخر، مقيدا لسلطاته، وأدى هذا الوضع الفريد إلى عدم استبدادهما بالسلطة وهو الأمر الذى كان يؤدى فى المجتمعات الأخرى إلى التخلص من النظام الملكى.

ولقد بدأت صلاحيات الملكية فى اسبرطة شأنها شأن المدن اليونانية الأخرى فى صورة صلاحيات عسكرية مطلقة وقضائية ودينية ولم تلبث هذه الصلاحيات أن انحسرت فى شتى المجالات حيث صارت قيادة الجيوش من حق احد الملوك فقط ويقرر الشعب أيهما الذى يتولى المهمة، ويكون الملك مسئولا عن أعماله أمام الشعب، وتراجعت أيضا الصلاحيات القضائية والدينية للملك حتى انحصرت فى مجالات قليلة.

ب - مجلس الشيوخ

وكان يتكون من ثلاثين عضوا بينهم الملكان، ولا بد أن يكون باقى الأعضاء فوق سن الستين، والعضوية مدى الحياة، ويتم الانتخاب عن طريق الصياح والتصفيق حيث يتم اختيار من يتصف بالفضيلة، وكانت صلاحيات هذا المجلس تشمل الاعداد لجداول أعمال مجلس الشعب، والفصل فى القضايا الجنائية، كما كان المجلس يتمتع بصلاحيات سياسية واسعة كهيئة استشارية، وكان المجلس قاصرا على الطبقة الارستقراطية رغم أنه كان يتم انتخابه من قبل المجلس الشعبى الذى كان يضم كافة الطبقات.

ج - المجلس الشعبى

وهو المجلس الذي كان يضم كل مواطن اسبرطى تعدى الثلاثين عاما، وكان يجتمع مرة واحدة شهريا بدعوة من المشرفين، وكانت اختصاصات هذا المجلس هى انتخاب مجلس الشيوخ وهيئة المشرفين والمجلس التنفيذى، كما كان مختصا بتقرير الحرب والسلام والقرار السياسة الخارجية والأمور الخاصة بوراثة الملوك، ولم يكن هذا المجلس يمارس الصلاحيات عن طريق المناقشة والحوار، وانما كان يتم عرض الموضوعات على الأعضاء وعليهم أن يوافقوا أو يعترضوا عن طريق الصياح أو التقسيم لمجموعة موافقة ومجموعة معارضة، وكان من القيود الموضوعة على ذلك المجلس هو حق أعضاء مجالس الشيوخ والهيئة التنفيذية فى الانسحاب من الجلسات فى حالة عدم رضاهم عن القرارات، وكان هذا الانسحاب كفيلا بابطال أى قرار يتخذه هذا المجلس.

د - المشرفون

وهو نظام انفردت به اسبرطة بين المدن اليونانية الأخرى وهؤلاء المشرفون هم خمسة أشخاص كان يتم تعيينهم فى بادىء الأمر ممثلين للقرى الخمس التى تكونت منها مدينة اسبرطة، وكانت صلاحياتهم فى بادىء الأمر قاصرة فقط على المجال القضائى، ثم تطورت لتشمل الرقابة على الملوك والمحافظة على النظام العام والنظر فى قضايا السكان الأخرين حول اسبرطة "البيراويكوى"، وأصبحوا يتقلدون مناصبهم عن طريق الاقتراع العام دون التدخل من الملوك وهكذا أصبحوا يمثلون عنصرا من عناصر التوازن بين الارستقراطيين وبين العامة والعبيد.

كانت هذه هى أهم ملامح النظام السياسى فى اسبرطة، وقد تميز هذا النظام كما رأينا بأنه كان أنسب النظم الطبيعة للمجتمع الذى قام به، فالملكان كان كل منهما رقيبا على الآخر مما يمنع الاستبداد من جانب أى منهما، والمجلس الارستقراطى (مجلس الشيوخ) يمثل سيطرة هذه الطبقة ولكنه لا يملك القرار الأخير فى شئون البلاد، ويملك مجلس الشعب حق اصدار القرار الأخير إلا أن ذلك لا يكون إلا بالموافقة أو الرفض ودون مناقشة من أى نوع، مع امكانية ابطال قراراته فى حالة انسحاب مجلس الشيوخ أو الهيئة التنفيذية، وهكذا نشأ نوع من التوازن السلطوى بين عناصر هذا النظام السياسى المختلفة، وقد أدى هذا إلى نجاح اسبرطة فى ايجاد مجتمع متماسك وتكوين حلف قوى والانتصار على أثينا فى صراع الزعامة على بلاد اليونان فى نهاية القرن الخامس ق.م.

أهم الاحداث الخارجية والداخلية فى عصر دولة المدينة

شهد التاريخ اليونانى مراحل عديدة لتطور نظام دولة المدينة، بدأت هذه المراحل كما رأينا بظهور المدن القوية مثل أثينا واسبرطة، ثم تطورت الأحداث بظهور عوامل وتحديات خارجية كان على هذه المدن أن تواجهها بالاضافة إلى الصراعات الداخلية بين هذه المدن حول زعامة بلاد اليونان، ومن خلال هذه المراحل تطور نظام دولة المدينة حتى انتهى الأمر بغزو فيليب المقدونى بلاد اليونان، وسوف نعرض فيما يلى أهم مراحل هذه الأحداث التى شهدتها بلاد اليونان.

أ - الحرب مع قرطاجة

نشأ الصراع بين قرطاجة وبلاد اليونان بسبب العامل الاقتصادى، حيث أن قرطاجة كانت تسيطر على غربى البحر المتوسط تجاريا وسياسيا بفضل مستعمراتها على الساحل الشمالى الأفريقى منذ القرن التاسع ق.م، وكذلك على السواحل الأوربية، كما أن انتشار المدن اليونانية جنوبى صقلية قد أدى إلى صدام المصالح بين القوتين.

وقد بدأت أولى مراحل هذا الصراع بشكل سافر سنة ٤٨٠ ق.م حين تدخلت قرطاجة بجيش ضخم لمساندة احدى المدن اليونانية فى جزيرة صقلية ضد حاكم سيراكوز كبرى مدن هذه الجزيرة، وكان حجم هذا الجيش يوحى بمحاولة قرطاجة لاحتلال هذه الجزيرة، إلا أن الحرب قد انتهت بانتصار حاكم سيراكوز وفرض تعويض كبير على قرطاجة.

ولم تلبث قرطاجة أن تدخلت مرة أخرى سنة ٤٠٩ ق.م فى نزاع آخر بين المدن اليونانية فى صقلية، وكان الهدف من التدخل هذه المرة هو غزو الجزيرة بشكل واضح، حيث بدأ الجيش القرطاجى مهمته باخضاع المدن اليونانية الواقعة جنوبى الجزيرة، وانتهى الأمر سنة ٤٠٥ ق.م بقبول حاكم سيراكوز الصلح مع قرطاجة مع سيطرتها على الجزء الأكبر من صقلية واستمر النزاع بعد ذلك إلى أن

تمكن حاكم سيراكوز من حصر السيطرة القرطاجية في الجزيرة في أقصى الغرب، وتوقف الأمر بين قرطاجة واليونان عند هذا الحد.

ب – الحرب مع الفرس

أساس العلاقة بين الفرس واليونان يرجع لوجود مستعمرات يونانية في شكل مدن تجارية تقع على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وكانت خاضعة لمملكة ليديا مع احتفاظها بالحكم الذاتي، وظل هذا الوضع حتى القرن السابع ق.م ومنتصف القرن السادس ق.م، حين قام الفرس بغزو مملكة ليديا سنة ٥٤٨ ق.م، وتم اخضاع المدن اليونانية لامبراطورية الفرس، وبقيت شئونها الداخلية تدار بالحكم الذاتي، كما كان الأمر تحت سيطرة ليديا.

لم تستمر هذه الأوضاع طويلا على هذا النحو، إذ سرعان ما تدخل الفرس في شئون هذه المدن ومساندة الحكم الفردي فيها، وادى ذلك إلى اثارة المدن اليونانية الأخرى ضدهم وانتهى الأمر بإنشاء حلف عسكري يضم هذه المدن بقيادة "ميليتوس"، واستطاع هذا الحلف أن يقود ثورة ضد الفرس استمرت بنجاح من ٤٩٩ إلى ٤٩٤ ق.م ثم انتهت بإعادة الفرس بسط سيطرتهم على هذه المدن وتدمير مدينة ميليتوس التي كانت زعيمة للحلف، ورغم مساندة أثينا للثوار، وهو الأمر الذي أدى بالفرس إلى التفكير في القضاء على المدن اليونانية الأوربية لمنعها من مساعدة المدن الاسيوية الواقعة تحت سيطرة الفرس.

سنة ٤٨٠ ق.م، وانتصر فيها الفرس على قوة اسبرطة وأبادوها، ثم موقعة "سلاميس" حيث استطاع الاسطول الأثيني بمساعدة المدن اليونانية الأخرى من أن يلحق هزيمة ساحقة بالقوات الفارسية، ثم موقعة "بالاتيا" سنة ٤٧٩ ق.م، وفيها تمكنت القوات البرية بقيادة اسبرطة من هزيمة الفرس، ثم موقعة " ميكالى" وهى موقعة بحرية انتصرت فيها القوات اليونانية بزعامة أثينا على الأسطول الفارسى. وأسفرت هذه الحروب عن انحسار التهديد الفارسى عن بلاد اليونان الاصلية.

ج - صراع الزعامة بين أثينا واسبرطة والحروب البلوبونيزية

بعد زوال الخطر عن بلاد اليونان الأصلية، ظلت المدن اليونانية الأسيوية تحت السيطرة الفارسية، وكانت هذه المدن تتوق إلى التحرر من هذه السيطرة خاصة بعد أن أضطرت للحرب ضد اليونان فى صفوف الفرس، وفر جنودها من صفوف الفرس إلى صفوف الجيش اليونانى أثناء هذه المعارك، وكانت هذه المدن فى حاجة للانضمام إلى المدن اليونانية الأصلية بدلا من وقوعها تحت سيطرة الفرس، وكان الأمر لا يحتاج إلا لظهور قوة سياسية تتمكن من توحيد بلاد اليونان تحت قيادتها لتحقيق هذا الغرض ومواجهة التهديدات الخارجية، وكانت أثينا واسبرطة هما أقوى المدن اليونانية فى ذلك الوقت خاصة بعد الدور الذى لعبته كل منهما فى الحرب ضد الفرس.

وحدث فى أعقاب موقعة بالاتيا التى كانت احدى مراحل حرب اليونان ضد الفرس أن تركت اسبرطة أداء دورها القومى وعاد جيشها إلى المدينة للحفاظ على موقع اسبرطة على رأس حلف البلوبونيز الذى كانت تتزعمه عسكريا، والحفاظ على الأوضاع السياسية فى المناطق المتاخمة لاسبرطة والتابعة لها مثل سهل ميسينيا.

وأدت هذه الأحداث إلى انفراد أثينا بفرصة ذهبية فى بداية القرن الخامس ق.م لزعامة بلاد اليونان، ساعدها على ذلك انسحاب اسبرطة من هذا الصراع، والاستقرار الاقتصادى والسياسى الذى كانت تتمتع به أثينا، والدور الكبير الذى لعبته فى انتصار المدن اليونانية على الفرس،وكانت الخطوة الأولى التى خطاها

الأثينيون فى هذا الاتجاه هى تقدمهم بعد موقعة ميكالى واستيلاؤهم على مدينة "سستوس" عند مدخل البحر الأسود، وأصبحت أثينا بذلك مهيئة لقيادة المدن اليونانية الأسيوية ضد السيطرة الفارسية، وأسفرت هذه الأحداث عن تكوين حلف من المدن الأسيوية اليونانية بزعامة أثينا وذلك فى سنة ٤٧٨ ق.م وسمى ذلك الحلف باسم حلف ديلويس نسبة لجزيرة ديلوس التى تقع فى وسط بحر ايجة والتى تم اتخاذها مقرا للحلف.

وقد كان هذا الحلف قائما على أساس أن تقدم كل من المدن المشتركة فيه عددا من السفن والأموال لتكوين أسطول للدفاع عن البلاد ضد الفرس، وكانت أثينا بطبيعة الحال أقوى هذه المدن وأقدرها على الاسهام ولهذا فقد كان الحلف منذ نشأته خاضعا لسيطرتها سيطرة مطلقة، واستغلت هى أيضا ذلك الظرف فى خوض العديد من المعارك التى انتهت بتحرير كامل للجزء الجنوبى من المدن اليونانية الواقعة فى آسيا الصغرى من سيطرة الفرس وانضمت هذه المدن بطبيعة الحال إلى حلف ديلوس.

ولم تستمر هذه الأوضاع طويلا على هذا النحو إذ أنه بانتهاء التهديد الفارسى لهذه المدن بدأ البعض منها ينظر إلى هذا الحلف على أنه قد صار أمرا لا ضرورة له، وبدأت بعض المدن فى محاولة الخروج من الحلف، ولما هذا كان الحلف قد تحول إلى امبراطورية أثينية فى واقع الأمر، فقد رفضت أثينا محاولات الخروج منه، وحاصرت قواتها مدينة "ناكسوس" حين حاولت الخروج من عضوية الحلف واجبرتها على التراجع بالقوة سنة٤٧٩ق.م، وقد كان دافع أثينا لذلك هو الازدهار التجارى والصناعى والسياسى الذى شهدته بفضل سيطرتها على التجارة فى بحر إيجة وازدياد النشاط الصناعى والتجارى نتيجة لذلك، وكانت السيطرة السياسية التى أصبحت مجالا لأثينا لتكوين امبراطورية بفضل زعامتها لهذا الحلف.

وهكذا قويت قبضة أثينا وتدعمت سيطرتها على هذا التحالف وخاصة فى عهد بركليس الذى تولى الزعامة لمدة ٣٠ عاما، وأصبحت أثينا سيدة بحر إيجة تجاريا وسياسيا، كما شهدت هذ الفترة إزدهارا أدبيا وفكريا واقتصاديا وتم خلالها استكمال

البناء الديمقراطى للنظام السياسى فى البلاد نتيجة لتعاظم دور العامة فى تحقيق انجازات البلاد فى النواحى الاقتصادية والعسكرية، وهكذا تم الحد من سلطات مجلس الاريوباجوس لصالح الطبقات الأخرى، كما تم توسيع دائرة الاختيار لعضوية الجهاز التنفيذى لتشمل الطبقة الثالثة من طبقات المجتمع، كما تم فى هذه الفترة أيضا إقرار نظام الأجور التى تمنح للمواطنين مقابل حضور جلسات المحاكم الشعبية ومجلس الشورى وشغل الوظائف الادارية، وكانت قبل هذا العهد تعد من قبيل الخدمات العامة دون أجر ، مما كان يمنع الفقراء من ممارستها حرصا منهم على عدم اضاعة دخلهم اليومى، وقد أدى هذا الإجراء إلى ممارسة كافة المواطنين بشكل فعلى لدورهم السياسى فى ظل النظام الديمقراطى.

د- الحروب البلوبونيزية

ازدهرت أحوال اثينا الاقتصادية والسياسية والعسكرية فى ظل زعامتها لحلف ديلوس، وأصبحت تمثل قوة كبرى بين مدن بلاد اليونان، ولكنها لم تكن القوة الوحيدة، فقد كانت اسبرطة فى نفس الوقت زعيمة على حلف يضم المدن اليونانية الواقعة فى شبه جزيرة البلوبونيز ، وكانت تمثل قوة برية تعتمد على أرض زراعية وجيش عسكرى قوى ومنظم، وكانت أيضا من الناحية الداخلية تمثل مجتمعا قائما على سطوة الطبقة الارستقراطية من ملاك الأرض، وهى لكل هذه العوامل تمثل تناقضا مع أوضاع أثينا، وكان لا بد لها أن تخشى من ازدياد قوة أثينا وسطوتها واستئثارها الوشيك بزعامة بلاد اليونان.

لمثل هذه الاسباب بدأ الصراع بين أثينا واسبرطة، وقد بدأ هذا الصراع بشكل فعلى بسبب التوسع الأثينى بحثا عن أسواق تجارية جديدة فى الغرب، مما هدد مصالح بعض المدن مثل كورينثة وميجارا، ورغم أن التجارة لم تكن من الأنشطة التى تمارسها اسبرطة، إلا انها كانت على استعداد للوقوف أمام أثينا دفاعا عن مصالح المدن الأخرى نظرا لخشيتها من ازدياد النفوذ الأثينى على حسابها.

كان الصراع أمرا واقعا لا محالة، ولم يكن الأمر يحتاج إلا لنقطة واحدة ينطلق منها،وكانت هذه النقطة أو البداية هى نزاع بين كورينثة واحدى الجزر

التابعة لها وهى جزيرة كوركيرا التى تحالفت مع أثينا وانفصلت عن كورينثة، ولما كانت كورينثة تخشى على نشاطها التجارى من السيطرة الأثينية، فقد استعانت باسبرطة ضد أثينا، ووجدت اسبرطة فى ذلك الفرصة لضرب النمو المطرد فى القوة والنفوذ الأثينى، ومن هنا بدأت أولى مراحل هذا الصدام العسكرى بين أثينا واسبرطة والمسمى بالحروب البلوبونيزية.

بدأت هذه الحروب سنة ٤٣١ ق.م، واتسمت بانقسامها إلى عدة مراحل وعدم توصل أطرافها إلى نتائج حاسمة، فمن ناحية أسبرطة فانها قد بدأت الحرب باجتياح سهل أتيكا لحرمان أثينا من وارداتها الزراعية، وردت أثينا بهجمات من أسطولها على السواحل البلوبونيزية، كما قطعت الخطوط التجارية بالمدن الموالية لاسبرطة، ولم تنجح محاولات كلا الطرفين فى الوصول لانتصار حاسم، فانتهت المرحلة الأولى من الحرب بعد عشر سنوات بصلح نيكياس، وهو اسم القائد الأثينى الذى مثل بلاده فى عقد الإتفاقية.

لم يدم السلم طويلا، إذ سرعان ما بدأت المرحلة الثانية من الحروب، وهى تلك التى خاضتها أثينا بقوة بحرية فى جزيرة صقلية لاخضاع مدينة سيراكوز واحكام الحصار حول مدن البلوبونيز، إلا أن هذه الحملة لم تسفر عن شىء حيث أصابها الفشل وتم تدمير القوة الأثينية وهزيمتها سنة ٤٢٣ ق.م.

هدأت الأحوال بعد ذلك لسبع سنين كانت اسبرطة فى خلالها تبحث عن مساعدة الفرس فى الحصول على قوة بحرية، وحين تم لها ذلك استأنفت الحرب ضد أثينا للاستيلاء على مداخل البحر الأسود لقطع الخطوط التجارية الأثينية هناك، وأسفرت هذ الحملة عن انتصار الأسطول الأثينى سنة ٤٠٦ ق.م فى موقعة أرجينوساى Arginusae، وبعدها بعامين انتصرت اسبرطة فى موقعة ايجرسبوتامى سنة ٤٠٤ ق.م وتم تدمير الأسطول الأثينى بأكمله واعلان استسلام أثينا وانهيار امبراطوريتها.

٨ – بداية الانهيار فى نظام دولة المدينة

شهد القرن الرابع انهيار السيطرة الأثينية فى اليونان، واصبحت اسبرطة تحتل مكانة أثينا فى قيادة الدويلات اليونانية الأخرى، إلا أن هذه القيادة لم تسفر عن أى نوع من الازدهار أو الوحدة لهذه البلاد، بل على العكس من ذلك فقد بدأ ظهور النزعات الانفصالية بشكل واضح، وازداد التمزق بين الدويلات المختلفة، فقد بدأ الاسبرطيون عهد زعامتهم لباقى المدن بصرامة بالغة وقسوة أدت إلى نفور هذه المدن من اسبرطة والثورة عليها، وقد شجع على ذلك الاتجاه أن الفرس الذين ساعدوا اسبرطة ضد أثينا كانوا ينتظرون المقابل من اسبرطة فى اعادة المدن الآسيوية إلى سيطرتهم، ولما لم تف اسبرطة بذلك، بدأ الفرس فى مساعدة هذه المدن عسكريا للثورة ضد اسبرطة وانتهى الأمر بعقد صلح بين اسبرطة وفارس سنة ٣٨٦ ق.م واعادة معظم المدن اليونانية فى آسيا الصغرى إلى السيطرة الفارسية، وأدى ذلك الأمر بطبيعة الحال إلى سقوط المكانة الأدبية التى كانت تتمتع بها اسبرطة كزعيمة لمدن اليونان، كما أن الجيش الاسبرطى الذى كان موزعا كحاميات عسكرية على المدن الأخرى قد اضعف من قدرة اسبرطة على السيطرة على البلاد، وكانت النهاية الطبيعية لذلك هى سقوط اسبرطة فى أول مواجهة عسكرية مع احدى المدن اليونانية حيث تمكنت طيبة من تكوين جيش قوى ألحق الهزيمة بالقوات الاسبرطية فى موقعة "ليوكترا" سنة ٣٧١ق.م، وتابعت طيبة بعد ذلك مجهوداتها لتحل محل اسبرطة فى توحيد بلاد اليونان وزعامتها، إلا انها لم تنجح هى الأخرى لافتقارها إلى مقومات الزعامة من تقدم حضارى واقتصادى وجيش نظامى قوى، وفى نفس هذه الفترة كانت أثينا تحاول استعادة مجدها ومكانتها وامبراطوريتها القديمة وذلك عن طريق تحالف جديد يضم عددا من المدن اليونانية، وقد كان من العوامل التى ساعدت أثينا على وشجعتها على الاقدام على هذه المحاولة الفترة التى كانت فيها اسبرطة تبسط سيطرتها على هذه المدن، والمعاملة القاسية التى كانت تعامل بها حلفاءها مما جعلهم يشعرون بالكراهية الشديدة نحو اسبرطة ويتطلعون إلى استبدالها باية زعامة أخرى.

ورغم أن هذا الظرف كان فى صالح أثينا لاستعادة امجادها إلا أن أثينا لم تستفد من الدرس السابق ومن نبشت أن عادت إلى معاملة الحلفاء معاملة سيئة،

وشعرت المدن الحليفة أنها خاضعة لنفوذ أثينا خضوعا مطلقا وليس مجرد حلفاء، ولهذا بعد زوال خطر اسبرطة فى اعقاب هزيمتها من طيبة، سرعان ما بدأ هؤلاء الحلفاء فى محاولة الخروج من التحالف مع أثينا، ودخلت أثينا حربا ضد هذه المدن انتهت بعقد صلح بين الطرفين سنة ٣٥٤ ق.م وكانت نتيجة ذلك الصلح أن عادت كل مدينة إلى الوضع الاستقلالى عن الحلف، وفقدت أثينا بذلك السيطرة على بحر إيجة.

الاوضاع الداخلية فى المدن اليونانية بعد انهيار محاولات الوحدة

فى منتصف القرن الرابع ق.م كانت المدن اليونانية بأكملها قد صارت وحدات مستقلة كل منها منفصل تماما عن الأخرى، وذلك بعد فشل محاولات توحيدها تحت زعامة أثينا أو اسبرطة أو طيبة، وشهدت الحياة فى هذه المدن تدهورا كبيرا فى شتى المجالات، فمن الناحية الاقتصادية تعرضت موارد هذه المدن إلى نقص شديد بعد أن فقدت اليونان أسواقا كثيرة كانت تصدر إليها منتجاتها فى القرن الخامس ق.م، ومن ناحية أخرى أدت أزمة الموارد وأزمة الانتماء إلى ظهور الجنود اليونانيين الذين يعملون كمرتزقة بأعداد كبيرة لحساب أية دولة أجنبية حيث حارب هؤلاء الجنود فى صفوف الفرس ضد مصر، ثم حاربوا فى صفوف جيوش المدن اليونانية ذاتها بدلا من المواطنين، كذلك انهارت النظم السياسية التى كانت تحكم المدن اليونانية وحل محلها المصالح الشخصية والطبقية الضيقة، وظهرت طوائف الديماجوجية والمخبرين والانتهازيين، وبدأ المجتمع فى الانهيار، وكان هذا نذيرا ومؤشرا بقرب سقوط المدن اليونانية وهو ما حدث بالفعل حيث تمكنت مقدونيا من اسقاطها الواحدة تلو الأخرى.

مقدونيا واخضاع بلاد اليونان

بعد الانهيار الداخلى الذى أصاب المدن اليونانية، وبعد أن آثر الفرس عدم التدخل العسكرى فى شئون اليونان أو مواجهتها عسكريا، كانت مقدونيا هى الخطر الجديد الذى يهدد هذه المدن.

وقد كانت مقدونيا تملك كل المقومات التى تؤهلها لان تكون خطرا حقيقيا ضد بلاد اليونان، فهى من الناحية الاقتصادية تملك الموارد الوفيرة من مناجم وغابات واراض زراعية ومراع واسعة، ومن الناحية السياسية نجدها وقد توحدت وصار لها جيش قوى بفضل جهود الملك فيليب.

وبالاضافة إلى ذلك فان موقع مقدونيا على الحدود الشمالية لبلاد اليونان كان من العوامل التى أوحت للملك فيليب بسهولة غزو البلاد من الناحية الجغرافية، مستغلا فى ذلك الانقسام الشديد فى صفوف المجتمع اليونانى وافتقاده الكامل للوحدة السياسية، وبدأ فيليب المقدونى فى تطبيق سياسته هذه بأن يقوم بالهجوم على إحدى المدن ويهادن فى نفس الوقت المدن الأخرى، وكلما أسقط مدينة أتجه إلى الأخرى، ولم تتنبه المدن اليونانية إلى خطته هذه إلا بعد فوات الأوان، فحين اتحدت أثينا وطيبة لمواجهته كان خطره قد استفحل بحيث لم يعد من الممكن التصدى له وتمكن من هزيمة جيوشها فى موقعة "خايرونيا" سنة ٣٣٨ق.م، وأتم سيطرته بذلك على كل المدن اليونانية.

انتهت فى هذا التاريخ دولة المدينة بشكل فعلى، وان كانت قد بقيت فى صورة هشة استبقاها فيليب المقدونى، حيث جمع المدن اليونانية فى حلف أسماه الحلف الإلهى يعمل على امداد ملك مقدونيا بما يحتاجه من جنود ومساعدات عسكرية ، وحرم عليهم الاقتتال فيما بينهم، وأبقى على المجالس الشعبية الخاصة بهذه المدن، ولكن كل ذلك كان مجرد مسائل شكلية والسلطة الفعلية كانت للملك المقدونى، وإن كان لليونانيين من انجاز فى هذه الفترة فهو انهم قد ظلوا متفوقين ثقافيا وحضاريا حتى أن الغزو العسكرى المقدونى لبلادهم لم يمنعهم أن يكونوا غزاة ثقافيين وفكريين لمقدونيا ولسائر الامبراطورية التى دانت بالولاء للإسكندر الأكبر وأخذت عن اليونان الأسس الثقافية والإدارية والعسكرية حتى امتزجت الحضارات الشرقية بالحضارة اليونانية فيما يسمى بالحضارة الهلينستية التى سادت فى العصور التالية.

٩- أهم الانجازات الحضارية فى بلاد اليونان(١)

المسرح

يعد المسرح أحد أهم الانجازات الحضارية لبلاد اليونان، حيث شهدت هذه البلاد مولده وازدهاره، ثم انتقل عنها إلى العالم بأسره، ولازال المسرح بقواعده وأصوله وفروعه يعد تراثا يونانيا أصيلا.

وترجع أصول فن المسرح فى اليونان إلى الاحتفالات الدينية التى كانت تقام هناك فى احتفالات الاله ديونيسوس، إله الخمر والكروم، وكانت هذه الاحتفالات تتم فى فصل الربيع من كل عام، ويتم خلالها تصوير المراحل التى تمر بها شجرة الكروم والاله المتصل بها فى فصول العام المختلفة، وتنتهى هذه المراحل بحلول فصل الربيع وانتصار الاله، وعودة الحياة والخضرة للاشجار، وقد كانت هذه الاحتفالات تتضمن الرقص والغناء والفكاهة، ومن خلالها نشأ المسرح بشقيه التراجيدى والكوميدى.

وقد مرت هذه الاستعراضات بمراحل مختلفة قبل أن يلبق مذيا فن المسرح بشكله النهائى.

المرحلة الاولى هى مرحلة أغانى الديثرامب، وهى أغانى ظهرت فى القرن التاسع والقرن الثامن ق.م، وكان يقوم بها جماعات من المنشدين على رأس كل منها قائد، وانتقلت هذه الأغانى من مدينة كورينثة إلى مدينة أثينا، وصارت أحدى احتفالات الاله ديونيسوس، وقد كانت هذه الاحتفالات تتسم بالجدية، كما كانت تدور حول موضوعات متكاملة ذات بداية ونهاية ومعان واضحة، ولذلك فانها قد تطورت لتصبح أساس فن التراجيديا فيما بعد.

وقد كان هناك نوع آخر من الاستعراضات، وهى استعراضات هزلية يؤديها أشخاص يرتدون أزياء تمثل الحيوانات أو الطيور، وتعد هذه الاستعراضات هى النواة الأولى لفن الكوميديا.

وقد بدأ الظهور الفعلى للمسرح اليونانى على يد شخص يسمى ثيبيس، وهو مواطن عاش فى أثينا فى أواسط القرن السادس ق.م، ويرجع إليه الفضل فى تطوير طريقة أداء أناشيد الديثرامب، حيث أنه قد قام بتحويل أحد أفراد جوقة المنشدين إلى منشد منفرد، وجعله يقوم بتمثيل دور الشخصية التى تدور حولها الأحداث، وذلك من خلال حوار يدور بينه وبين الجوقة.

وبدأت المسرحيات فى هذ الفترة فى شكل بسيط وبدائى، ولم يتعد دور الممثل أن يكون مجيبا على الجوقة، وكان عليه القيام بكافة الأدوار والشخصيات التى تدور حولها القصة أو الحوار، وكان من الضرورى أن تتصل كافة الموضوعات بالاله ديونيسوس، كما كان المجيب وأعضاء الجوقة يرتدون جلد الماعز خلال هذه العروض، ومن هذه الملابس نشأت تسمية المسرح التراجيدى حيث أن كلمة تراجيديا فى اللغة اليونانية تعنى أغنية الماعز، وتتكون من مقطعين هما "تراجوس" وتعنى " الماعز"، و"أودوس" وتعنى " أغنية".

استمر المسرح بعد هذه البداية الأولى فى مراحل تطوره الأخرى، وكانت المرحلة الثانية هى مرحلة تطور الموضوع، حيث لم تعد الموضوعات قاصرة على الاله ديونيسيوس ولكنها تعددت هذا الوضع وصارت تتناول مسائل أخرى معظمها من الاساطير اليونانية، وكلها تدور حول الصراع بين البشر والالهة، أو بين الانسان والأقدار.

ثم حدث تطور جديد فى الشكل والأداء، وزاد عدد الممثلين إلى أثنين ثم ثلاثة وأربعة، كما حدث تطور آخر فى الاخراج و تنفيذ المسرحيات إلى أن وصل المسرح إلى أفضل أشكاله فى القرن الخامس ق.م، وفى ظل وجود أقطاب المسرح التراجيدى والكوميدى، ايسخيلوس وسوفوكليس و يوريبيديس وأريستوفانيس.

وجدير بالذكر أن هناك نوعا آخر من الأعمال المسرحية قد ظهر نتيجة للتطور الذى حدث فى أناشيد الديثرامب، والتى تحولت من مسرحيات تراجيدية بدلا من انشاد قصص الاله ديونيسوس ذلك النوع هو المسرحيات الساتيرية التى انتقلت اليها قصص الاله ديونيسوس، وهذه المسرحيات عبارة عن أعمال يقوم بها أشخاص يرتدون ملابس تصورهم فى شكل حيوانات مختلفة، ويقدمون مجموعة من المشاهد المأساوية ومشاهد أخرى تتضمن نقدا جريئا، وتتسم بالنهاية السعيدة، وتمتاز بالجمع بين قصص الاله ديونيسوس وعنصر الفكاهة.

وقد صارت هذه المسرحيات بديلا لاناشيد الديثرامب التى كانت تتناول قصص الاله ديونيسوس ثم تحولت إلى المسرح التراجيدى، وأصبح وجود هذه المسرحيات الساتيرية ضروريا إلى جانب المسرحيات التراجيدية خلال المباريات المسرحية التى كانت تقام فى أثينا بمناسبة أعياد الاله ديونيسوس.

هذا عن المسرح التراجيدى، أما المسرح الكوميدى فقد أختلف عن المسرح التراجيدى أو الساتيرى فى أمر أساسى، وهو أن الموضوعات التى تناولها لم تكن من الاساطير أو قصص الالهة، ولكنها كانت موضوعات من المجتمع والمفارقات والاوضاع التى يعيشها.

ولم تكن أثينا أسبق المدن اليونانية فى ظهور هذا اللون من الفن المسرحى بها، ولكن يبدو أن فن الكوميديا قد ظهر أولا فى ميجارا أو صقلية، إلا أنه قد بلغ أوج ازدهاره فى أثينا فى القرن الخامس ق.م، ويرجع هذا الازدهار إلى الظروف التى كانت تمر بها أثينا فى هذه الفترة، وخاصة الصراع مع اسبرطة والحروب البلوبونيزية، وما تسبب فيه من تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية فى المجتمع، وما ظهر بعد ذلك من مفارقات وخلل اجتماعى، وأصبح كل هذا مادة خصبة للتناول الكوميدى على خشبة المسرح، كما أن هذه المرحلة قد شهدت ظهور العديد من المفكرين والمدارس الفلسفية ورجال السياسة والعسكريون، وكان هذا بمثابة موضوعات خصبة ومتجددة، وجد فيها المسرح الكوميدى معينا لا ينضب، وشهدت هذه الفترة العديد من المسرحيات الكوميدية التى لم تترك مجالا من

مجالات الحياة فى البلاد إلا وتناولته بالنقد اللاذع، وساعد على ذلك النظام الديمقراطى القائم فى أثينا فى ذلك الوقت.

عوامل ازدهار المسرح فى أثينا

أدت عوامل عديدة إلى ازدهار فن المسرح فى أثينا دون غيرها من المدن اليونانية، وقد كان الازدهار المسرحى فى أثينا ملحوظا إلى حد اطلاق اسم المسرح الأثينى على المسرح اليونانى بشكل عام، وسوف نعدد فيما يلى أهم العوامل التى ساعدت على الازدهار المسرحى فى مدينة أثينا.

١- الموقع الجغرافى

تمتاز شبه جزيرة أتيكا، حيث تقع أثينا، بموقع جغرافى متميز، وقد ساهم ذلك فى تسهيل عملية الاتصال الحضارى بين أثينا وما حولها من المدن الأخرى، هذا بالاضافة إلى سهولة الاتصال مع جزر بحر ايجة، والمدن اليونانية الواقعة على ساحل آسيا الصغرى، ونتج عن كل هذا احتكاك مستمر بين الأدباء الاثينيين وهذه المناطق، وساعدهم هذا الاحتكاك على تعلم أساليب وطرق أدبية جديدة، قاموا بتطويرها والاستفادة منها فى مختلف أعمالهم.

٢- الظروف التاريخية

شهدت مدينة أثينا فى القرن السادس ق.م فترة حكم الطغاة، وكان لهذه الفترة، وخاصة على يد بيزاستراتوس، فضل كبير فى الازدهار الأدبى الذى شهدته البلاد، فقد وجه هذا الحاكم اهتماما كبيرا للأداب والفنون وشجع العاملين بها، وتم فى عهده جمع وتدوين الالياذة والاوديسية، وصارتا بعد ذلك أساسا لمعظم الأعمال المسرحية فى ذلك الوقت وبعد ذلك، وكان للتشجيع الذى لاقاه الأدباء والفنانون أثره البالغ فى ظهور العديد من الأدباء فى شتى المجالات، وكانت هذه المرحلة نقطة انطلاق للأداب والفنون فى أثينا، وظهرت ثمارها فى الازدهار الكبير الذى شهدته

الحياة الثقافية فى القرن الخامس ق.م، وظهرت على اثر ذلك المباريات المسرحية نتيجة للازدهار المسرحى الكبير سواء فى التراجيديا أو الكوميديا.

٣- الظروف السياسية

شهدت أثينا فى القرن الخامس ق.م ظروفا سياسية أسهمت فى النهضة الأدبية والفنية التى أدت إلى ظهور المسرح الأثينى، تلك الظروف هى وصول أثينا إلى زعامة معظم المدن اليونانية سياسيا ونجاحها فى تكوين حلف ديلوس تحت زعامتها، وأدى هذا إلى وصول المدينة إلى مركز سياسى وأدبى ورخاء اقتصادى كبير.

وكانت أثينا قد وصلت إلى هذا المركز نتيجة نجاحها فى استثمار قيادتها للمدن اليونانية، وانتصارها على الفرس سنة ٤٨٠ ق.م، ونجحت بعد ذلك فى تحويل حلف ديلوس إلى امبراطورية أثينية تعود عليها بالكثير من الناحية السياسية والاقتصادية.

أدى كل هذا إلى انتعاش كبير فى الآداب والفنون، وكان ازدهار المسرح أحد أهم مظاهر هذا الانتعاش، وأثمر الزواج الاقتصادى القدرة على تنظيم وتمويل المهرجانات السنوية المسرحية التى كانت تقام فى أثينا فى ذلك الوقت.

المقومات البشرية للمسرح اليونانى

١- الجوقة

الجوقة أو الكورس هى أهم العناصر والمقومات البشرية للمسرح اليونانى، بل هى فى واقع الأمر أساس هذا المسرح ونشأته الأولى، فلم يكن هناك كما رأينا

سوى جوقة المنشدين قبل أن تضاف عناصر التمثيل الفردى وتزداد مساحته على حساب الجوقة مع مرور الوقت.

ويمكننا متابعة دور الجوقة بسهولة من خلال سطور المسرحيات التى وردت الينا من ذلك العصر سواء فى الترجيديا أو الكوميديا، ويمكننا أن نلحظ الدور الكبير الذى كانت الجوقة تلعبه فى شتى أنواع المسرحيات فى بداية القرن الخامس ق.م، ثم نلحظ كيف أخذ هذا الدور فى التقلص التدريجى إلى حد أننا لا نجد ثمة دور للجوقة سوى انشاد بعض الأغانى فى الفترات الفاصلة بين مشاهد المسرحيات، وهى أغانى لا تؤثر فى سياق أو جوهر الأحداث، ومن اليسير الاستغناء عنها دون الاخلال بسياق العرض المسرحى.

٢- الممثلون

يرجع الفضل فى وجود الممثل المسرحى- كما سبق أن ذكرنا- إلى ثيبيس، ذلك الشخص الذى أدخل عنصر الممثل أو المجيب فى القرن السادس ق.م، وجعله يشارك الجوقة فى الأداء ويحاورها من خلال قائد هذه الجوقة.

وقد تطور عنصر التمثيل بعد ذلك من شخص واحد لدى ثيبيس، إلى شخصين لدى ايسخيلوس، ثم ثلاثة لدى سوفوكليس، ثم أخذ العدد فى الازدياد حتى رأينا أعدادا كبيرة من الممثلين تشارك فى أعمال أريستوفانيس فى القرن الرابع ق.م.

وقد تمكن المسرح اليونانى من التغلب على مشكلة زيادة عدد الشخصيات عن عدد الممثلين باستخدام الأقنعة، وأمكن بذلك أن يقوم شخص واحد بتمثيل العديد من الأدوار باستخدام القناع المناسب لشخصيته التى يؤدى دورها، وكان هناك عدد آخر من الأشخاص الذين يقومون بالأدوار الثانوية.

وقد كانت قلة عدد الممثلين من العوامل التى ساعدت على سهولة الحركة والتركيز، وكان على الممثل عبء ضخم يتمثل فى ضرورة اجادة استخدام

الصوت والتعبيرات الحركية فى تأدية الأدوار المختلفة، وذلك حتى يتناسب هذا الأداء مع الشخصية التى يؤديها والقناع الذى يرتديه، وكان الممثلون يخضعون لتدريبات جادة ومكثفة حتى يصلوا إلى مرحلة الاتقان التام للأدوار التى يقومون بها.

٣- الجمهور

لم تكن العروض المسرحية فى بلاد اليونان فى هذ الفترة من التاريخ تتم بالشكل والاسلوب الذى نعرفه الآن، ولم يكن المشاهدون يذهبون إلى المسرح فى أى وقت لمشاهدة المسرحية التى تروق لهم، ولكن كانت المسرحيات تعرض بصفة عامة فى المباريات المسرحية، وفى موسم محدد من كل عام، وكانت هذه المسرحيات والمنافسات التى تدور بشأنها تمثل جزءا من الاحتفالات الدينية التى تقام على شرف الاله ديونيسوس، لذلك فان المواطنين كانوا يذهبون إلى المسرح كجزء من واجباتهم، وكانوا يحرصون على حضور هذه المباريات المسرحية والاحتفالات الدينية، وكان تمويل هذه الاحتفالات يتم عن طريق الدولة سواء من ناحية العروض المسرحية وتكاليف اخراجها أو من ناحية الجوائز، وكانت الدولة بالاضافة إلى ذلك تقوم بدفع مبلغ من المال للفقراء من المواطنين تعويضا لهم عن ترك أعمالهم وحضور الاحتفالات.

العناصر المعمارية للمسرح اليونانى

١- الاوركسترا

الاوركسترا هى المكان المخصص للجوقة، وكانوا يقومون بانشاد الاناشيد وأداء الرقصات مع بداية ظهور المسرح اليونانى.

وكانت الاوركسترا تقع فى مكان متوسط ومستدير، ويتوسط هذا الموقع المذبح الخاص بالاله ديونيسوس، وقد تطور هذا الجزء من البناء المعمارى

للمسرح من ناحية الأهمية والمساحة حسب التطور الذى شهده المسرح عبر تاريخه، فقد تضاءلت أهمية الاوركسترا مع تضاؤل أهمية الجوقة بالنسبة للمسرحيات، وانتهت بانتهاء دور الجوقة فى العصر الرومانى، وصارت هذه المساحة تستغل أحيانا لاضافة أماكن جديدة للمشاهدين.

٢- غرفة الممثلين

هى المكان الذى يستخدمه الممثلون فى تغيير ملابسهم لأداء أدوارهم، وقد تطورت مع مراحل تطور المسرح، وكانت فى البداية خيمة بسيطة توجد بالقرب من رأس الاوركسترا وفى مواجهة الجمهور، وتتم ازالتها عند نهاية الموسم المسرحى، ثم تطورت بعد ذلك واصبحت بناءا خشبيا ذا أبواب للدخول والخروج، ووصلت إلى أفضل شكل لها فى القرن الخامس ق.م، وصارت على شكل بناء دائم مبنى من الاحجار وعليه صور وتماثيل، وأمامه أعمدة للزينة.

٣- خشبة المسرح

ليس هناك دليل مادى على أن المسرح اليونانى قد عرف فى بداياته فى القرن الخامس مكانا مخصصا يؤدى عليه الممثلون أدوارهم ويمكن أن يسمى خشبة المسرح.

وفى الغالب أن الممثلين كانوا يؤدون أدوارهم فى ساحة الاوركسترا، وعلى نفس مستوى وقوف الجوقة، ثم تطور الأمر بعد ذلك خلال القرنين الرابع والثالث ق.م، وصارت المسارح تضم بناءا حجريا مرتفعا يؤدى عليه الممثلون أدوارهم، وهو ما يمكن أن يسمى خشبة المسرح وفقا للتعبير المعروف فى وقتنا هذا.

٤- المدرجات

هى الأماكن التى كان يجلس عليها الجمهور لمشاهدة العرض المسرحى، وقد مرت بعدة مراحل وتطورات، فكان المشاهدون فى بادىء الأمر يجلسون على التلال المحيطة بالاوركسترا، وتم بعد ذلك اضافة مقاعد خشبية على هذه التلال والمنحدرات، ثم تم بناء مدرجات حجرية فى القرن الخامس ق.م، وقد كانت تحيط بساحة الاوركسترا من كل الجوانب تقريبا، ويخترقها العديد من الممرات التى تسمح بمرور المشاهدين، وكانت هذه المدرجات تتسع فى بعض الاحيان لجلوس أكثر من عشرين ألف متفرج.

ويبدو أن هذا الاتساع منطقيا لو علمنا أن الاحتفالات والمباريات المسرحية كان يحضرها كل مواطنى المدينة أو أغلبهم، وقد تمكن اليونانيون من التغلب على عقبة توصيل صوت الممثلين إلى هذا العدد الكبير من المشاهدين عن طريق بناء المسارح وسط مجموعة من التلال بحيث يساعد المكان على حسن تردد الصوت ووصوله إلى أبعد مشاهد عن خشبة المسرح.

(١) : أنظر : د/ لطفى عبد الوهاب يحيى - اليونان

وأنها تستحق ما وصلت إليه من مجد فى فترة زمنية قصيرة ، إذا ما قيست تلك الفترة (وهى من ٢٦٤ - ٢٠٢ ق.م) بتواريخ حضارات أخرى ، فإنها تعتبر بحق - كما يعتقد پوليبيوس (Polybius) المؤرخ اليونانى - أمر لا نظير له ، فغدت فى فترة لا تتجاوز الخمسين عامًا أقوى مدينة آنذاك ، وحصلت على السيادة العالمية فى حوض البحر المتوسط عقب انتصارها النهائى على قرطاجة فى عام ١٤٦ ق.م **فما هى إذن ، خصائص الشخصية الرومانية ؟** .

يمكننا إيجاز أهم خصائص ومقومات الشخصية الرومانية فيما يلي :

(٥) مقومات الشخصية الرومانية :

(أ) الجانب العملى :

يقول كاتو الأكبر[١] "إن الرومانى المثالى هو الرجل القوى المقدام الفعّال : Vir romanus est fortis et Strenus " ويقول مؤرخ رومانى كبير - في فترة لاحقة - إن جميع المشروعات والأعمال لابد أن تحقق غايات مفيدة فى الحياة : " adutilitatem vitae " أى أن أى عمل يقدم عليه الرومانى ، يجب أن يكون موجهًا إلى تحقيق هدف محدد يستفيد منه ويجعل حياته أكثر سهولة وراحة له ، وتخفيفًا من أعباء الحياة على جماعته ومدينته . وهذا دليل كافى على نظرة الرومانى العملية ، والواقعية التى تحدد هنا المصلحة والمنفعة ، وقد أوصلت هذه الروح العملية للرومانى إلى ميدان القتال والقانون والحكم ، فخلقت منهم قادة مطيعين ، واضحى الهدف (إذ كان الجيش الرومانى يدخل المعارك لا من أجل الغنائم بل لتحقيق أهداف عملية واضحة) ورجال قانون غاية فى الدقة والضبط ، ينفذون قوانين هدفها الأول تحقيق المنفعة للصالح العام ، والضرب بقوة على كل خارج عن تلك القوانين ، كما جعلت منهم رجال حكم وإدارة غاية فى الشدة والإصرار علي بلوغ الهدف .

(ب) القوة والصلابة :

يقول أشعر شعراء الرومان ڤرجيل (Virgilius) وكان شاعراً للقصر الإمبراطورى فى عهد أوغسطس " **أننا شعب شديد المراس ، نحمل أطفالنا إلي الأنهار وتعوّدهم قوة الاحتمال فى المياه الثلجية القارصة وهم فى الصبا يقضون الليالى ساهرين على الصيد ، ويقطعون**

---

١ - شخصية رومانية نموذجية ، لبقة وصارمة ونزيهة (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) كان لها دور كبير فى سياسة روما فى تلك الفترة . خدم بلده فى ميادين عديدة فى السياسة والجيش والمجتمع .

(أخشاب) الغابات . ورياضتهم هي كبح جماح الجياد ، وقذف النبال بالقوس ، فإذا بلغوا سن الشباب ، يزداد جَلَدهم على المشاق واحتمالهم للضنك فيُسَخِّرون الأرض بمعاولهم أو يهزون المدائن في الحرب "(١) .

ويقول نفس الشاعر مقارنًا مواطنيه بالشعب اليوناني الذي يمتاز بالخيال الخصب ، والإحساس الطيب بالجمال ، والسعي وراء الكمال « ..... ، **ولكن أنت أيها الروماني ، ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك ، فتلك هي رسالتك : أن تفرض سنة السلام وتصفح عن المقهورين ، وتقهر المتجبرين "** (٢).

كذلك نجد كاتو الأكبر (Cato maior) ، قبل ڤرجيل بحوالي مائة عام أو أكثر ، ينصح ابنه – في الكتاب الذي وضعه حول نشأة روما (Origines) – فيقول : « إن الملمّات تروضنا وتعلمنا السلوك الرشيد ، بينما تضللنا الإنتصارات عن سبيل الرشاد " . وهو بهذا يؤكد علي خاصية واضحة في طبيعة الشعب الروماني – وبصفة خاصة أهل روما وقادتها وساستها – وهي ذلك الإصرار ، والصلابة في المواقف ، مهمات يمكن أن يحدث من نكسات وهزائم في معارك ، ولكن دونما استسلام للواقع ، فكانوا يخرجون بدروس مستفادة من كل نكبة ، ويعودون أكثر قوة ، وأشد إصراراً على تحقيق النصر المبين .

والآن ننتقل لنرى سويًا ، تلك المبادئ والقيم التي كان الرجل الروماني يتربى عليها في أسرته ، وهي نواة أي مجتمع من المجتمعات ووراء نجاح أو انهيار أية جماعة بشرية ، وحيث يتعرف المواطن منذ نعومة أظافره على سلوكيات معينة ، كان عليه أن يقلدها ويحافظ عليها ، وهي السر الحقيقي وراء عظمة روما ، كمجتمع فرض نفسه على كل من حوله ، بل لم يكتف بذلك فخرج إلى بلدان حوض البحر المتوسط وفرض سيطرته عليها الواحدة تلو الأخرى ،

---

١ – ڤرجيل . الإنيادة ، الكتاب ٩ ، سطور ٦٠٣ – ٦٠٨ ، الترجمة العربية هي عن د . عبد اللطيف أحمد علي : روما ، الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ٧ – ٨ النص اللاتيني هو :

" dutum a stripe genus natos ad flumina primum " deferimus saevoque gelu drramus et undis; venatu invigilent pueri silvasque faugent, flectere ludus equas et spicula tender cornu; at patiens operum parvoque adsueta iuventus aut rastris terram domat aut quatit oppida bello".

٢ – الإنيادة ، الكتاب السادس ، سطور ٣٥١ – ٨٥٣ .

" Tu regere imperio populos, Romane, memento (haec tibi erunt artes) pacisque imponere morem, parcere subiectos et debellare superbos " .

منتهزاً الفرص السياسية المواتية لبسط سلطانه ونفوذه باسم الشعب الروماني كله ، وتحت قيادة رجالات روما بصفة خاصة . إنها هي روما ذاتها وأهلها ، الذين هم وراء كل نجاح حقيقي سواء في داخل إيطاليا القديمة أو خارجها وراء البحار ، عندما كانت متمسكة بمبادئ نشأتها ونهضتها الأولى ، وهي هي نفسها التي انهارت خلقيًا ، فانهزمت سياسيًا وتدمرت عسكريًا وتقلصت ممتلكاتها الخارجية ، عندما تناست أسرار نجاحها الأولى .

فكيف كانت إذن حياة الأسرة في روما القديمة ؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن تتعرف على مفهوم الأسرة والأفراد الذين يكونونها ، ودور كل فرد في تلك الجماعة الصغيرة ، وأكثرها تأثيراً على المجتمع بأسره .

(جـ) الأسرة[١] (Familia)

تقديم :

يقول أحد علماء التخصص وهو بترى (Petrie) :

" The keystone of the Roman state " was the family (familia), and the head of the family (pater familias) exercised, in the eye of the law, an almost despotic authority over the other members of it. "

بمعنى :

١ - إن حجر الزاوية في الدولة الرومانية كانت هي الأسرة ، ومارس رئيسها غالبًا - تحت سمع وبصر القانون - سلطة سيادية على كل أعضائها الآخرين .

٢ - وكان الأب هو المالك الوحيد المعترف به - أمام المجتمع الروماني - لكل ثروات الأسرة . وإذا سمح لابن أو عبد أن يمتلك شيئاً فهذا تفضُّل منه وتنازل كبير ، ويُعرف ذلك باسم "Peculium" ، أي جزء صغير من الممتلكات العينية .

٣ - كما كان يجوز له - في بعض الأحايين - أن يصدر أمراً بالموت على الزوجة أو الابن، أو العبد ، هذا بالرغم من تدخل القانون ، تدريجيًا بمرور الوقت ، كحماية أعضاء الأسرة ضد حالات التطرف الشديد والمطلقة لسلطة الأب .

---

١ - هذه الكلمة باللاتينية (Familia) تعني " مجموعة / تجمُّع / الخدم (Famuli)، مما يعني كل ممتلكات الرجل المنزلية ، وليس فقط الزوجة والأطفال ، راجع : Petrie, A., An Introduction to Roman history, Literature and antiquities, (New Edition 1956), p. 87 .

كانت تتكون من :

١ – الأب (Pater) وهو أكبر الأعضاء سنًا ، وله سلطة مطلقة في تصريف شئون الأسرة، فهو بالنسبة للأسرة (Pater Familias) ، أى رب الأسرة ، المسئول الأول عنها وعن كل أفرادها ، ولهذا كان يزاول سلطة الأب على زوجته وأولاده ، وهذا ما تعرفه باصطلاح (patria Potestas) أما على العبيد فكان يزاول سلطة " السيد" (dominica potestas) ولكن على الأتباع أو الموالى سلطة "الحماية" أو الولاية (Patronatus) .

أما سلطة الأب على الزوجة فتعنى "مانوس" (Manus) وهى سلطة وضع اليد بحق الزواج منها والارتباط بها . فأى تشبيه أسوأ من ذلك فى نظر نساء اليوم !!! . وعندما كان الأمر يتعلق باتخاذ قرارات نهائية بخصوص عضو من أفراد الأسرة ، كان العرف الرومانى ، يقف حائلاً دون سلطة الأب حيث كانت المطلقة ، فيرضخ إلى رأى مجلس الأهل والأقارب[١] كانت سنة السلف (mos maiorum) ، بمثابة القانون الواجب النفاذ ، بدافع الالتزام الأدبى ، واحترامًا للتقاليد الجماعية .

٢ – الأم (Mater) أو الزوجة :

كان دورها قاصراً على أعمال المنزل ، كالطهى وغزل الملابس الصوفية . فلم تكن – مثل المرأة المصرية الفرعونية – تساعد زوجها في الأعمال الزراعية والفلاحة فى الأرض ولهذا فإن اللغة اللاتينية لم تعرف مفرداتها لفظة (فلاحة) ، بل فلاح فقط (agricola)[١] .

كان للزوجة الرومانية تأثير غير مباشر على مجرى الأمور فى حياة الأسرة ، وكان لها حرية التصرف داخل المنزل ، فهى صاحبة الكلمة العليا داخل جدرانه . كما كان لكل فرد فى الأسرة عمل معين ، يجب عليه أداؤه . فضلا عن الواجبات الدينية تجاه آلهة الجماعة ، تلك الآلهة التى توفر لها الأمان والحماية وتحل بفضلها البركة والرخاء للأسرة جميعها .

٣ – الأبناء (Liberi) :

وهم أبناء الأسرة كلها سواء أكانت الأسرة صغيرة ، أم كبيرة يعيش فى كنفها أبناء كمتزوجين للجد الأكبر ، الذى يملك كل السلطات . وكان عملهم يتمثل في مساعدة الأب

---

١ – ما أقرب هذا التصرف بما كان يحدث عندنا فى الأرياف عند وقوع مشاكل عائلية ، فيستشارك فى حلها مجلس العائلة كله وتعتبر قراراته واجبة النفاذ .

٢ – هذه ملاحظة لغوية ، ذات مدلول اجتماعى حضارى ، توصلنا إليها من خلال تدريس اللغة اللاتينية لسنوات عديدة لطلبتى فى أقسام اللغات الأوربية الحديثة .

فى إنجاز الأعمال خارج المنزل ومساعدة الأم بداخله ، فكانت البنات دائمًا داخل المنزل لا يخرجن منه أبداً ، حتى ولو للزيارة أو للاستضافة ، بدليل أن اللغة اللاتينية لا يعرف قاموسها كلمة مؤنثة لكلمة ضيف (Conviva) ، التى تستخدم للنوعين .

٤ - العبيد (Servi) :

وهم ، أصلاً ، إما أسرى حرب ، وأبناء أسرى ، أو أشخاص أصبحوا عبيداً لأنهم لم يستطيعوا الوفاء بديونهم ، فيظلوا هكذا إلى أن يستطيعوا تأدية ما عليهم ، أو أن يدفعها عنهم أحد ويعتقهم . هذا ما يذكرنا بعصور الجاهلية ، فيما قبل الإسلام عندنا ، كما يدل دلالة واضحة على القسوة فى المعاملة مع غير القادرين من أبناء الطبقات الاجتماعية الفقيرة . وكان الأب ، كبير الأسرة التى يعملون فى ظلها ، يمارس عليهم سلطة "السيد" (وهى المعروفة فى اللاتينية (dominica potestas) كما ذكرنا من سابقًا .

٥ - الأتباع أو الموالى (Clientes) :

هم أناس أحرار وليسوا عبيداً ، ولكنهم يصاحبون أسيادهم دائمًا ، ويقومون على خدمتهم، ويكونون دائمًا رهن إشارتهم فى كل شيء ، وذلك لبقاء ما يجود به هؤلاء الأسياد (domini) عليهم من نعم وهبات ، ولهذا فإنهم بذلك كانوا يربطون مصيرهم بحياة سيدهم ومصيره ، كما كانوا يتواجدون باستمرار حيث يوجد سيدهم ، فيترددون على بيت الأسرة ويلبون طلباتها ، آملين فى حمايتها لهم ورعايتها إياهم . وكانت سلطة رب الأسرة عليهم سلطة "الحامى" أو "الولى" (Patronatus) . إنه نفس ذات النظام الاجتماعى الذى سمعنا عن جزئية منه فى صدر الإسلام وهو المعروف بالموالى .

وإذا ما تطرقنا إلى المعتقد الدينى للأسرة ، وممارستها الإيمانية داخل حدود البيت ، والآلهة التى يعتقدون فى مساعدتها وتأثيرها عليهم ، فبفضلها ينجحون ، وبرعايتها تفلح أعمالهم ، ويضمنون سلامتهم ، وتتحقق رفاهيتهم ويزيد خيرهم . فمن هذه الآلهة ، ما يلى : -

١ - فستا (Vesta) :

ربة النار والموقد ، حيث كان الموقد من ضروريات المنزل الريفي (Villa) بسبب برودة الشتاء القارس كما تفرضه الطبيعة فى بلادهم .

٢ - لارس (Lares) :

وهى أرواح الأرض الزراعية - أو كما يظن البعض ، فهى أرواح الأسلاف الراحلين - التى تظل حية تطوف بأماكن إقامتها فوق الأرض وقبل مماتها ، لتبارك الأحفاد . وكان

طبيعيًا أن يعتقد الرومانى القديم فى آلهة تخص الأرض التى يزرعها ويعيش علي ريعها طول العام ، وكان لابد كذلك أن يتقرب لها ويشكرها على خيرها العميم الفياض كل موسم وعند الحصاد .

٣ – پناتيس (Penates) :

وهى أرواح غرفة التموين والتخزين التى لايخلو منها أى بيت ، حيث كانت تتجمع كل ضروريات الحياة الريفية البسيطة ، من ألبان وجبن ولحوم مجمدة محفوظة ، وكل أنواع المحاصيل التى تجود بها أرض الأسرة وكانت الأرواح حامية هذا المكان .

٤ – جنيوس (Genius) :

وهي الروح الحارسة ، وبصفة خاصة ، لرب الأسرة . هنا يبرز دور الأب ، كبير الأسرة ومدى خوف أهله عليه ، وحرصهم على أن تتولى حمايته ومباركته روح مسئولة عنه ، وذلك بسبب خطورة دوره وأهميته بالنسبة لأفراد الأسرة ، الذين يعتمدون عليه فى كل شيء ، ويتوقف عليه هو مصير الأسرة بكاملها ، بما في ذلك العبيد والموالي . لقد كانت الأسرة الرومانية ، كما تستطيع أن تفهم ، أسرة أبوية ، أى يتفرد الأب فيها بالسلطة علي جميع أفرادها ، وإليه هو ينتسبون ، ولهذا كان اعتقاد أفراد الشعب الرومانى القديم ، بأن هناك روحًا مسئولة عن توفيق الأب ونجاحه فى كل خطواته من أجل سعادة وخير الأسرة كلها وكانت تلك الروح تباركه فى صحته وعمله اليومى .

هنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأرواح ، لم تبلغ – لدي العقلية الرومانية البدائية – مبلغ الآلهة ولم ترق إلى مصافها ، ولكنها كانت ذات تأثير بالغ فى حياة الجماعة ، والأسرة الرومانية فى مراحل تطورها الأولى ونهضة المجتمع الزراعى المحدود ونموه البدائى .

إن أهم ما يمكن أن يسجل لتلك الصور البدائية لحياة الجماعات والأسر ، كبيرها وصغيرها ، هو ذلك الاحترام غير المحدود ، الذى يصل إلى درجة التقديس ، والالتزام بالواجب ، دونما مناقشة أو معارضة لسنة السلف تلك التى كانت بمثابة القانون ، في الوقت الذى لم يكن للقانون الوضعى أى وجود ... وكان العرف والعادة ، أى كما تعارف الناس وتعودوا على مر العصور ، هى القانون الذى لا ردة عنه .

– صور للحياة اليومية لأسرة ريفية :

كانت الحياة الريفية ، كما هو معروف ، ونحن هنا فى مصر لسنا بغرباء عن تلك الحياة ، كثيرة المطالب العملية ، خارج المنزل ، أى فى الحقل أو المزرعة . وكان لابد من توزيع

الأدب اليوناني

أ- شعر الملاحم

الشعر الملحمي هو نوع من الشعر امتاز عمن سواه بانه كان يتلى على السامعين سواء في القصور أو المنازل أو أى مكان آخر، ولم يكن ينشد مثل الشعر الغنائي، أو يتخذ شكلا دراميا مثل الشعر المسرحي، ويعد هوميروس هو رائد هذا الفن، كما تعد الالياذة والاوديسية أشهر ما عرفناه من شعر الملاحم.

وتروى الملحمتان قصة حرب طروادة، حيث تتناول الالياذة قصة هذ الحرب من خلال غضب اخيليوس القائد العسكرى اليوناني وخلافه مع أجاممنون قائد جيوش اليونان، وتتطرق إلى قصة بداية هذه الحرب بسبب اختطاف ابن ملك طروادة باريس لهيلين زوجة منيلاوس حاكم اسبرطة وشقيق أجاممنون، وذهابه بها إلى طروادة.

أما الاوديسية فتتناول قصة عودة اوديسيوس أحد أبطال اليونان بعد نهاية الحرب وما لاقاه من أهوال فى طريق العودة، وصراعه بعد ذلك مع أمراء اثاكة الطامعين فى عرشه وزوجته.

هذا عن الملحمتين. أما الشاعر فهو محل خلاف شديد بين العلماء بداية من وجوده ومرورا بعصره وانتهاءا بصحة نسب الملحمتين اليه.

والمتعارف عليه هو أن عصر هوميروس يقع بين وسط القرن الحادى عشر ق.م وحتى أواسط القرن التاسع ق.م، وأنه قد ظهر فى أوسكنا أو خيوس، وأن

الملحمتين قد ظهرتا في سواحل آسيا الصغرى، حيث أن اللهجة فيهما هي اللهجة الأيونية مع مزيج من عناصر اللهجات اليونانية الأخرى.

وقد تم جمع الملحمتين في القرن السادس ق.م في عصر بيزاستراتوس الطاغية الأثيني، وقد تمت مراجعتهما بدقة في العصر السكندري على يد علماء الاسكندرية وقد حفظتا في مكتبتها الشهيرة، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن لا يزال الغموض يكتنف المسألة الهوميرية برمتها، وإن كان من الممكن القول أن الملحمتين تنتميان إلى شاعر واحد، وقد تم جمعهما ببعض الاضافات من جانب القائمين بعملية الجمع، أما القطع بأي شيء يتصل بهوميروس ذاته، فهو أمر خلافي حتى عصرنا هذا.

الشاعر الملحمي الثاني هو هسيودوس، ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع ق.م، وكان يعمل بالزراعة في أسكرا بالقرب من بوزتيا، وأهم أعماله " الأعمال والأيام"، والتي تضم مجموعة من الآراء في الزراعة والأخلاق والدين وتعد من الشعر التعليمي، وملحمة أخرى هي " أنساب الآلهة وسلالاتهم".

ب- الشعر الغنائي

ويتضمن هذا النوع أشعارا متعددة منها الشعر الحماسي وأشعار الغزل وأشعار الرثاء وغيرها، وقد ظهر هذا النوع من الشعر في القرن السابع ق.م، وكان " أرخيلوخوس " أشهر شعراء الهجاء، بينما كان الشعر الغنائي ممثلا في "سافو والكايوس وبندار"، وانقسم إلى مدرستين احدهما المدرسة الأيولية والأخرى الدورية.

ج- التاريخ

تأخر ظهور النثر في اليونان عن ظهور الشعر، وكانت المحاولات الأولى في هذا المجال عبارة عن مزيج من تجميع المعلومات في الجغرافيا والتاريخ، ثم

ظهرت بعد ذ ك كتابات متقدمة فى الاسلوب والتكنيك على يد مجموعة من الكتاب أهمهم:

هيرودوت

وهو أول مؤرخ شهير فى التاريخ اليونان، وقد ولد فى القرن الخامس ق.م ٤٨٤ فى مدينة هاليكارناسوس، وكتب أعماله باللهجة الأيونية، وأقام فى أثينا فترة من حياته، وقضى فترات من حياته فى الأسفار التى أفادته فى جمع مادة كتابه فى التاريخ.

وكتاب هيرودوت ينقسم إلى تسعة أجزاء، الخمسة الأولى منها تدور حول الامبراطورية الفارسية، والأجزاء الأخرى تدور حول اليونان والفرس.

ورغم اخلاص هيرودوت فى الأعمال التى تناولها إلا أن جهله باللغات الخاصة بالبلدان الأخرى، وطول الفترة التاريخية التى تناولها واعتماده على المعتقدات الدينية الخاصة بها، تعد مسئولة عن أى قصور قد ينتاب هذا العمل، ورغم كل هذا فان هيرودوت يعد واحدا من أعظم مؤرخى عصره حتى أنه لقب بأبى التاريخ.

ثوكيديديس

ولد سنة ٤٧٠ ق.م، وحضر حروب البلوبونيز، وجمع مادة تاريخها، ويعد من المؤرخين ذوى الاسلوب الفلسفى ويمتاز بالموضوعية وصدق الأحداث التى يرويها والبعد الفلسفى الذى يضمنه كتاباته، وقد كتب تاريخ الحروب البلوبونيزية فى ثمانية أجزاء.

اكسينوفون

ولد سنة ٤٣٠ ق.م في أثينا، وكان تلميذا لسقراط، كما عمل مرتزقا في جيوش الفرس، وحارب أيضا مع اسبرطة ضد أثينا وطيبة، أهم أعماله هي "الأناباسيس" و" الهلينيكا"، ويقع الكتاب الأول في سبعة أجزاء، ويدور حول كورش وتوغله للداخل، ويمتاز بالبساطة في الاسلوب والابتعاد عن التكلف، ويروى تفاصيل هامة عن البلاد التي مر الجيش بها.

وله كتب أخرى ذات طابع قريب من الفلسفة منها كتاب "ذكريات سقراط" وكتاب عن " تربية كورش".

أرسطو

رغم أن أرسطو لم يكن مؤرخا، إلا أن كتابه عن النظام الأثيني يوضع في مصاف كتب التاريخ اليوناني، حيث يتناول نظم الحكم الأثينية وتاريخها حتى ظهور الديمقراطية ثم عودتها سنة ٤٠٣ ق.م، ويتناول بالتفصيل النظام القائم في أواخر القرن الرابع ق.م.

د- الفلسفة

ظهرت أولى المدارس الفلسفية اليونانية في مدينة ميليتوس في القرن السادس ق.م، حيث بدأ طاليس بإفتراض أن الماء هو أصل العالم، ثم انكسيمانس الذي قال بان الهواء هو أصل الكون، كما ظهر اناكسمندريس الذي قال بأن الكون هو شيء لامحدود ولانهائي، كما ظهرت المدرسة الايلية جنوب ايطاليا ومؤسسها اكسينوفانيس الذي نادى بالتوحيد وقال بان تعدد الألهة أمر من اختراع البشر.

وفى القرن الخامس ق.م ظهر هيراكليتس فى آسيا الصغرى، وقال بان الكون أصله النار وقرر أن الحركة هى أمر لا متناه، ثم ظهر امبيدوكليس الذى قال بأن أصل العالم هو العناصر الأربعة الماء والهواء والنار والتراب، وأشار إلى النظرية الذرية للمرة الأولى.

كما ظهر فى أثينا ليوكيبوس وديمقريطيس وأضافا للنظرية الذرية أن قوة الجذب الميكانيكية تخلق الأشياء المرئية من الذرات.

وظهر فى القرن الخامس السوفسطائيون وهم من المفكرين الذين يعملون لحساب الغير مقابل أجر، وركزوا دراساتهم على الانسان والمجتمع، ونادوا بأن الانسان هو مقياس كل شىء، وأشهرهم بروتاجوراس وهيبوداموس.

الفصـــل الأول
الدستور الرومانى فى العصر الملكى

سبق أن ذكرنا أن النظام الجمهورى (Res Publica) بدأ فى روما عام ٥٠٩ ق.م وكانت عندئذ نهـاية آخـر الملوك الإتروريين ، وهو الملك المتـغطرس ، المدعـو " تاركـوينيـوس " (Tarquinius superbus) ولكننا لا نعرف على وجه التحديد ، متى بدأ النظام الملكى فى روما ، بالرغم من علمنا بنهايته فى عام ٥٠٩ ق.م .

على كل حال ، فإن - كما هو واضح ومعروف عن كل الأنظمة الملكية - فى التاريخ القديم، والحديث كذلك مع فارق الظروف التاريخية والملابسات التى تفرضها طبيعة تطور المجتمعات البشرية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن - كان الملك هو سيد كل المواقف وبيده كل السلطات .

السلطة الملكية " الإمبريوم " (Imperium)(١) :

إن المجتمع الرومانى القديم ، فيما قبل عصر الجمهورية ، أى فيما قبل ٥٠٩ ق.م ، كان صورة مصغرة كما كانت عليه حياة الأسرة فى روما القديمة ، فكان الأب ذا سلطة مطلقة (Potestas) على الأبناء والزوجة والعبيد والموالى ، وكان الملك (Rex) هو صاحب السلطة المطلقة (Imperium) فى الدولة ، أى المملكة .

كانت السلطة الملكية المطلقة (Imperium) ، هى بمثابة تفويض شعبى لشخص ما لكى يحكم بالحديد والنار ، فمن يحصل عليها عن طريق شرعى ، وَجَبَت طاعته طاعةً عمياء ، ولا سبيل إلى مقاومة تلك السلطة ، طالما أن الشعب هو الذى كان يمنحها وفقًا لإجراءات معينة، تخلع على صاحبها الصبغة الشرعية ومن هذه الإجراءات ما يلى :

١ - قرار بإجماع شعبى لإعطاء تلك السلطة لذلك الشخص ، أى لابد من أخذ موافقة مواطنى الدولة على هذا الاختيار لهذه المهمة .

---

١ - كلمـة إمبـريوم (Imperium) وتعنى السلطة المطلقة : الأمر ، القوة ، والسـلطة العليا والقيـادة العسكرية ، وهى من الفعل اللاتينى : Impero, are ويعنى آمر ، أحكم ، أصبح إمبراطوراً .

٢ – اعتماد وإقرار آلهة الدولة لذلك ، عن طريق إظهار فأل حسن بخصوصها عند إجراء طقوس التنصيب التى كانت تقليدية . ولابد ألا يقع فيها أى خطأ ، وإلا أصبح اختيار الحاكم (الملك) باطلاً .

ومما تجدر الإشارة إليه ، هو أن الملك عند تنصيبه ، كانت تصاحبه شاراته الرمزية ، ومن أهمها " عصا الفاسكيس (Fasces)[١]. التى كانت رمزاً لضرورة الطاعة للملك ، وتذكيراً للمواطنين وتخويفهم من عاقبة المخالفة .

كانت السلطة الملكية (Imperium) ذات ثلاث دلالات أو صاحبة ثلاثة ميادين ، تمارس فيها نفوذها ، وتثبت وجودها :

١ – **فى الشئون الدينية** : لما كان المجتمع القديم ، مازال فى مراحل تطوره الأولى ، حيث لعب الدين دوراً أساسيًا وجوهريًا فى استقرار وسلام المجتمعات البشرية ، فقد كان الناس فى مدينة روما القديمة شأنهم فى ذلك شأن معظم الأمم الأخرى ، فى تلك الحقبة من الزمن يعتقدون أنه إذا لم يستطع الملك – وهو المسئول الأول فى نظرهم – أن يفوز برضاء الآلهة عن مجتمعهم ومدينتهم [مما يحقق سلامًا سماويًا (Pax Deorum) يعود بالنفع والخير العميم على أهل الأرض ، الذين يحرصون على دوام قيام رابطة الحب والطاعة للآلهة ويحسنون تقوى السماء فى علاقاتهم ببعض وبينهم وبين قوى الطبيعة ، حتى لاتغضب عليهم بالكوارث والمصائب] فإنهم لاشك هالكون .

ولما كان الملك لايمكنه القيام بأعباء تأدية فروض الطاعة والولاء لآلهة المدينة وحدها ، فإنه استعان بمجلس صغير من رجال الدين وهم الكهنة (Pontifices) إلى جانب المجلس الأصغر من العرافين (Augures) الذين كانوا متمرسين على تفسير الطوالع والظواهر الطبيعية تفسيراً دينيا وكذلك التنبوء بمشيئة الآلهة .

---

١ – هى عبارة عن مجموعة من العصى ، التى تلتف حول يد بلطة (axis) كحزمة حطب ، وكان يحملها ، أمام موكب الملك ، جماعة من المرافقين له ، يسمون ليكتوريس (Lictores) وبذلك فقد كانت هذه العصى رمزاً لحق الحاكم فى جلد العصاة والخارجين على السلطة الملكية ، أما البلطة فكانت رمزاً لحقه فى إعدامهم . ولهذا فليس مستغربًا إذا عرفنا أن كلمة الفاشية (Fascism) الإنجليزية قد اشتقت من ذلك الاسم السابق للدلالة على دكتاتورية السلطة ، وعن النظام الذى يحكم بالحديد والنار ، ولا يسمح أبداً بأى قدر من حرية الرأى والتعبير .

وهكذا فإننا نجد أن سلطة الملك الدينية لم تكن مطلقة ، فقد قيدها وجود الكهنة والعرافين الذين كانوا هم المصدر الحقيقى وراء أى قرار ملكى فى الشئون الدينية .

٢ – فى القضاء : كانت كلمة " إمبريوم " تلك السلطة الملكية العليا ، تتيح لصاحبها ممارسة النفوذ الأعلى فى ميدان القضاء ، والفصل فى القضايا والمنازعات حتى ينتشر السلام ويستتب الأمن فى جنبات المجتمع الرومانى آنذاك .

كان للملك ، فى هذا المجال سلطة مطلقة تامًا من الناحية النظرية على خلاف الوضع فى الشئون الدينية – وصلت إلى حد توقيع العقوبات التى يراها بما فى ذلك عقوبة الإعدام ... وبالرغم من ذلك ، فلم تكن السلطة استبدادية دائمًا ، فقد مارس الحكماء من أهل روما دورهم باسم العرف وسنة السلف (Mos Maiorum) فى تحجيم تلك السلطة المطلقة قانونًا ، ذلك لأن العرف كان أقوى من القانون نفسه ، ومارس أقوى الضغوط على السلطة الحاكمة . كما كان من مصلحة الحاكم أن يراعى ذلك مراعاة كاملة حتى يضمن رضاء الآلهة ، وحب الناس على السواء . وتحقيقًا لتلك الغاية استعان الملك فى النهوض بواجب القاضى الأكبر أو قاضى القضاة ، بالحكماء من الرومان فى صورة مجلس سمى مجلس الشيوخ (Senatus)[١] وهم آباء الأسر الرومانية الكبيرة ، الذين كان العرف الرومانى يلزم الملك باستشارتهم ، وإن لم يلزمه بقبول مشورتهم . بهذه الطريقة نجد نظام الأسر الصغيرة فى المجتمعات الصغيرة ، يكرر نفسه على مستوى الدولة . أفلا ترى هنا ما يقابل عندنا مجلس الأقرباء (العائلة) الذى سبق الحديث عنه ؟ .

كما كان للملك حق دعوة الجمعية الشعبية (جمعية الأحياء [٢] Comitia curiata) لإخبارها بقرارته حول قضايا قانونية مثل التبنى ومنح الجنسية أو الوصاية .

٣ – فى الميدان العسكرى (الحربى) :

هنا يختلف الأمر عن سابقيه ، فنجد سلطة الإمبريوم فى يد صاحبها سلطة مطلقة بكل معانى الكلمة ، وذلك لعدة اعتبارات أهمها :

---

١ – وهو نفس النظام المعمول به فى أوربا اليوم ، حيث نسمع عن البرلمانات الغربية ودورها فى اتخاذ القرار فى كل الميادين . أما أمريكا فقد حافظت على المضمون والشكل معًا ومجلسها النيابى كذلك يسمى "Senate" اشتقاقًا من التسمية اللاتينية .

٢ – أى تلك الجمعية التى كانت تتكون من ممثلى الثلاثين حيًا من أحياء مدينة روما القديمة (curia) والتى كانت بدورها تكون ثلاثة قبائل (Tribus) .

– أن الرومان كانوا يعتقدون أن قائد الحرب ، الذى يخرج بجيشه خارج أسوار روما ، سيكون فى منأى عن رعاية آلهة المدينة ، وسيصبح تحت رحمة آلهة أجنبية ، مما يستلزم إعطاء سلطة مطلقة ، دون قيد من أحد ، هذا فضلاً عن قيامهم انطلاقًا من نفس الفكرة السابقة ، بطقوس دينية خاصة بقصد حماية الجيش الرومانى وقواده من الأرواح الشريرة التى ستحيط بهم " وهم بعيدين عن بلادهم وآلهتهم " .

ولكننا ، لا نستطيع أن نستبعد قيام قائد الجيش باستشارة قادته والعمل بنصائحهم أولا، ذلك لأنه لم يكن مجبراً أن يستشيرهم .

– ضرورة كسب الوقت وعدم إضاعته فى مشاورات وموافقات ، تقلل من حرية حركة القائد العام للجيش .

وجدير بالذكر فى هذا المقال أن نقرر هنا أننا لا نعرف شيئًا كثيراً عن الشعب الرومانى ودوره فى العصر الملكى ، ومن المؤكد أن دوره كان ثانويًا جداً ، وأن طبقات المجتمع آنذاك ، كانت تنقسم إلى قسمين واضحين أو فئتين ، بينهما فجوة اجتماعية كبيرة . فالأولى كانت طبقة الأشراف (Patricii) وهم فى مستواهم من النبلاء والأغنياء ، والطبقة الثانية ، هى طبقة العامة (Plebs) وهم من الفلاحين والتجار والصناع غيرهم . من ذوى الأملاك المحدودة. ولكن الجميع كانوا يتمتعون ، داخل المدينة روما ، بحقوق المواطنة (civitas) على اختلاف أنواعها الخاصة iura privata) و " العامة " (iura publica) ويدفعون الضرائب كل حسب ثروته ، ويخدمون الجيش – بدون أجور .

هنا ، يجرنا الحديث عن الجيش الرومانى ، الذى كان يتكون من مشاة (cohortes) وكان هؤلاء يجهزون أنفسهم بالأسلحة اللازمة لهم ، والفرسان (equites) الذين كانت الدولة تزودهم بالخيل بسبب ارتفاع ثمنها وعدم مقدرة الأفراد على شرائها . أما كبار الملاك والأشراف الذين استأثروا بامتيازات عدة ، وكانوا هم أصحاب المصالح الحقيقية ، فكانت تقع عليهم أعباء كثيرة فى الدفاع عن روما وممتلكاتها ضد أى اعتداء ذلك لأنهم هم الذين كانوا يجهزون أنفسهم بكل أنواع السلاح والعتاد ، ويقفون فى الخطوط الأمامية أثناء المعارك ، وقد اشتهرت من بينهم أسرتان ، ظل أفرادها على مر الأزمان هم القادة المهرة والذين تخصصوا فى خوض غمار الحرب وقيادة المعارك وهما أسرة " فابيوس "(Fabius) وأسرة پابيريوس (Papirius) . وهناك قائد يسمى قائد الشعب (magister populi) أى الجيش ولا سيما المشاة أما قائد الفرسان فكان يسمى (magistr equitum) وكما ذكرنا من قبل فإن القائد كان يتمتع بالسلطة العليا (بسلطة الإمبريوم المطلقة) وكذلك من يعينهم بجانبه من القادة والضباط لمساعدته ولتنفيذ أوامره .

الفصـــل الثانى
الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى

إنه بمجرد انتهاء النظام الملكى فى عام ٥١٠ ق.م وطرد آخر الملوك ، وقيام نظام جمهورى فى عام ٥٠٩ ق.م ، غدت كلمة " ملك "(Rex) كلمة ممقوتة من الشعب الرومانى (Populus Romanus) لما أرتبط فى أذهانهم عن ذلك العصر السابق من تسلط وسيادة مطلقة ، لم يكن لهم فيها أى نصيب من المشاركة الفعالة .

لقد سُمِّى النظام الجديد باسم (Res Publica)[١] أى - كترجمة حرفية لهذا الاصطلاح - "الشئ العام " بمعنى النظام الذى يعنى بالأمور العامة والشعب ، أو الغالبية العظمى من الناس وليس ذلك النظام الأرستقراطى ، الملكى السابق ، الذى كان يعنى بمصالح الأغنياء والنبلاء والأشراف فقط .

كانت أهم التغييرات التى طرأت على النظام السابق ، وإحلال بعض الوظائف الجديدة ، تبعًا لضرورات تأدية مصالح الشعب على أحسن وجه وضمان القيام بالمهام الموكلة إلى شاغل تلك المناصب خير قيام ، دون تهاون أو شطط ، هى ما نوجزه فيما يلى :

أولاً : الإبقاء على سلطة الإمبريوم (Imperium) ولكن تم إعطاؤها لحاكمين اثنين ، عرفا باسم القنصلين : Consules ولمدة زمنية محددة - هى سنة واحدة - بعد أن كانت ، فى العهد الملكى ، مدى الحياة . وهكذا فإنه بعد انتهاء العام ، يترك القنصلان منصبيهما ، ويتخليان عن شارات وظيفتيهما ويصبحان مرة ثانية مواطنين عاديين .

---

١ - إنها هى تلك الكلمة الخالدة التى عرفتها أوربا باسم " النظام الجمهورى " واستخدمت له اشتقاقًا من الأصل اللاتينى هذا ، بعد حذف النهايات اللاتينية لكل من الكلمتين السابقتين ، فغدتا مصطلحًا " واحدًا " (Republic) وعن الأخطاء الشائعة ترجمة كلمة (Politeia) عند أفلاطون بأنها " جمهورية أفلاطون " ، لأن هذه الكلمة ، آنذاك ، لم تكن تعنى إلا " المجتمع " أو أى تجمع بشرى " بغض النظر عن شكل نظامه السياسى ، أى " أية دولة " . ولم تكن تعنى نظامًا جمهوريًا ، كما يحاول البعض مقابلة هذا باصطلاح "Res publica" أو "Civitas" اللاتينى ، لأن أفلاطون لو كان يعنى ذلك النظام لاستخدام كلمة " ديمقراطية "Democratia" : ، والتى كانت معروفة لدى يونانى العصر الذهبى ، وهى المقابل اليونانى لكلمة "Res publica" اللاتينى .

ولما كانت تلك السلطة ، أى سلطة الإمبريوم ، هى أعلى سلطة فى البلاد ، فكان الشعب كله ، فى روما القديمة ، يشارك فى انتخاب القنصلين الجديدين ، مرة كل عام ، داخل جمعية شعبية تسمى باسم "الجمعية المئوية" [1] (Comitia Centuriata) وهى التى حلت محل الجمعية القديمة المعروفة باسم "جمعية الأحياء" (Comitia curiata) وكانت لها صلاحية إصدار القوانين وانتخاب الحكام والمسئولين الذين يتمتعون بسلطة الإمبريوم . كما كان لها صلاحية إعلان الحرب وإبرام السلام مع أعداء روما . وكان مكان مكان انعقاد جلساتها فى ميدان الحرب فى ساحة الإله " مارس " (Compus Martius) ، خارج أسوار مدينة روما .

وقد حرص الرومان على ألا يستبد أى من القنصلين بتلك السلطة المطلقة فأعطوا كل منهما الحق فى الاعتراض على قرارات الآخر (Intercessio) أو ما يعرف اليوم فى لغة السياسة باسم الڤيتو : "Veto" [2].

وجدير بالذكر ، أن واقعية الرومان الخالصة والمرنة ، فى نفس الوقت ، والتى تنبع عن ثقة مطلقة فى الأفراد والمسئولين عن تلك المناسبة الخطيرة جعلت سلطة الإمبريوم تبادلية بين القنصلين داخل وخارج مدينة روما ، أى أنها تكون بيد قنصل واحد فقط ، فى وقت ما ، فإذا كان هناك قنصل فى خارج روما يحارب أعداءها ، فإنها ستكون بيده هو ، وليس بيد القنصل الموجود داخل أسوار روما يصرّف شئونها . ذلك لأن قائد جيش الشعب الرومانى عندما يخرج، بعيداً عن روما فإنه يكون – كما كان يعتقد أهل روما القديمة – تحت رحمة ظروف غير عادية وتحت وطأة آلهة أجنبية ، ربما تسبب له من المشاكل الكثير طالما زنه بعيد عن حماية الهة مدينته روما ، ومن ثم يجب – كما كانوا يعتقدون – إعطاؤه صلاحيات أوسع وسلطات أكبر .

ولكن ، إذا كان الأمر يتعلق بإصدار حكم نهائى مثل إعدام مواطن ، مثلاً أى داخل حدود المدينة ، فلا يملك القنصل سلطة إصدار قرار نهائى بذلك ، إلا بعد الرجوع إلى الجمعية

---

١ – عبارة عن جمعية زنلت فى الغالب بعد عام ٤٥٠ ق.م ، تمثل فيها كل طبقة شعبية (كانت طبقات الشعب يتحدد على أساس ثرواتها) بنسبة معينة من الوحدات المئوية (Centuriae) : كنتوريای ، التى تحسب بصوت واحد لكل منها عند الاقتراع . وصل العدد الإجمالى لتلك الوحدات حوالى ١٩٣ وحدة ولما كانت الطبقة الأولى الغنية تستحوذ على ٨٠ وحدة والفرسان على ١٨ وحدة ، فإنهما كانتا تضمان الأغلبية داخل تلك الجمعية .

٢ – هى كلمة لاتينية – فى الضمير الأول المتكلم المفرد ، فعل مضارع معنى " أعترض " .

المئوية الشعبية لأخذ مشورتها وموافقتها أو رفضها لذلك ، وكان هذا الإجراء بمثابة قيد آخر لدرء خطر القنصلين على حياة الشعب والإضرار بمصالحه .

ثانيًا : ظل السناتوس (Senatus) ، هذا المجلس المبجل للشيوخ وكبار شخصيات المجتمع الرومانى القديم ، قائمًا ، يباشر أعماله ولكن كهيئة استشارية وليست تنفيذية أو تشريعية . كما أننا لا نعرف ، بطريقة قاطعة مؤكدة ، كيف كان أسلوب الرومان لاختيار عضو هذا المجلس فى تلك الفترة وإن كنا نرجح أن كل من يتولى سلطة الإمبريوم يومًا ما ، كان يحق له ، وهذا شئ طبيعى يمكن تخمينه بسهولة ، أن يرشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ ، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار احترام الرومان المتأصل فى أعماقهم لكبار رجالاتهم وقادتهم بفضل خبرتهم وحنكتهم فى الحياة ووطنيتهم المؤكدة .

وتصل واقعية ساسة الرومان وحكماء روما القديمة إلى أبعد من هذا وذاك ، فقد اتصف نظام حكمهم السياسى فى العهد الجمهورى بمرونة كبيرة ، وعدم تقديس النظم القديمة ، بل راحوا يغيرون فيها ويطورونها لتصبح صالحة تحت كل الظروف وفى ظل كل الملابسات . وذلك إذا كان فى هذا التغيير أو التطور تحقيق لصالح الشعب الرومانى أو تأمين لسلامة البلاد من أخطار محققة . فمثلا كانت الظروف تفرض نفسها على النظم المعمول بها ، كما حدث فى تعيين رجل واحد مزود بسلطة الإمبريوم من قبل القنصلين ، بمعرفتهما ، حتى يتمكن فى ساعات الخطر أن يتخذ القرارات السريعة ، فى الوقت المناسب ودونما إضاعة للوقت فى مناقشات واعتراضات ، كان ذلك يتم بإيعاز من السناتوس ، ولا يجب أن تزيد مدة سريان هذا الإجراء المؤقت عن ستة شهور ، ودونما الحاجة إلى استدعاء الجمعية المئوية للانعقاد ، مما يؤكد الثقة الكاملة التى يوليها رجالات السياسة فى روما القديمة فى قادتها وزعمائها[١].

ثالثًا : إدخال وظائف جديدة تمامًا فى تلك الوظائف العامة (cursus Honorum) ، وذلك لضمان سير العمل على الوجه الصحيح وتأدية كل مواطن لواجباته تجاه الدولة من المشاركة فى تأدية الخدمة العسكرية (الالتحاق بالجيش) ودفع الضرائب ، كل حسب ثرواته ، فضلاً عن الاطمئنان على مناصبه وقيام المسئولين فى الدولة بواجباتهم تجاه المواطنين فى كافة الأمور.

---

١ – كانت الشخصية التى تعينها لتولى مقاليد سلطة الإمبريوم المطلقة تسمى " دكتاتور dictator" وكان أول قائد تولاها هو تيتوس لاكريوس (T. Iacrius) .

الدين الاغريقي

لم تشهد بلاد اليونان نظاما دينيا موحدا، وانما كان لكل مدينة ديانة وطقوس خاصة بها، ورغم ذلك فان الاعياد الدينية الكبرى كانت مناسبة للشعور بالوحدة الدينية حيث كان اليونانيون يجتمعون حول اله واحد.

ولد كان للشعر دور كبير في خلق العقائد الدينية لدى الشعب الاغريقي، حيث صور هوميروس في الالياذة والاوديسية الآلهة في صورة البشر، كما ابتكر هسيودوس انسابا للآلهة في ملحمته المسماه بنفس الاسم، وكذلك ساهم النحت والتصوير في تصوير الآلهة واعطائهم الصورة البشرية المرئية.

ولد عرف اليونانيون في تاريخهم القديم مجموعة من الآلهة، أهمهم ما يلي:

زيوس

كبير الآلهة وسيد الآلهة والبشر، وموطنه الأصلي جبل الأوليمب، وكان المسئول عن النظام الاخلاقي والديني والاجتماعي.

هيرا

زوجة زيوس والمسئولة عن حياة النساء، وأشهر مراكزها في أرجوس واسبرطة وساموس.

أثينا

وتعد من بنات زيوس، وينسب اليها حراسة مدينة أثينا، وأنها الهة الفنون والعلوم العامة.

أبوللو

وهو إله الضوء والشباب والموسيقى والتطهر من الذنوب،ومصدر النبوءة، ويقترن اسمه بدلوس التى تعتبر محل مولده، أما معبده الشهير فى دلفى فكان مركزا للوحدة الدينية والسياسية.

أرتميس

وهى توأم أبوللو، ويتجسد فيها الجمال المثالى للعذارى، وهى أيضا ربة الطبيعة والصيد، والقترن اسمها بالقمر.

هيرميس

رسول الآلهة، وإله التجارة والنصيب والكنز الدفين، وقائد الروح فى رحلتها الأخيرة إلى العالم السفلى.

ديونيسيوس

إله الثمر والكروم والخمر والمسرح، ويقترن اسمه ورواياته بمدينة طيبة.

بوسيدون

إله البحار والينابيع والأنهار، وهو من يحمل الأرض ويهزها وكان لازل، وإله الخيل، وأهم مراكز عبادته خليج كورينثة.

أفروديتى

الهة الحب والجمال، وتروى الاساطير أنها قد ولدت من زبد البحر، ظهرت بجوار قبرص، وقد طرأ تغيير فى عبادتها نتيجة المؤثرات الشرقية.

هيفايستوس

إله النار البركانية والصناعية، وأهم مراكزه فى جزيرة ليمنوس، وكان سور كرجل أعرج بسبب سقوطه من السماء على هذه الجزيرة.

أريس

إله الحرب والوباء، وأهم مراكز عبادته فى طيبة وتراقيا، وكان الاغريق يعتقدون أنه أجنبى.

هستيا

شقيقة زيوس التى رفضت الزواج من أبوللو أو بوسيدون وهى الهة الموقد فى الأسرة والمدينة، وكانت لها حصة فى كل القرابين.

ديميتر وبيرسيفونى

وتظهران فى صورة الأم والابنة، وكانت ديميتر الهة الحبوب والزواج، وبيرسيفونى قرينة بلوتو، وملكة العالم السفلى.

إلى جانب هؤلاء الألهة كان هناك العديد من الألهة الثانوية منها الألهة التابعة وألهة الريف وألهة البحار، إلى جانب الابطال الذين يعدون من أنصاف الألهة حيث أنهم إصلا من البشر ثم أضفى عليهم الناس صفة الألهة، مثل هيراكليس.

رجال الدين

كانوا يمثلون مجموعة من الكهنة، وكانت الكهانة تنحصر فى الغالب فى نطاق أسرة معينة، ولم يكن الكهنة يمثلون طبقة خاصة فى المجتمع ، ولكنهم كانوا ممن يتميزون بالخبرة فى الشئون الدينية أو العامة.

المعابد

كان المعبد المخصص للألهة ينقسم إلى جزئين رئيسيين، الحرم، ويضم مذبحين للقرابين، ومزار يحتوى على صور الألهة، ورواق أمامى وشرفة خلفية مخصصة لتخزين المهمات. وكان المصلون يجتمعون فى الفناء أو الحرم الخارجى، وكان للمعابد فى بعض الأحيان أموال وعبيد وأراض تديرها الدولة.

الطقوس

أهم الطقوس هى تقديم القرابين والصلاة، وكان تقديم القرابين يتم بعد أن يرتدى الكاهن وأتباعه الثياب الرسمية ويضعون فوق رؤسهم الأكاليل، ثم يستقبلون بعد ذلك أصحاب الاقرابين، ويتطهر الحاضرون بالماء المقدس، ويلتزم كل الحاضرين بالصمت التام بناء على أوامر الكاهن ثم تتم تلاوة الصلاة، ويؤخذ الحيوان إلى المذبح، ويتم رش المذبح بدمائه ثم يتم سلخه وتقطيعه وفحص الأمعاء الداخلية للحصول على التكهن، ثم تحرق الأجزاء المخصصة للألهة على المذبح، ويتم تقديم الباقى إلى أتباع وخدم المعبد.

أما الصلاة فكان الاغريق يؤدونها واقفين، ويطلبون فيها البركة المادية ويرفعون أثناءها أيديهم إلى السماء، وتتم عادة بصوت مرتفع عدا فى حالة الخوف أو الحرب.

التكهن

الغرض منه معرفة ارادة ومشيئة الألهة فى شئون المدينة الحاضرة والمستقبلية، وأهم معابد الوحى هى معابد زيوس فى دودونا ومعابد أبوللو فى دلفى.

وكانت المزارات تتم تحت اشراف الكهنة والكاهنات، والاجابة تأتى من حفيف الأشجار والرياح ثم يتم بعد ذلك استخدام الأوانى البرونزية لهذا الغرض.

كما كانت هناك طقوس تمهيدية قبل النبؤة منها الشرب من الينبوع المقدس والجلوس على مقعد بثلاث أرجل.

الأعياد الدينية

كانت لها أهمية كبرى فى تاريخ الاغريق، وكانت تختلف وفقاً لصفة الرئيسية المميزة لها، وأهم هذه الأعياد هى " أعياد الباناثينايا" التى كان يتم الاحتفال بها فى العام الثالث من كل اوليمبياد، وتشمل العابا رياضية وموسيقية ومسابقات للشعلة والزوارق، والمسيرة المقدسة إلى الاكروبوليس حيث يتم اهداء الثوب المقدس إلى معبد الألهة أثينا.

وهناك أيضا "أعياد الأفيكتونى" التى يحضرها العديد من الدويلات المجاورة وذلك لتكريم الألهة مثل أبوللو فى ديلوس ودلفى.

وهناك أعياد كان يحضرها كل اليونانيين مثل أعياد "اوليمبيا" و" أعياد نيميا" و"أعياد اسثيميا"، وقد أقيمت أعياد اوليمبيا بصفة مستمرة منذ سنة ٧٧٦ق.م والتى اعتبرت بداية التاريخ الاغريقى.

الفصـــل الثانى
مقومات الحضارة الرومانية

إنه لكى تتكون حضارة ما تفرض نفسها على مجريات الأمور فى منطقتها بل وتبسط سلطانها على أمم أخرى مجاورة وينجح أهلها فى إقامة إمبراطورية لهم خارج حدودها الجغرافية ، عبر البحار ، لابد وأن تكون قد هيأتها الظروف ، من كل جانب ، بمقومات كانت دعامتها الأساسية لازدهار ذلك المكان ، فى ذلك التوقيت من الزمان ، وعلى أيدى أولئك الأفراد ومن بنى ذلك الجنس البشرى ، الذى كان يسكن تلك البقعة من الأرض .

وأنه ، لمن البديهى أن تكون لحضارة الرومان مقومات أو دعامات أساسية ، كانت السر وراء التفوق الحضارى ، فى فترة من الزمان الغابر ، تلك الفترة التى عادة ما يسميها المؤرخون بالتاريخ الرومانى أو بالأحرى تاريخ الرومان(*) أو تاريخ روما القديمة .

كما أنه ، من الطبيعى ، أيضًا أن يكون :

١ – المكان : أى جغرافية إيطاليا كجزء من حوض البحر المتوسط .

٢ – الإنسان : أى آثاره وإنجازاته القديمة وأساليب حياته وتراثه القديم .

هما العنصران الرئيسيان الفاعلان فى تكوين التاريخ الرومانى القديم على شاكلة معينة .

(١) جغرافية إيطاليا القديمة :

أولاً : جغرافية حوض البحر المتوسط :

١ – هى جغرافية حوض البحر المتوسط الذى كان همزة وصل وليس فصل بين أجزاء الإمبراطورية الرومانية ، والذى أسموه ، عن جدارة " بحرنا " (Mare Nostrum) .

---

* آثرت ترجمة " Historia Romana" باللغة العربية .. بصفة المضاف إليه أى : تاريخ الرومان كما لو كانت " Historia Romanorum " بدلاً من الترجمة الحرفية : " التاريخ الرومانى " وذلك حتى لا يخلط البعض من القراء العادين بين الرومانيين الحاليين ، أهل دولة رومانيا وبين الرومان القدماء ، أصحاب التاريخ المعروف لدارسى التاريخ القديم ، ولقد أصاب الأستاذ الفاضل الكبير د. إبراهيم نصحى ، عندما اختار لكتابه (المكون من جزئين) عنوان " تاريخ الرومان " وليس التاريخ الرومانى وإن لم يكن قد علّل ذلك فى تقديمه لكتابه الممتاز عن حضارة إيطاليا القديمة وروما المجيدة ... الكتاب من منشورات الجامعة الليبية – كلية الآداب ، الجزء الأول ١٩٧١ ، والثانى عن دار النجاح ببيروت (د.ت).

٢ – كانت مياه البحر المتوسط لا تصلح للإبحار فى الفترة من أكتوبر – أبريل من كل عام ، فى العصور القديمة ، ولكن شهور الصيف كانت هى أنسب الأوقات لرحلات السفن[١] ، حيث الأمان وهدوء التيارات والأمواج .

٣ – المناخ : كان مناخ البحر المتوسط ، فى العصور القديمة ، هو ذات المناخ الحالى فى معظم ملامحه[٢] .

ويُعتقد أن مناخ البحر المتوسط كان قد تغير فى الفترة من عام ١٢٠٠ – ٨٥٠ ق.م مما تسبب عنه جفاف ومجاعة . كما أن مستوى سطح البحر ، فى بعض المناطق ، كان أكثر انخفاضًا عما عليه اليوم .

ولكن ذلك أتبع بفترة كان فيها المطر غزيراً ، ولذلك ربما كان المناخ ، آنذاك ، أكثر برودة وأكثر رطوبة لاسيما فى العصر الكلاسيكى اليونانى (القرنين ٥ – ٤ ق.م) . وإذا كان الأمر كذلك ، كما تعتقد كاربنتر ، فإن أثر تلك التغييرات لابد وأنه كان محسوسًا في إيطاليا القديمة ، البلد المجاور إلى الغرب من اليونان . ربما للسبب ذاته يعتقد بروكس (C.E.P. Brooks)[٣] أن الاتصالات بين مناطق حوض البحر المتوسط كانت قد وصلت إلى ذروتها فى الفترة من ١٢٠٠ – ٩٠٠ ق.م ولكن التغيرات ربما ترجع إلى أسباب وظروف محلية : مثل قطع الغابات وأثر ذلك علي سقوط الأمطار وتجريف التربة وتآكل مصبات الأنهار كما هو الحال فى ميناء روما القديم ، أوستيا (Ostia) الذى يوجد الآن على مبعدة ميلين من مكانه القديم إلى الداخل فى الأرض الإيطالية .

ولكن الآراء الحديثة ، مثل رأى[٤] C. Vita-Finzi ، تقول :

" Climatic conditions in Roman time were not effectively different from those of today "

---

1 - M. Cary-H. Scullard, a History of Rome, 3rd edition 1975, Great Britain, p. 3 .

2 - Ibid,. "Was substantially the same as the present time. " Cf. Rhys Capenter, Continuity in Greek Civilization, 1966,p. 1899 .

3 - Climate Through The Ages, 1926 .

4 - The Mediterranean Valleys, 1969, p. 113 .

وحول الخلفية الجغرافية للتاريخ اليونانى والرومانى فى ضوء الكتابات التاريخية والجغرافية القديمة ، راجع :

M. Cary, The Geographic Background of Greek and Roman History, 1949, p. 2 . ff .

ويغلب القول بأن مناخ البحر المتوسط ينقسم إلى فصلين رئيسيين ، لكل منهما خصائصه المتميزة والتى تختلف كلية عن الآخر :

ففى الشتاء نجد شهوره تسيطر عليها رياح قوية وعاصفة تكون غربية ، فى أغلب الأحوال، ومحملة بعواصف ممطرة من وقت لآخر . وهى عندما تغير اتجاهها وتصبح شمالية ، تكون " لفحة البرد " قد بدأت وينتج عنها انخفاض فى درجة الحرارة بالشكل الذى نعرفه فى شتاء إنجلترا . ولكن تلك الرياح المطيرة سرعان ما تذهب بمجرد أن تأتى ، ونادراً ما يمر الشتاء دون أن تظهر الشمس من خلال كتل السحب . إن البرد القارس والضباب والسماء الداكنة المظلمة والتى تظهر فى شتاء المنطقة الشمالية من حوض البحر المتوسط هى ظواهر غريبة وأجنبية على بلدان البحر المتوسط ، لأنه إذا كان شتاء تلك المناطق رطبًا وعاصفًا ، فإنه أيضًا ذو جو صحو معتدل .

وفى شهور الصيف ، فإن الرياح المهيمنة على مناخها عبارة عن نسيم شمالى دائم الهبوب، وهو الذى يجعل السموات نظيفة من السحب ، إذ يفرقها ويشتت تجمعاتها ويفتح الطريق فسيحًا لأشعة الشمس . وبتأثير الأشعة الشمسية المنبعثة فى الأجواء باستمرار فإن درجة حرارة الصيف فى بلدان البحر المتوسط ترتفع إلي مستويات استوائية ، كما أن جفاف الطقس فيها يجعله صحيًا لحياة الإنسان . ولكن ندرة الأمطار الصيفية ، تسبب الجفاف الذى يطول أكثر فأكثر كلما اتجهنا جنوبًا ، فهو فى الشمال يستغرق شهراً واحداً ، فى إيطاليا مثلاً ، ولكنه مستمر مابين ستة (٦) شهور إلى عشرة شهور فى طرابلس (ليبيا) أو مصر ، مما يكون له آثار مدمرة على المزروعات .

ومع كل ما سبق من مظاهر مناخية ، مالها وما عليها ، فإن كمية إشعاع أشعة الشمس على بلدان البحر المتوسط ، والتى تميز مناخه – وهى التى لاتقل نسبتها السنوية ، فى معظم الأحوال عن (٢٠٠٠) ألفين ساعة ، أى حوالى ٥٠٪ من إجمالى ساعات النهار في العام الواحد تعتبر ، عمومًا ، خيراً عظيمًا لتلك المنطقة من العالم [حيث يصل ذلك الإجمالى إلى حوالى ٤٠٣٢ ساعة دون حساب الفوارق بين ساعات النهار صيفًا وشتاءً] .

ولذلك فإن رياحها المنعشة والخفيفة ، وسماؤها الصافية والصحوة ، حيث تبدو أشكال الأشياء بوضوح تام فى خطوط كاملة وناطقة المعالم ، كما أن ألوانها تبدو حقيقية ، كل ذلك ساعد على تكوين ذهن صافى لسكان تلك المنطقة ، كما هيأ له مناخًا يجعله أكثر نشاطًا فى

جسم أكثر حيوية ، وحقًا أجْمَل (Cary)[1] (كارى) نتيجة ذلك كله وتأثيرها على المنطقة فى جملة واحدة : « إن بلدان البحر المتوسط كانت هى الموطن الطبيعى لحضارة عظيمة »
"The Mediterranean lands were a natural birthplace of high civilization "

٤ – السلاسل الجبلية :

وأشهرها : جبال الألب والإبنين وبيرين وسيرانيفادا وسلسلة مرتفعات شمال إفريقية ، ومعظمها حديث التكوين الجيولوجى ، نسبيًا ، ونادراً مايزيد ارتفاع أعلى قممها عن ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف قدم) كما أنها سريعًا ما تفقد رؤوسها الثلجية قبل منتصف الصيف . وكذلك فإن تكويناتها الجيرية السائدة لصخورها لا تحتفظ بمياه الأمطار المتساقطة عليها عليها طيلة فصل الشتاء ، بل تُسرِّبها إلى التربة التحتية والطبقات الدنيا ، حيث تتجمع فى خزانات أرضية ، يستفاد منها عن طريق حفر الآبار فى الأراضى المنخفضة وتنبثق العيون الطبيعية . ولكنه بصفة عامة ، هناك حقيقة غير سارة لأهل بلدان البحر المتوسط وهى أن مياه أمطار الشتاء والثلوج لا تعوضهم ، بصورة كافية ، أمام جفاف الصيف .

٥ – المزروعات :

تنمو فى الوديان ـ الأراضى المنخفضة الأشجار الدائمة الخضرة وعلى المرتفعات تنمو أشجار البلوط والصنوبر بشكل كثيف على هيئة غابات موجودة حتى الآن ، ومن أشهر وأهم مزروعات حوض البحر المتوسط الغلال (Cereals) أو الحبوب . وهى النباتات التى تغل محصولاً وافراً فى ظل نظام رى جيد ، وتنضج تلك المحاصيل فى الصيف (يونيو أو يوليو) وذلك قبل أن يصيبها فصل الجفاف بأضرار . كما أن نقص المطر فى الصيف يقلل من تنوع حدائق الفاكهة . وجدير بالذكر أن الفواكه الأوربية – فى وسط وشمال أوروبا – نجدها تنمو بالقرب من العيون أو الأنهار أو قنوات الرى . ولذلك نجد أن الأنواع الثلاثة من المحاصيل الشهيرة في حوض المتوسط هى الزيتون والتين والعنب ، هى أكثر تلك الأنواع تكيفًا مع الطبيعة والمناخ : سواء مع درجة الحرارة الملائمة صيفًا لإنضاج العنب والتين ، أو مع كمية المياه المتاحة شتاءً ، حيث زودها الخالق بجذور طويلة تستطيع بها أن تصل إلى مستوي الماء أسفل سطح التربة حينما يعز الماء على السطح ويزداد الجفاف فى الصيف .

---

1 - Op. cit., p. 4.

To: www.al-mostafa.com

ثانيًا : جغرافية إيطاليا :

(١) التعريف باسم شبه الجزيرة الإيطالية :

كان الإغريق ، اليونان القدماء ، هم أول من أطلق على الطرف الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة الإيطاليـة اسم (Italia)[١] وذلك إبان القرن الخامس ق.م . وظل هذا الاسم ينتشر استخدامه حتى أصبح مسمى البعض هذا يجوز على الكل ، أى يطلق على كل شبه الجزيرة وليس على جزء صغير منها فقط ، وذلك قبل نهاية القرن الأول ق.م .

(٢) طوبوغرافيا[٢] إيطاليا :

تعتبر سلسلة جبال الإبنين (Appeninus) هى العمود الفقرى لشبه الجزيرة الإيطالية حيث تقها تلك السلسلة ، من الشمال إلى الجنوب ، من وسطها ، تاركة سهولاً ساحلية ضيقة على الجانبين الشرقى والغربى . ولكن تلك السلسلة لا ترتفع كثيراً ، فإن أعلى قمة بها ، وهى جران ساسـو (Gran Sasso) ، أقل من عشرة آلاف قدم (١٠ . . . .) . أما فى الشمال ، فهناك جبال الألب ، وهى أغزر ماء (مطراً) من جبال الإبنين وتفيض أنهارها شتاء . وهذه الجبال هى التى تحد إيطاليا من الشمال مع بقيـة الدول الأوربيـة كمـا أنهـا لا تمثل - من الناحيـة الاستراتيجية العسكرية - حاجزاً مانعًا للمعتدين ، بالإضافة إلى أنها لاتصل إلى إرتفاعات شاهقة ، فى كل اتجاهاتها ، فضلاً عن مجرى نهرى الراين والرون بها وهما يمنحان الغازى من الشمال ممراً سهلاً صوب الجنوب . ولذلك صدق كارى (Cary) عندما قال : "It has accordingly been affirmed that the history of Italy is the history of its invaders"[٣]

والتاريخ الرومانى يسجل لنا صفحة أخرى ، تخالف تلك الصفحات المعروفة عن غزاة إيطاليا القديمة ، وهى تلك الصفحة الخالدة باسم الجيش الروماني المنتصر والفاتح لبقية أنحاء أوروبا ، حيث خرجت القوات الرومانية ، منذ منتصف القرن الثالث ق.م من تلك المعابر ذاتها فى جبال الألب وحققت الانتصارات الكبرى خارج أرضها .

---

١ - يذكر أستاذنا الدكتور إبراهيم نصحى ، (تاريخ الرومان جـ ١ ، بيروت (د.ت) ص ١٢) أن هذا الاسم اشتقه اليونان من مفردة قديمة هى " ڤيتيليو " (Vitellio) التى تعنى : أرض العجول ، وهى كناية عن غنى المراعى الإيطالية ووفرة ثروتها الحيوانية .

٢ - كلمة طوبوغرافية كلمة يونانية الأصل (Topografia) وتعنى تضاريس السطح .

3 - Op. cit , p. 5.

أما السواحل الإيطالية فهى على العكس تمامًا مما نعرفه عن السواحل اليونانية الكثيرة الخلجان الطبيعية . ولم يعرف الساحل الشرقى إلا ميناء برنديزى (Brindisi) . أما الساحل الغربى فكان ميناء أوسيتا (Ostia) - على مصب نهر التيبر (Tiberis) ، هو الميناء الأوحد لعاصمة إيطاليا القديمة ، روما (Roma) . هذا بالرغم من أنه لاتهر بو (Po) ولا نهر التيبر كانا صالحين لدخول السفن الكبيرة وذلك لكثرة الترسيبات الطميية في مدخل المصب ولم يكن البحر وأمواجه بقادرة على إذابة تلك الترسيبات .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن تربة إيطاليا تتمتع بنسبة خصوبة عالية ، حيث أنها نتاج لبراكين قديمة ، كان أشهرها بركان ڤيزوڤيوس (Vesovius) عام ٧٩م الذى أخفى مدينة پومپى (Pompeii) وأهلها من على وجه الأرض . وقد سجل التاريخ الرومانى عبر القرون أحداث براكين فى جنوب إقليم إتروريا (Etruria) ولاتيوم (Latium) .

كما أنه من المعروف ، كذلك ، أن إيطاليا بها فائض من المراعى الخضراء الطبيعية (Saltus) الصيفية ، فوق المرتفعات ، بينما السهول تتبادل تلك الوظيفة فى الشتاء حيث تنمو عليها الأعشاب الخضراء .

(٣) المناخ :

وهو مناخ البحر المتوسط بصفة عامة بالرغم مما يعتريه من تغييرات محلية عديدة :

فالشتاء : معتدل ولكن الإقليم الشمالى ، حيث جبال الألب ، تشتد فيه البرودة إلى درجة انتشار الثلوج كوسط أوربا .

والصيف معتدل مع بعض الجفاف ، حيث لايزداد فصله ، فى روما مثلاً ، عن شهر واحد .

وختامًا ، فإيطاليا ، مقارنة بالبلدان الأخرى بحوض البحر المتوسط ، **هى بلد محظوظ أرضًا ، ومناخًا وكذلك موقعًا ، في وسط البحر المتوسط** ، مما سهل عليها الاتصال ببلدانه وتحقيق طموحات أهلها الرومان ، في السيطرة والهيمنة العالمية ، وعندئذ حق لهم أن يسموه : بحرنا : "Mare Nostrum" ، كما قلنا ذلك آنفًا .

(٤) الثروات الطبيعية : وتتمثل فيما يلى من معادن وخيرات : -

أ) النحاس : من إتروريا وسردينيا .

ب) الحديد : من جزيرة ألبا (Alba) .

جـ) الرخام : فى أماكن عديدة .

د) الصلصال : من لاتيوم وإترووريا وغيرهما .

(٢) أصل سكان إيطاليا القديمة

أولاً : عصور ما قبل التاريخ الرومانى :

لما كانت الكتابة اللاتينية لم تنتشر فى إيطاليا القديمة قبل نهاية القرن السادس ق.م ، فإن الفترة الواقعة قبل ذلك من تاريخ إيطاليا يمكن ، تسهيلا علي الدارسين ، أن نسميها (كما جرت العادة مع الحضارات الأخرى من حضارات حوض البحر المتوسط) باسم : عصور ما قبل التاريخ ، أى ما قبل الكتابة والتسجيل بلغة مفهومة ، بالطبع لنا نحن الآن . إذ لايتطرق أدنى شك إلى أن تلك الأقوام القديمة التى عاشت فى تلك المناطق كانت تتحدث لغة ما حتى ولو لم تصلنا آثارها إلى يومنا هذا . ولما كان من المنطقى ، كذلك ، أن السكان الأول – مهما تضاءلت درجة تحضرهم الأولى – كانوا قلة ينتشرون على مساحة ضيقة جداً من الأرض الإيطالية إبان عصور وجودها المبكر ، فلاشك أنهم ، كبقية أجزاء العالم القديم ، عرفوا طريقهم إلى أجود المناطق الإيطالية ، بل عدة آلاف من السنين قبل أن يختلطوا ببعض وتوحدت أهدافهم ولغتهم ونمت مداركهم السياسية فى العيش داخل قري منظمة مستقرة . ولذلك وجب علينا أن نتعرف علي أقدم مراحل التواجد الإنسانى البدائى على الأرض الإيطالية فى ضوء المادة الأثرية المكتشفة – وهو مصدرنا الوحيد عن تاريخ تلك الجماعات الأولى – حتى يمكننا إدراك مدى التطور (ومدته) – الذي طرأ على حياة أولئك السكان الأول لإيطاليا القديمة ، ولاسيما في منطقة إقليم لاتيوم (Latium) حيث مدينة روما صاحبة الفضل الأول على التاريخ الإيطالي القديم وحق لها أن تسمى حضارة تلك البلاد باسمها هى وتفرض نفسها علي بقية الأقاليم الإيطالية ، طوعًا أو كرهًا حتى غدت سيدة على إيطاليا كلها ومن ثم سيراً على المبادئ نفسها والسياسة ذاتها ، دخلت كل البلدان الواقعة على حوض البحر المتوسط تحت سيطرتها وهيمنتها فكونت – عندئذ – أعظم إمبراطورية قديمة عرفها التاريخ القديم .

١ – العصر الحجرى :

أ) رصدت المادة الأثرية المتاحة ، حتى الآن ، أن أقدم أثر لتواجد الإنسان فى إيطاليا القديمة يمكن تأريخه بحوالى ٢٠٠٠٠٠٠ عام تقريبًا من الآن ، أى فى العصر الحجرى القديم ، الباليوليثى (Palaeolithic) ، وذلك بالقرب من منطقتى خيتى (Chieti) وڤينوسا

ب. ظهور الاسكندر الكبير وأسباب الحملة على الشرق :

ولد الاسكندر الكبير في منتصف صيف عام 356 ق م في مدينة بيلا عاصمة مقدونيا وعندما بلغ الثالثة عشر من عمره اتخذ ارسطو الفيلسوف اليوناني الشهير كمعلم له ، فمنذ حداثة سنه تميز بذهنية متوقدة واصبح يحمل الصفات الاغريقية بكل معنى الكلمة[1].

لم يتلق الاسكندر من اساتذته دروسا في المفاهيم الاخلاقية والسياسية فحسب وانما اصبح يشارك اساتذته ايضا في مواضيع فلسفية اكثر عمقا وفهما ، فقد تعلم ان المدنية ضرورية في الحكم كما تلقى ايضا دروسا تقول ان كل البرابرة (غير اليونانيين) هم عبيد بطبيعتهم لاسيما اولئك الاسيويين ، ويبدو ان ارسطو قد طبع في الطفل حب التعلم والقراءة الشي الذي جعل التلميذ يعجب باستاذه ويحبه اول مرة اكثر من والده فيليب[2].

لسنا في صدد تتبع السيرة الذاتية للاسكندر بقدر ما نريد ان نبين تاثير طفولته على تكوينه أو بروزه كقائد محنك منذ شبابه وتوطيده السلطة في بلاد اليونان وغزو الشرق فيما بعد . ويظهر ذلك من خلال اعماله العسكرية الى جانب والده، فعندما وصل السادسة عشر من عمره وبينما كان والده فيليب يحاصر بيزنطة تمكن الاسكندر من سحق ثورة في تراقيا قامت ضد حكم ابيه واسس فيها مدينة سماها باسمه (مدينة الاسكندر)[3]. وفي سن الثامنة عشر تولى قيادة الجيش في موقعة خرونية[4].

كان الاسكندر المقدوني في العشرين من عمره عندما اغتيل والده عام 336 ق م ولكن على الرغم من كونه شابا فانه كان قادرا بشكل جيد على تولي حكم المملكة التي شيدها والده... كان قائدا محبوبا من قبل جنوده وكانت رغبته هي المشاركة في الصعوبات والمخاطر مع جنوده. جيشه كان الافضل بين جيوش العالم وافضل حتى من جيش فارس . ذلك ان فيليب كان قد قضى الكثير من الوقت في تدريب جنوده واستحدث طريقة جديدة في القتال... كما انه عمل على تسليحه... ولهذا كان له الاثر البالغ والفعال لدى الجنود... كانت طموحات الاسكندر قد اصبحت ممكنة في ان يكون الحاكم الاعظم في العالم ولهذا فقد عمل على فتح الامبراطورية الفارسية ، وفي الحال بدا بوضع الخطط لذلك المشروع الكبير . ولكن قبل ان يقوم بغزو بلاد فارس كان عليه اخضاع ثورة التمرد والعصيان في المدن الاغريقية التي انتهزت فرصة وفاة فيليب لاستعادة حريتها[5].

---

(1) Robinson, Charles, Alexander, Ancient History (From prehistoric times to the death of Justinian) , New york 1958 , p.315-316 .

(2) Robinson, Op cit, p.316.

(3) Robinson, Op.cit, P. 317 .

(4) رستم، اسد، المصدر السابق، ص17.

(5) GADD, K, M, from Ur to Rome, London, 1958 , P. 186-187.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن الاسكندر مستعدا لمنحهم الحرية وقد قمع في النهاية بحزم ذلك التمرد الذي حدث في المدن الاغريقية[1].

لقد ثارت هذه المدن في وجه الاسكندر ورامت الانفصال والاستقلال خاصة عند سماعها انه قد مات عندما كان يخمد ثورتين قامتا في تريباليا وايليريا الا ان الخبر كان مجرد اشاعة وعملت اثينا بزعامة ديموستيبنس على تحريض الثوار عندما هاجموا حاشية مقدونية كانت تتخذ من مدينة كادميا قاعدة لها[2].

وتم للاسكندر ما اراد عندما قضى على كل هذه الفتن والمؤامرات وتم تدمير مدينة طيبة كليا باستثناء بيت الشاعر بيندار، اما اثينا فقد تساهل معها لانه كان ينظر اليها باعتبارها وطن الادب والفن الاغريقيين ، هذا وفي نفس الوقت عمل على ان يرتبط اكثر بالاغريق عندما جند منهم اعدادا كبيرة ادمجهم في جيشه استعدادا لغزو بلاد فارس[3].

لاشك بان الاسكندر بعد قضائه على حركات التمرد والثورة التي قادتها اثينا وطيبة ضده بدا يهيئ نفسه وجيشه والعالم الاغريقي برمته الى توجيه قوته نحو الخارج ، ولكن هذه المرة خارج بلاد اليونان حيث تعتبر الاجراءات الحربية التي قام بها في بلاد اليونان وتوطيد سلطته في هذه المناطق من الاعمال الايجابية في تطبيق مشروعه الشامل ، غزو اسيا والشرق خاصة وقد تمكن على اثر ذلك من لم شمل العالم الاغريقي تحت لواء الحلف الهيليني الكورنثي الذي ورثه عن ابيه واعاد هيكلته بموجب قرارات جديدة تخص بنود الحلف ، داخليا وخارجيا ، وقد بقي هو المسؤول الاول على مستوى القيادة العامة للحلف باعتباره "حامي ذمار الحضارة الهلينية" وغازي الشرق[4]، ولذلك سنحاول تسليط الضوء على مختلف الاسباب التي دفعت العالم الاغريقي – الاوربي الى شن هذه الحملة الشعواء ضد الشرق الاسيوي ، في هذه الفترة من التاريخ اذن هذه الاسباب التي سنبحثها وجدناها تمس جوانب عديدة من تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فهي في جوانب منها داخلية تتعلق بالظروف العامة التي شهدتها بلاد اليونان قبل تاريخ الغزو ، وفي جوانبها الاخرى خارجية تحمل ارث وجذور علاقات تاريخية بين الشرق والغرب .

ان من ابرز الاسباب الداخلية العميقة غير المباشرة التي المت ببلاد اليونان ودفعتها الى التوسع الخارجي على حساب الامم والشعوب الاخرى هو الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الصعب

---

(1)GADD, K, M, Op cit, p. 187.

(2) سرقس، بحرجي ديمتري، تاريخ اليونان، ط1 ، بيروت ، 1976 ، ص316.

(3) GADD, K, M, op. cit, P.187 .

(4) سارتون جورج ، تاريخ العلم ، العلم القديم ، في العصر الذهبي لليونان ، ج 3 ، ترجمة : عبد اللطيف احمد علي ، مصر ، 1970 ، ص174 .

الـــذي كـــان يعيشـــه الاغريـــق فـــي بلادهـــم "فقـــد ظلـــت هـــيلاس تعـــاني ابـــان القـــرن الرابع ق.م من المشكلة ذاتها التي كانت تعانيها في القرن الثامن ق.م الا وهي زيادة عدد السكان ، ان استعمار سواحل شرق البحر المتوسط والبحر الاسود والثورة الاقتصادية التي اعقبتها لم تكن كافيتين لتوفير الاقوات بصفة دائمة للعدد الكبير من البطون الهيلينية السغبة التي ينبغي اشباعها والتي ما فتأت تزداد مطردة"[1] .

وقد لعبت البيئة دورا اضافيا في تردي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بين الاقاليم الايجية نتيجة لفقر التربة وصعوبة الظروف المناخية الى جانب ضيق المجال الجغرافي والذي عرفته المدن الاغريقية والاقاليم الايجية بشكل عام[2] "لان ارض بلادهم ضيقة وفقيرة ولا تكفي لاعاشتهم"[3] كما قال ذلك افلاطون وتوكيديتس .

ولما كان الاقتصاد عماد الدولة وعنصرا اساسا في قيامها فانه توجب على بلاد اليونان ان تجد لها مجالات اخرى للتوسع وجلب الثروة والرخاء الى البلاد[4] "قد كتب ايزوقراط ، عن سكان بلاد اليونان من الجند الذين هم جند والا اصبحوا من العاطلين الذين امكن استخدامهم لاستعمار اسيا الصغرى"[5] وبالفعل ادت هذه الظروف الى ارتفاع نسبة البطالة وتفاقمها بشكل متزايد خاصة بين العمال الذين يعملون في الورشات فبدأ الاغريق يعملون على ايجاد بدائل لذلك، فركبوا البحر واصبحوا قراصنة ومرتزقة لدى الاجانب[6] .

اثر هذا الواقع الاقتصادي في المجتمع الاغريقي أيما تأثير على اساس ان النظام الاجتماعي لاي مجتمع غالبا ما يخضع الى منظومة قانونية تصيغ علاقات الافراد مع بعضهم البعض من جهة وعلاقتهم بالدولة التي تحكمهم من جهة ثانية ولما كانت قوانين المشرع اليوناني متطابقة تطابقا تاما مع بعضها وتشمل مختلف المدن اليونانية الرئيسة وقتئذ في مجال "حبس العقار على الاسرات" فان هذه العقارات بالنسبة للمواطن الاثيني أو الاسبارطي أو الطيبي أو غيره لا تفي بالغرض المطلوب وهو سد حاجيات ومتطلبات العائلات المعيشية ومن ثم كان لابد على المواطن الاغريقي ان يجد له مواطن ومستقرات جديدة خارج البلاد، فراح يهاجر الى اصقاع بعيدة شرقا وغربا طلبا لهذه الغاية وكانت هذه الاجراءات ذات هدفين ، فقد تأخذ منحى سلمي باستقرار مجموعات مهاجرة في ارض معينة خارج بلاد

(1) توينبي ، ارنولد، المصدر السابق ، ص132.
(2) احمد ، علي عبد اللطيف ، التاريخ اليوناني في (العصر الهللادي) ج1، بيروت ، 1976 ، ص20.
(3) عياد ، محمود كامل ، تاريخ اليونان ، ج1، دمشق 1969 ، ص125.
(4) عكاشة، علي وآخرون، المصدر السابق، ص91.
(5) تارن ، وليم وثروب ، الحضارة الهلنستية، ترجمة : عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، 1966 ، ص17.
(6) عكاشة ، علي واخرون، المصدر السابق، ص91.

اليونان وتصبح ملكا لها بعد ان تستعمرها وتنشر فيها خصائصها الحضارية وقد تأخذ منحى عسكري حربي بان تقدم احدى المدن في بلاد اليونان أو بلاد اليونان كله ممثلا في دولة واحدة[1].

على ان تبسط نفوذها العسكري والسياسي كليا أو جزئيا على منطقة خارج حدودها وتقيم فيها مستعمرات ومستوطنات تنشر من خلالها ما تريد ان تنشره في هذه البلاد أو تلك من عناصر حضارية مختلفة ومتنوعة هي في الاصل وليدة الحضارة الاغريقية المختلفة نوعيا على الحضارات الاخرى مثل ما حصل بعد الغزو الاغريقي للشرق اثر حملات الاسكندر الحربية وما بعدها. كانت ترمي الى تغيير ملامح الشرق الحضارية ونهب خيراته بعد الهيمنة عليه سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا[2] اذن فالغزو قد يشمل كل هذه العناصر الحضارية مجتمعة ويصبح بذلك صراعا حضاريا شاملا، وفي واقع الامر اذا ما تتبعنا حيثيات هذا الصراع الذي قام ابان منتصف القرن الرابع وما بعده بين الهيلينيين والشرقيين نلاحظ وجود جذور تاريخية وسياسية اثرت على نفسية المواطن الاغريقي ليس فقط الحاكم السياسي أو الانسان العادي وانما تعدته لتشمل شريحة مثقفة من الفلاسفة والمفكرين الكبار في العالم الاغريقي . وأدت الاوضاع السياسية في بلاد اليونان إلى تفاقم الازمة مما دفع السكان إلى الهجرة خارج البلاد بسبب هيمنة الطبقات الارستقراطية على الوضع الاقتصادي وصراعها فيما بينها[3]، اضافة الى ذلك فقد تتعرض البلاد الى فتن واضطرابات سياسية أو حروب ومنازعات –تحدث بين هذه المدينة أو تلك– يكون ضحيتها المواطن العادي مما يشكل خطرا مستديما على النظام أو الحكومة السياسية القائمة فيضطر الى مغادرة البلاد نحو افاق اوسع وارحب[4].

لاشك ان وراء الاسباب الداخلية السالفة الذكر اسبابا وعوامل اخرى تاريخية ونفسية كان لها الاثر البالغ في قيام الغرب اليوناني بغزو الشرق الاسيوي ، تلك هي تدخل بلاد فارس المستمر في شؤون بلاد اليونان الداخلية منذ القرن الخامس ق م. فقد كانت بلاد فارس تمثل بالنسبة لليونانيين العدو التقليدي الذي كان دائما يشكل خطرا على حدودهم الشرقية "وهذا ما ادى الى قيام الحروب الفارسية التي خاضها الاغريق ضد الفرس في الفترة الواقعة بين 490–478 ق.م"[5] حيث دارت معارك ضارية بين الجانبين كانت وطأتها كبيرة على اليونانيين وخاصة مدينة اثينا كانت منطقة اسيا الصغرى ساحة حرب ومنطقة "مجال حيوي" وصراع دائم بينهما بسبب المدن اليونانية الواقعة في اسيا الصغرى والتي كثيرا ما كانت تدور في فلك النفوذ الفارسي "الذي كان يعتمد على الطغاة في حكم اسيا

(1) فهمي محمود، تاريخ اليونان، ط1 ، 1910 ، ص97–98.

(2) المصدر نفسه .

(3) عياد ، محمود كامل ، المصدر السابق ، ص152.

(4) فهمي، محمود، المصدر السابق، ص98.

(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق، ص59–60.

الصغرى"[1] ولما كان اليونانيون ولاسيما الاثينيون منهم ينظرون الى هذه المدن على انها يونانية الأصل فان قيام حروب بين الاثنين بات أمرا حتميا . لقد عانت الدول اليونانية كثيرا من التسلط الفارسي وتدخل هؤلاء في شؤون بلاد اليونان اكثر من مرة وكانت الحروب سجالا بين الدولتين والسبب في ذلك يعود الى ان الفرس كانت لهم اطماع توسعية على تخوم بلاد اليونان ولاسيما في اسيا الصغرى وكان من نتيجة ذلك ان قامت بين الطرفين حروب ثلاثة سميت بالحروب المادية[*] (490-449 ق.م) وقد استنزفت هذه الحروب كلا الجانبين الفارسي والاغريقي وقد كان الضرر الذي لحق ببلاد اليونان اكبر في هذه المعارك[2].

كانت العلاقات بين اثينا والمدن الايونية في اسيا الصغرى جد وطيدة، وقد وقفت اثينا في وجه التقدم الفارسي في هذه المناطق وقدمت العون للثوار في ايونيا ضد التواجد الفارسي هناك الشي الذي اغضب الملك الفارسي دارا الثاني (423-405ق.م) وحنق على اثينا وعند انتهاء الثورة بدا الملك يستعد لغزو اليونان انتقاما من اثينا وقد جهز أسطولا بحريا ضخما لذلك في الوقت الذي بدا بتطويق مدينة اتالوس فاجأته عاصفة بحرية كبيرة حطمت اسطوله وقضت على الحملة[3] .

ويبرز التسلط الفارسي على المدن اليونانية ايضا في حروب البيلوبونيز (431-404 ق.م) ودسائس الفرس للتفريق بين اليونانيين[4] وكان تدخلهم ايضا بين سنتي (404-379 ق.م) في عصر نهضة اسبارطة وعقد هذه الاخيرة تحالفا مع الفرس ضد الدويلات اليونانية وخانت بها عهد اليونان عام 387 ق.م وفيه كانت حملة العشرة الاف اغريقي المرتزقة الذين اصبحوا يعملون في خدمة الملك الفارسي كيخسرو[5].

وبمجيء منتصف القرن الرابع ق.م بدات تظهر في بلاد اليونان حركة تزعمها العديد من الفلاسفة والمفكرين الاغريق تنادي بوضع حد للتسلط الفارسي على بلاد الاغريق ومجابهتهم في عقر دارهم لاسيما وان الظروف العامة بدات تسير نحو الاحسن، ذلك انه نتيجة للسياسة التي انتهجها الملك فيليب في بلاد اليونان ومحاولته توحيدها تحت زعامته وطموحاته في غزو بلاد فارس والشرق بدأ بعض الفلاسفة من امثال ايزوقراط يؤيدون مثل هذه الاجراءات والمشاريع، خاصة وان الخطر

---

(1) المصدر نفسه ، ص60 .

(*) هي الحروب الثلاثة التي نشبت بين الفرس وبلاد اليونان بسبب اسيا الصغرى قامت الحرب الاولى عام 495 والثانية عام 480 والثالثة عام 449 ق.م .

(2) فهمي ، محمود ، المصدر السابق، ص118-119.

(3) Betten Francis S, The Ancient world from the earliest times to 800 AD , part – one, New york , P. 171-172 .

(4) فهمي ، محمود ، المصدر السابق ، ص169.

(5) فهمي ، محمود ، المصدر السابق ، ص183.

الفارسي منذ اعتلاء ارتحشتشا الثالث عرش فارس 359 ق.م بات في ازدياد وتفاقم ويعتبر إيزوقراط، الفيلسوف والمفكر والمدافع عن حقوق الاغريق في الوحدة والحرية والاستقلال من ابرز الناشطين الداعين الى وحدة الاغريق والتصدي للصلف الفارسي "وكانت الرسالة التي بعث بها ايزقراط الى العالم الهيليني هي الوحدة الاغريقية وتكوين جبهة عسكرية دفاعية (symmachia) من جيوش اثينا واسبارطة وطيبة وباقي الدويلات اليونانية والقيام بحملة غزو ضد الفرس في عقر دارهم"[1].

ولكي يشحذ همم وإرادة الملوك فقد بادر هذا الفيلسوف بارسال العديد من الرسائل الى الملك فيليب ملك مقدونيا باعتباره الاقوى في بلاد اليونان يحثه فيها ويبارك مشاريعه بخصوص وحدة الاغريق والتصدي للفرس[2].

وقد التقت اراء ايزقراط هذه مع كل من اراء وافكار افلاطون وارسطو فقد قال افلاطون "بان البرابرة هم اعداء بالفطرة ومن الضروري ان يشن عليهم الاغريق حربا حتى ولو ادى الامر الى استخدامهم ارقاء أو إبادتهم"[3] اما الفيلسوف ارسطو فقد صرح بان "الحرب ضد البرابرة (أي غير اليونانيين) هي حرب عادلة وطبيعية"[4] ، وهكذا يبدو لنا جليا ان التحضير للحملة العسكرية ضد فارس والشرق قد سبقته تحضيرات فكرية ونظرية ، اول من كان يدعو اليها هم نخبة من المجتمع اليوناني الذين اجمعوا على ان الحرب على من سواهم من الشعوب (البرابرة) هي طبيعية وضرورية وعادلة وقد تقبل المواطنون الاغريق هذه الافكار ورحبوا بها وتبنوها وايدوا قادتهم ومفكريهم فيما ذهبوا اليه[5].

ومما يدل على ان هذه الافكار قد تجسدت فعلا على ارض الواقع ابان الغزو المقدوني للشرق هو البيان السياسي الذي صدر عن الاسكندر فيما بعد وخلال حملته العسكرية في مدينة ماراثوس بعد انتصاره في ايسوس عندما رفض عرض الملك الفارسي في الصلح حيث كانت مضامين هذا البيان السياسي تؤكد على "الاضرار التي لحقت بمقدونية وبلاد الاغريق نتيجة الحروب الفارسية – اليونانية ، وانه أي الاسكندر – باعتباره قائدا اعلى للحلف الاغريقي فانه يقوم الان بالثار والانتقام لهذا العمل"[6] فيما بينها .

(1) الناصري ، سيد احمد ، علي، المصدر السابق، ص367-368.

(2) المصدر نفسه، ص368.

(3) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص159 .

(4) المصدر نفسه .

(5) العسلي، بسام، المصدر السابق، ص 59-60 .

(6) المصدر نفسه، ص70.

ولكن هل صحيح ما اعتقده بعض الفلاسفة اليونان مثل افلاطون وارسطو وغيرهما بان "للهيلينيين حقا فطريا في الغزو والفتوح" لانهم ولدوا احرارا بينما ولد الاخرون عبيدا[1] ؟ .

تذكر بعض المصادر التاريخية – انه تم العثور على مقال يبحث في تأثير البيئة الطبيعية على تكوين الشخصية بين وثائق مدرسة الفيلسوف ابقراط تعود إلى احد الكتاب قبل فترة ارسطو بحوالي مائة سنة يشير فيها كاتبها" بصدق بالغ وبصيرة نافذة" ، "إلى ان الشعوب غير الهيلينية التي تقطن البلاد المتخلفة لا تقل سموا في الروح أو تعشقا للحرية عن الهيلينيين انفسهم وقد دلت نتائج الغزو الهيليني على صحة هذا القول، والحقيقة ان مبدأ حق الهيلينيين الطبيعي في السيادة على (الاجناس الأخرى) لم يكن الا ذريعة للعودة إلى مثل حالة اضطهاد اسبارطة لعبيد الأرض"[2].

(1) توينبي، ارنولد، المصدر السابق ، ص133.

(2) المصدر نفسه .

الفصـــل الثانى

بداية عهد جديد

الإمبراطور أوغسطس(*) : (Augustus)

إنه بمجرد أن عاد أكتافيانوس (أوغسطس) إلى روما عام ٢٩ ق.م ، من الشرق ، وبعد أن أعاد تنظيم شئون تلك الولايات هناك أحس رجالات روما والشعب الرومانى - لأول مرة منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، بالأمان والاطمئنان إحساسًا حقيقيًا(١) .

لقد تغيرت الأوضاع تمامًا ، فى النصف الأخير من القرن الأول ق.م، وها نحن نوجز الأحوال، قبيل اعتلاء أوغسطس عرش الإمبراطورية وقيام نظام دستورى جديد فى روما يجلس هو على عرشه ويمارس من خلاله سلطات الحاكم الفرد " الدكتاتور " (Dictator) والذى أسماه هو نظام : برنْكِبَاتوس (Princepatus) ، حيث كانت الصورة كالتالى :

السناتوس : منطوى على نفسه ، ولا يشارك فى الحياة السياسية ، بعد أن أمسك رجال الجيش العسكريين . ولاسيما قادة الجيوش الرومانية فى الشرق والغرب ، زمام الأمور كلها ولم يعد يستمعوا إلى آرائه وقراراته .

الفُرسان (equtes) : كانوا فى وضع متميز فى كل شئ ، على إثر الاعتماد الكلى عليهم فى كل الحروب الخارجية .

ومع حاجة الجيوش الرومانية المتزايدة إلى قوات ، وظهور طبقة فرسان جديدة إلى الوجود ، تحت رعاية الدولة ، بالتطوع من بين صفوف طبقة المواطنين الأحرار المتوسطى الحال ، وبالرغم من الامتيازات المادية العديدة ، إلا أنهم كانوا يشعرون - فى قرارة أنفسهم - بأنهم دخلاء على المجتمع الأرستقراطى العريق ، وبأنهم - فعلاً - محدثو نعمة (٢).

(*) فضلنا صياغة المعادل العربى للفظة اللاتينية لهذا الاسم كما ذكرنا آنفًا وليس كما تنطق ، فى الأصل ، كالتالى : أوْجوستوس ، وذلك لسهولة الأولى على اللسان العربى ، وحيث أصبحت هذه أكثر استخدامًا منذ زمن طويل .

1 - White, G . W & Kennedy, E. C., Roman History, Life & Literature, London., 1942, p. 111 .

٢ - رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، الجزء الأول ، ص ٨٢ .

وتجدر الإشارة إلى أن هاتين الطبقتين كانتا تحتقران وتزدريان أعيان ووجهاء الريف والبلديات (Municipia) وذلك لخشونة طباعهم وسلوكهم ، والطريف - فى الأمر - أن هؤلاء الأعيان ، أغنياء الريف ، كانوا « ينظرون شذراً إلى أغنياء المحرَّرين وغيرهم »[١] .

الطبقات الدُّنيا :

وهم جموع الفلاحين الأحرار ، وأحرار المزارعين والعمال الكادحين ، وكذلك أصحاب الحرف، وكما عرفنا من قبل فإن ساكنى المدن من أبناء هذه الطبقة ، أو غيرها ، عادة ما يحتقرون أبناء الريف ، والقرويين (Rustici) ، كما لا ننسى وجود العبيد (Servi) فى جموع هائلة وضخمة ، سواء فى مزارع النبلاء السادة (domini) أو فى المدن - كخدم - هذا فضلا عن أعداد كبيرة أخرى من فقراء وأحرار الرومان وهم الموالى (clientes) .

وعندما يواجه الدارس بسؤال : **ماذا كان موقف الحاكم الجديد لروما إزاء كل هذه الطبقات، وماذا قدَّم لهلاده** ؟ يجب أن يعرف بعض الأمور الهامة التى بدونها لايمكن أن تستقيم إجابته وتكتمل .

إن أوكتافيوس عندما قرر عمل شئ ، إزاء الأوضاع الراهنة أمامه ، فإنه « لم يُحْدِث أى تغير فى هذه الأوضاع وإنما قَبلها على أنها قضية مُسَلَّم بها »[٢] .

وفى رأى البعض الآخر فإن أكتافيوس لم يفعل سوى أن وفَّق بين مصالح تلك الفئات والطبقات السالفة الذكر ، حتى أن عهده يمكن تسميته بأنه " عصر الوفاق الأوغسطى " : "The Augustan Compromise" . لقد كان هدف أوغسطس الأسمى هو إصلاح روما والولايات بالشكل الذى يراه ملائمًا لتحقيق نهضة كبرى من أجل خير ورفاهية الشعب الرومانى ، ولكن أساليبه تباينت واختلفت ، مما كان سببًا فى اختلاف المؤرخين والدارسين لشخصه ولعصره .

إن أوغسطس ، بالرغم من أنه لم يكن عبقرية فذة ، لا كجندى ولا كسياسى ، كان يتمتع بمجموعة من الخصائص الشخصية التى تمثل أهم ملامح الشخصية الرومانية وأسلوب الساسة

---

١ - المرجع السابق .

2 - White & Kennedy, op . cit., pp. 111 - 122 .

3 - Rostovtzeff, op . cit., p. 23.

الرومان الأوائل فى حربهم مع قرطاجة ، لقد اتّبع أكتافيوس مع أنطونيوس غريمه أثناء حربه معه ومع كليوپاترا – فعل أساليب روما مع أعدائها ، والتى كانت تتمثل فى :

أ) الإصرار والتمسك بالهدف .

ب) الحذر والصبر .

جـ) استغلال أخطاء الأعداء والمنافسين أفضل استغلال والتعلم من أخطائه هو .

وحتى عند تحقيق النصر فإن أوغسطس لم يكن يتخلى عن هذا الأسلوب فى معالجة المشاكل التى يواجهها[١] .

لقد أقدم أكتافيوس على اتخاذ العديد من الإجراءات التى تتصف بأنها طويلة الأمد وتدريجية وهادئة ، وذلك من أجل تدعيم أركان نظامه الجديد فى الحكم والذى يعتمد أساسًا على شخصه باعتباره « الرجل الأول فى الدولة : " Princeps " ومكنّه من أن يسيطر هو ، سيطرة كاملة مطلقة ، على كافة أمور الدولة [٢].

ويذكر التاريخ لأوغسطس أنه فى عام ٣٦ ق.م ، كان قد وعد بإصلاح النظام الجمهورى الذى كان قائمًا حتى ذاك الوقت ، وبعدما أصبح هو الحاكم الأعلى ، صاحب السلطة الأعلى "Maius Imperium" فإنه أوفى بوعده ولكن على طريقته الخاصة وتحقيقًا لأهدافه ورؤيته هو للأمور .

ففى عام ٢٨ ق.م ، أمر أوغسطس ، ومعه أجريپّا ، آخر أصدقائه وذراعه الأيمن فى كل الأمور ، بعمل تعداد (Census) وذلك بهدف تسجيل الناس وممتلكاتهم تيسيراً لعملية تقدير الضرائب اللازمة على المواطنين الرومان .

ذكر أوغسطس فى نقش أنقره (Monumentum Ancyranum) المعروف باسم : الأعمال العظيمة للإله أوغسطس "Res Gestae divi Augusti" أنه نقل سلطته إلى السناتوس ليدير مصالح الشعب الرومانى[٣] وكانت هذه مناورة محسوبة من الإمبراطور الذكى .

---

1 - White & Kennedy, op . cit., p. 111 .

2 - Grant, M., History of Rome, Faber edition, London-Boston 1970, pp. 202- 203 .

3 - " Rem publicam ex mea potestate in senatus populique Romani arbitrium teanstuli,.."

وقراءة سريعة عند ديون كاسيوس[١] ، يستطيع الدارس أن يتعرف على ملابسات قرار أوغسطس بالتنحى عن منصبه العسكرى كقائد أعلى ، إذ أن هذا المؤرخ استنطق أحد مستشاريه وهو أجريبّا (Agrippa) فجعله يوجه نظر الإمبراطور إزاء تخليه عن منصبه العسكرى كقائد أعلى للجيش (Imperator) وكحاكم أوحد (Monárkhes) حيث يوضح بجلاء مخاوف أوغسطس من مؤامرات قيادات الجيش وحقد الزملاء [٢]. ولعل اطلاعنا على ترجمة لفقرة قصيرة من هذا الحوار بين أوغسطس وأجريبا ، نجد الأخير يتلو للإمبراطور :

" أيها القيصر ، لا تتعجب إذا ما حاولت أن أصْرف نظرك ، وأثنيك عن نظام حكم الفرد ، بالرغم مما فيه من امتيازات وما يمكن أن يعود على صاحبه من منافع حتى لو كنت أنت الذى فى هذا المنصب . ذلك لأنه إذا كان – من ناحية – سيعود عليك بالنفع وقد دَرَسْتُ ما يحصل عليه أصدقاؤه من ميزات فإنه – كما يقولون – من ناحية أخرى ، تحوطُه مشاعرُ الحقد والأخطار من كل نوع ، وذلك بقدر رغبات معظم الحكام فى مزيد من المكسب ، ولكنهم – غالبًا – ما يحصدون الأحقاد والأخطار . إن هذا الشئ نفسه لايحدث بالنسبة لى ، كما لا يحدث بالنسبة لآخرين ، ولكننى وجدت ذلك اتجاهًا سليمًا لمصلحتك أنت ولمصلحة الدولة"[٣].

خطوات التأييد الشعبى :

لقد حرص أكتافيوس على ضرور التأييد الشعبى المستمر لكل خطواته ومن هنا كان حرصه الدائم على إخبار الشعب الرومانى بما يريده هو : ولم يقع فى أخطاء يوليوس قيصر الذى اعتمد اعتماداً كليًا على قوة جيشه وتجاهل الرأى العام . إنه عندما أتى بالسلام إلى ربوع الإمبراطورية الرومانية ووطد دعائمه وقلّل من عدد فرق الجيوش الرومانية وأوجد الوظائف للمحاربين وأجزل لهم العطاء عند الخروج من الخدمة العسكرية ، فإنه بذلك قد ضمن التأييد الشعبى الذى كان يبغيه بكل السبل[٤] واستطاع بنجاح تام أن يحافظ على ذلك ، فلم يعلن صراحة أنه سيدهم :(dominus) ومثّل عليهم دور خادمهم المطيع المتواضع[٥] .

---

1 - Book L11, 1-2 .

٢ – حتى لا تتكرر مأساة يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م .

٣ – ديون كاسيوس : التاريخ الرومانى ، الكتاب الثانى والخمسين ، فقرة ١ –٢ .

4 - Tacitus, Annals, 1.2. : cunctos dulce lune alii pellexit.

5 - White & Kennedy, op . cit., p. 113 .

إن النظام الدستورى الذى وضع أوغسطس لبناته ودعمه بأساليبه المدروسة جيداً - كما رأينا فى موضوع تخليه عن سلطته العسكرية - كان نظام الحاكم الأوحد (autocracy)[١] ، فعلاً، ولكن كان نظامًا جمهوريًا شكلاً .

هنا حدد أوغسطس - بعد حصوله على هذا اللقب عام ٢٧ ق.م - وظائف كل الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الرومانى وشجّع الجميع على القيام بدوره فى حدود اختصاصه ، وأوضح للرومان جميعًا أنهم إن أرادوا أن يكونوا سادة العالم ، فعليهم بالعمل والقيام بالأعباء ، وبالتالى فإنه حدد لهم أدوارهم لتدعيم حكم الإمبراطورية الواسعة ، المترامية الأطراف شرقًا وغربًا ، وهكذا فإننا نجد تلك الوظائف موزعة على حسب قدرات كل طبقة وتطلعاتها الاجتماعية :

(أ) طبقة السناتوس :

كان عليها أن تقدم للدولة أعضاء المجلس الأول فى الإمبراطورية ، وموظفى مدينة روما ، العاصمة ، وقادة الجيوش والضباط ، فضلاً عن حكام الولايات الخارجية ، وبهذه الطريقة أرضى هذه الطبقة العريقة ، وحافظ على الشكل الدستورى ، كالنظام الجمهورى السابق ولكن مع مشاركته التامة فى جلسات السناتوس ومعرفته لكل صغيرة وكبيرة من أموره ، واحتفاظه هو بالقرار النهائى .

(ب) طبقة الفرسان :

كان عليها - فى ظل النظام الأوغسطى الجديد - أن تقدم للدولة رجالات القضاء لشغل وظائف قضاة المحاكم الرومانية الذين يعرفون باسم (praetores) ، وكذلك يجب عليها أن تمد الدولة بقيادات عسكرية للقيام بوظائف ضباط القوات المساعدة ، التى تُعرف باسم (auxilia).

(جـ) طبقة الموظفين المدنيين :

وكانوا من أبناء الطبقة الوسطى فى المجتمع الرومانى وطبقة الفرسان الجديدة ، التى أثْرت فى ظل الحروب والفتوحات الخارجية ، وحدد لها أوغسطس هذا السلك الوظيفى فى إدارات

---

١ - الاصطلاح هذا ذو أصل يونانى هو "autokratia" وتعنى « حكم الفرد » الذى يُسمى عندئذ " au-tokrátor" أى الإمبراطور .

وهيئات الحكومة الرومانية ، فضلاً عن العمل فى قصور الأباطرة ومكاتبها ، أى القيام على خدمة الأباطرة شخصيًا .

(د) طبقة عبيد وموالى الإمبراطور :

وكانت فئة كبيرة العدد ، مختارة للعمل فى الإدارات والدواوين الملحقة بالسكن الإمبراطورى – أى داخل القصر الإمبراطورى ، ولكن فى وظائف أدنى من تلك التى يتولاها أبناء الطبقة السابقة ، طبقة الموظفين المدنيين . ولما كان للسكن الإمبراطورى أفرع منتشرة فى أنحاء الإمبراطورية احتاجت إدارات هذه القصور إلى أعداد كبيرة من أفراد هذه الطبقة المحرومة .

(هـ) طبقة العُتقاء :

وقد حدد لهم أوغسطس القيام بأعباء العمل كبحارة ونوتية[١] فى الأسطول الحربى أو إدارة مطافئ العاصمة .

وإتباعًا لنفس سياسة روما القديمة تجاه المدن الإيطالية الأخرى فإن أوغسطس قد حدد لها دوراً يتمثل فى ضرورة قيام هذه المدن بإمداد وتزويد الدولة بالجند المدربين ، وذلك للعمل فى الحرس الإمبرطورى ، أو الفرق الأساسية للجيش (Legiones) أو كضباط للقوات المساعدة .

المعايير :

وجدير بالذكر ، أن **المعيار الذى كان على أساسه تتم عملية تحديد الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الرومانى القديم** ، وحتى فى عهد أوغسطس ، **كان مقدار ما يملك الفرد الرومانى من ثروات عينية أو نقدية** ، وبالتالى كل مظاهر الثراء والرفاهية المادية . وكانت هذه وظيفة التعداد (Census) ، الذى حرص أوغسطس على إجرائه لتسهل عليه عملية تحديد الطبقات الغنية وتحديد مدى مسئوليتها فى دفع الضرائب ، وبالتالى زيادة مقدرة الدولة على القيام بالأعباء المنوطة بها .

نعم ، لقد كانت المادة والثروة هى أساس تقدير الفرد ومدى مشاركته ، واحترامه من قبل الشعب ، فى أمور الحياة العامة . فإنها هى المادة التى كانت توضع فى كفة والأفراد فى كفة أخرى:

---

١ – كلمة « نُوتية » = بحارة ، ذات أصل يونانى " naũtai " ، ودخلت العربية .

سواء فى العهد الملكى أو الجمهورى أو حتى فى ظل النظام الجديد الذى لم يملك أن ينسلخ عن ماضيه وتراثه وهكذا ، فإنه لا لوم على أوربا اليوم عندما تزن الأمور والأخلاق والدين بمعيار المادة ، وسارت على نهج أسلافهم فى روما وأثينا القديمتين . وحتى لا نكون مُغاليين فى موقفنا هذا ، فربما نجد العذر للمجتمع الأوربى بصفة عامة ، والمجتمعات القديمة فيها ، بصفة خاصة عند اليونان والرومان ، إذ كان على الفرد مواجهة مصاعب الحياة والطبيعة ولابد من العمل والانتاج ، وإلا فإنه لن يجد مَنْ يخدمه أو يسد رمقه أو يُكْسيه ، نظراً لفقر البلاد ، **ولهذا كان مَنْ يملك أكثر يسُود أطول ويعيش أفضل . ولهذا ، أيضًا نشأوا على احترام العمل – أي عمل – ليس عن حب وإيمان بضرورة العمل ، بل بدافع الحاجة فى ظل مجتمع لا يعرف للرحمة مكانًا ولا يعلو صوت فيه على رنين النقود ، مهما كانت ثقافة المالك ضحلة أو منعدمة ، فيكفى الشاب أن يكون مالكًا لأموال أو عقارات أو أنه ينحدر من أسرة كذا المعروفة بثرائها ، دونما اعتبار لأى قدر من الثقافة أو التعليم** . لقد كان الشرط الوحيد لشباب الأرستقراطيين فى روما والمدن الإيطالية الأخرى ، هو التمتع بقسط معين من التربية البدنية والتدريب العسكرى ، ثم الولاء الضرورى للإمبراطور ، كرخصة للترقى من منصب إلى آخر .

فلسفة السلام الرومانى وسياسة أوغسطس الاقتصادية :

لايمكن ، بداية ، أن نتخيل أى تقدم اقتصادي فى أى بلد من البلدان فى التاريخ القديم أو الحديث ، دونما استقرار دائم لأحوال هذا البلد أو ذاك . وعلى وجه التحديد ، استقرار فى السياسة الخارجية ، التى هى مفتاح كل تحسن فى الأوضاع الاقتصادية الداخلية .

لقد كان أستاذنا الفاضل د. سيد الناصرى ، على حق عندما أكد على أهمية السياسة العامة للدولة كضمان لأى تقدم وازدهار ، فتاريخ الدولة هو سياستها أولاً ، ونتيجة لهذه السياسة – داخلية كانت أم خارجية – تتوقف درجة التقدم الاقتصادى لهذه الدولة أو تلك[١] .

ولكى نستطيع أن نقدر ما فعله أوغسطس إزاء سياسة الإمبراطورية الخاصة والوضع فى الولايات الرومانية ، بعد استعراضنا للأوضاع الداخلية فى روما (فى الصفحات السابقة) نقدم هنا عرضًا موجزاً للصورة التى كانت عليها الأحوال قبل أن يتولى أوغسطس أمور البلاد بقليل ، وذلك من أجل تحديد دور أوغسطس فى هذا المجال .

---

١ – تاريخ الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ ، ص ١٠ .

لقد كانت صورة الأوضاع الخارجية كما يلى :

(١) انتصارات للرومان ، غير حاسمة ، فى الشرق والشمال .

(٢) ضرورة إنقاذ سمعة روما وجيشها فى هذه المناطق بعد هزائم كراسوس (Crassus) على يد البارثيين .

(٣) تهديد كليوباترا (Kleopatra) لروما ، وطموحاتها غير المحدودة ، ولا سيما أنها اتخذت أعظم القادة الرومان وسيلة لتحقيق أهدافها : مما يعتبر ضربة لروما داخلها وتقويض لأركانها بأيدى أبنائها .

(٤) انقسام القيادات العسكرية للقوات الرومانية إزاء ما يجب عمله .

والحقيقة أنه بمجرد أن انفرد أوكتافيوس بعرش الإمبراطورية الرومانية حتى بدأ يعالج كل هذه الأمور بحسم وهدوء مستخدمًا كل السبل المتاحة ، لدرجة أنه ابتدع أخطر وسيلة دعائية فى التاريخ القديم ، وهو إصدار جريدة يومية لإخبار الشعب بما يريده هو ، وهو الأمر الذى حرص عليه دائمًا ، ألا وهو التأييد الشعبى لكل خطواته .

هنا لابد لنا أن نعترف بنجاح أوكتافيوس فى إدخال الإمبراطورة الرومانية فى عهد جديد حقًا ، ولكن هذا النجاح لم يأت من فراغ . ذلك لأنه كان قد اختار الطريق الصعب ، ولم يعرف الراحة أو السكينة إلا بعد أن :

(أ) بذل جهوداً جريئة وكبيرة ومكثفة أنهت المشكلة الشرقية ودور القراصنة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكذلك أنهى - إلى الأبد - طموحات الملكة الشرقية المقدونية كليوباترا وكذلك بعد أن قضى قضاءً نهائيًا على مستقبل أنطونيوس (Antonius) غريمه السياسى والعسكرى ، وهكذا استراح الحاكم الجديد إلى حدود الإمبراطورية الشرقية وذلك بالاعتماد الكلى على فرقه العسكرية الكثيرة العدد ، فاستقرت الأوضاع وتحسنت سمعة روما وزادت رهبتها .

(ب) التف القادة العسكريون خلف أوغسطس ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة كزعيم قوى ، يعرف ويدافع عن مطالبهم ويُحسن قيادتهم ، هذا بالرغم من أن أوغسطس لم يحالفه الحظ فى إنهاء المشكلة الألمانية لضمها نهائيًا إلى أملاك الشعب الرومانى ، ذلك لأن أوغسطس كان مهتمًا بدرجة أكبر بالحدود القريبة المباشرة مع إيطاليا ، فاهتم بالحدود الشمالية والشمالية

الشرقية ودخلت القوات الرومانية فى حروب مضنية مع البانونيين (Panonians) والدالماتيين (Dalmatians) .

وفى هذا المقام لابد أن ننوه إلى حقيقة تاريخية خرجنا بها من دراستنا لتاريخ روما القديم وعلاقاتها بالشرق ، وهى أن سياسة روما فى الشرق كانت تقوم على دعامتين :

الأولى هى : الدبلوماسية : كما حدث مع مصر منذ بطليموس الثانى فيلادلفوس (Filádelfos) ، أى منذ ٢٧٣ ق.م ، إلى أن وقعت مصر ، رسميًا وبشكل سافر ، تحت الاحتلال الرومانى ، على أيدى أوغسطس عام ٣٠ ق.م .

الثانية وهى : التجارة : كما حدث مع تجارة الشرق العربى والبحر الأحمر . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال أن سياسة الرومان اعتمدت على قوات حربية عظيمة - أى فرض السيادة التجارية بالقوة المسلحة بالرغم من أن حملة أحد قادتهم وهو آيليوس جاللوس (Aelius Gallus) على بلاد العرب فشلت حربيًا ، إلا أنها حققت للرومان بعض المكاسب التجارية من تجارة الشرق .

ونتيجة لهذا كله استقرت الأوضاع ، شرقًا وغربًا على حدود الإمبراطورية الرومانية وازدهرت التجارة وشاع السلام ، بفضل مجهودات أوغسطس ، حتى عُرفَ هذا السلام بأنه «السلام الأوغسطى : Pax Augusta» وأقام الرومان تمثالاً حيًا معبراً عن هذا السلام فى ساحة الإله مارس ، تعبيراً عن تلك الروح الجديدة التى سادت روما والولايات كذلك .

وكما ذكرنا ، آنفًا ، فإن ازدهار اقتصاد بلد من البلدان لايمكن أن يتم فى غير الاستقرار وهدوء الأوضاع وعدم تقلب السياستين الداخلية والخارجية على السواء ، وإن كنا نؤكد أكثر على أهمية السياسة الخارجية لدول العالم القديم ، لأنه فى ذاك الزمان ، لم تكن دولة وحدها قادرة على حفظ استقلالها الذاتى وضمان حدودها إلا بعقد المحالفات الخارجية مع دول أقوى، وبالتالى فإن أى تغيير فى ميزان القوة على الصعيد الخارجى سيكون له انعكاس سئ أو طيب على الدول المتحالفة مع بعضها وهكذا فإن السياسة الخارجية هى التى كانت الفيصل لما كانت عليه أحوال أى بلد فى داخله . وقد رأينا بالفعل ، كيف أن روما لم تحقق الاستقرار المنشود إلا بعد أن حلت مشاكل حدودها الخارجية فى الشرق والغرب مع الولايات المتاخمة على أقاصى حدود إمبراطوريتها .

وقبل الدخول فى سياسة أوغسطس الاقتصادية والإجراءات التى قام بها واتخذها فى هذا السبيل ، كنا نود أن نعرف ماهية فلسفة السلام الرومانى الذى جاء نتيجة تلك المجهودات الضخمة للقوات الرومانية فى ساحات الحروب .

إن الحقيقة التاريخية التى يجب علينا نحن الدارسين للتاريخ القديم بصفة عامة والتاريخ الرومانى بصفة خاصة ، وهى أنه من الضرورى ألا ننخدع - اليوم ونحن نقرأ ذاك التاريخ - بالمسميات وننساق - مثلاً - وراء كلمة « السلام » لما لها من تأثير سحرى على الأمم الضعيفة التى تأمل فى شئ من هذا القبيل ، لأنها لا تقوى على غير ذلك ، من ناحية ، ولأن مطلب « السلام » - فى عالم اليوم - ليس إلا مطلب الضعفاء . ولا ترفع هذا الشعار إلا الأمم التى لا حول لها ولا قوة أمام القوى الكبرى . إن الرومان - قديمًا - لم يعملوا على نشر السلام بين ربوع إمبراطوريتهم إيمانًا منهم بالسلام كوسيلة ، للعيش ،والتعايش الإيجابى بين الأمم ، ولم ينادوا به ، كما يمكن أن يُفهم من مصطلح « السلام الرومانى » **ولكن الحقيقة المرة، المؤلمة ، « هى أن الرومان فرضوا سلامًا معينًا ، فى فترة معينة لأسباب معينة »** .

لقد كان السلام الرومانى هو سلام القوة والأقوياء ، لا سلام المستضعفين والضعفاء ، والسلام القائم على قوة السلاح ، لا السلام الأعزل ، والذى تنادى به اليوم - مثلاً - دول منطقة الشرق الأوسط وتستجْدى به القوتين العظميين فى أن يتفقا على إيجاد نوع من التسوية وأن يكونا ضامنَيْن لهذا السلام . لقد كان السلام الرومانى نتيجة طبيعية لسلسلة الحروب المتواصلة التى فرضت على روما تبعًا لطموحاتها العظيمة واستراتيجية التوسع التى انتهجتها منذ مطلع القرن الخامس ق.م . إنه ثمرة كفاح دام حوالى خمسة قرون من الزمان ، دفعت روما ثمنه غاليًا من أبنائها ورجالاتها وقادتها العسكريين الأفذاذ .

إن نظرة فاحصة لتمثال السلام (STATUA PACIS) لتؤكد تلك الروح الجديدة فى عهد أوغسطس . وذلك لأن إقامة مثل هذا التمثال فى ميدان إله الحرب له دلال واضحة وكيف أن السلام هو الذى يكسب فى آخر المطاف ، ولكنه لايدوم إلا فى ظل القوة المسلحة . إن موضوع التمثال يزيدنا إيمانًا بأن الزعامة الرومانية هى التى موّلت وأنفقت الأموال على إقامة هذا التمثال الذى عكس فكر وفلسفة السلام لدى القيادة الرومانية وماهية ذلك السلام فى نظرها. لقد صور الفنان الرومانى مدينة روما كإلاهة تجلس فوق أكمة من الأسلحة المتنوعة ، وتتكئ بذراعها اليسرى على درع ، بينما تستند بيدها اليمنى على عمود به درع آخر مستدير ، هو

الدرع الذى أهداه السناتوس باسم الشعب الرومانى إلى الإمبراطور أوغسطس ليزين به منزله على تل البلاتين[١] ثم رمز الفنان ، نحات هذا التمثال ، إلى سيادة روما العالمية ، على الشرق والغرب ، فقام بنحت كرة أرضية (Terrarum Orbis) ووضعها أمام الإلهة روما ، وأضاف عنصراً آخر له دلالته العظيمة ، بعد أن أوضح سيادة السلام القوى الذى يعم العالم أجمع ، وهو أن نحت مذبحًا صغيراً مستقلاً ، أمام التمثال وضع عليه إناء تقديم القرابين المقدس (Cornucopiae) والذى كانت تُوضع فيه كل الخيرات الطبيعية ، وذلك تقربًا إلى الإلهة .

هكذا تمثلت أمامنا كل معالم السلام الرومانى وفلسفته **إنه السلام ... القوى .... العالمى ... الخيِّر ، أى الذى سيفى وسيعود على الإمبراطورية بالخير العميم .**

والجدير بالملاحظة أن هذا السلام المعين ، استطاع الرومان أن يفرضوه على العالم ، فى الوقت الذى كان يناسبهم ويتفق مع ظروفهم . هنا يقول رستوفتزف :

" إنهم كانوا (أى القادة) فى مسيس الحاجة إلى السلام ولكن على أن يكون السلام للدولة الرومانية "[٢] .

نعم ، لقد كان القادة الرومان وجنودهم قد وصلوا إلى درجة من الإرهاق الشديد فى الشرق والغرب ، ولم يعد هناك من أسباب الفتح الخارجي ما يقتنع به الشعب الرومانى قد يجعله يساند عملية استمرار بقاء كل تلك الجيوش فى الخارج وما يستدعى ذلك من زيادة فى أعباء الدولة الرومانية واستمرار عملية التزيف للشباب الرومانى وأخذ وتجنيد الفلاحين مما أصبح معه القمح الرومانى - من إيطاليا نفسها - أغلى بكثير فى تكلفة إنتاجه ، مما يستورد من الخارج حقيقة الآن أن الأوان آن أن يستريح الجميع قادة وجنوداً ليجنوا ثمار سنوات الحرب والقتال والتوسع ، إن هؤلاء كانوا هم أول المستفيدين من السلام الرومانى ، سواء من استمر منهم عاملاً فى الجيش الرومانى ، أم من خرج بعد إنهاء خدمته فيه ، لأن أوغسطس أجزل لهم العطاء فى الحالتين .

---

١ - حول هذا الدرع الأخير نَسَجَ الشعب الرومانى أساطير ، منها أن إلاهة النصر هى التى جاءت به ووضعته فى يد الإلهة « روما » بعد أن حلّقت به فى السماء .

٢ - المرجع السابق ، ص ٧٠ .

سياسة أوغسطس الاقتصادية :

إنه بالرغم من الازدهار الاقتصادى الناتج عن الاستقرار العام فى جميع أرجاء الإمبراطورية، إلا أننا يجب أن نقرر حقيقة تاريخية وهى أن أوغسطس لم تكن له سياسة اقتصادية واضحة ولكن أسلوب إدارته فى هذا المجال كان يقوم على تدعيم ما هو كائن أصلاً ويراه صحيحًا سليمًا وإعادة تنظيم لما يراه غير كافى أو لا يحقق أهداف ومصالح الشعب . وهى سياسة قوامها : التوفيق بين الأوضاع الراهنة القائمة ، ويحاول جاهداً أن يُدخل بعض التغيرات الطفيفة ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، مدفوعًا ، ربما بأسباب سياسية أو أخلاقية ، مثلما الحال فى القوانين التى أصدرها لحماية صغار الملاك من بطش الطبقة الأرستقراطية (الإقطاعيين) ، كما عرفنا ذلك من أشعار هوراتيوس (Horatius) فى قصائده (Odes) وكذلك عندما أصدر قوانين الحد من البذخ والإسراف : (Leges Sumptuariae) .

وخلاصة القول أن سياسة أوغسطس الاقتصادية يمكن اعتبارها سياسة « دع الأمور تجرى فى أعنتها » – وهو المثل المقابل للمذهب الاقتصادى القائل (Laissez passer, laissez faire) ، ولكن إيطاليا – وهذا أمر طبيعى – أصبحت هى المركز الأساسى لكل أنواع النشاط التجارى مما عاد بالفائدة العميمة العظيمة على إيطاليا وسكانها ، بالدرجة الأولى ، وأصبحت مظاهر الثراء والبذخ واضحة ، مما حدا بأوغسطس لأن يخاطب ويرجو الشعب بعدم الإسراف .

وعمومًا ، فإننا نفضل أن نعرض صورة للوضع الذى كانت عليه الحياة الاقتصادية آنذاك ، حتى ولو بإيجاز شديد .

أولاً : الزراعة :

لم تؤثر الحروب الأهلية فى إيطاليا القديمة على مجريات الحياة الزراعية ، لأنها من الأنشطة التى لا تتطور بسهولة أو تتقدم بسرعة ، ولكن التأثير الحقيقى – كما قلنا آنفًا – كان علي إنتاجية الأرض وما تغله من محاصيل . وجدير بالذكر فى هذا المجال أن السياسة العقارية لم يطرأ عليها أى تغيير جوهرى :

فكانت الضياع الكبيرة (latifundia) ، تزداد مساحة ، وذلك على حساب صغار الملاك ، كما ظهرت الملكيات المتوسطة وزادت أهميتها الانتاجية بعد استخدام الأسس العلمية فى زراعتها ، وكان أصحابها فى الغالب من المحاربين القدماء الذين أخذوا هذه الأرض كنوع من

الهبات الحكومية - بعد تسريحهم من الجيش - منذ عهد سوللا (Sulla) وبومبي (Pompeus) وقيصر (J. Caesar) وأوغسطس (Augustus) .

إن أفضل صورة لإحدى الضياع والهبات هى التى جاءت عند شاعر العصر الأوغسطى هوراتيوس (Horatius) والذى كان مَايْكيناس (Maecenas)[١] قد أعطاه إياها ليعيش من ريعها وجاء وصفها كالتالى : تنقسم المزرعة إلى قسمين :

القسم الأول : مزرعة نموذجية يديرها المالك ، وهو هنا الشاعر هوراتيوس ، الذى لم يكن يقيم فى مزرعته بل فى العاصمة روما ، ويدير له هذه المزرعة ثمانية عبيد ، يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدون غلتها .

القسم الثانى : وكان موزعًا إلى خمس مساحات ، كانت كل مساحة منها تؤجر إلى عائلة من المزارعين (Vilici) الأجراء الذين ربما كانوا - يومًا ما - أصحاب تلك الأرض الأصليين ، فيزرعونها عندئذ لحساب المالك الجديد ، هوراتيوس .

أما عن المحاصيل والنباتات التى تزرع فى هذه المزرعة فإننا نجد الفواكه والخضروات ، التى تزرع فى جزء من المزرعة النموذجية ، أما الجزء الأكبر فكان للغلال ، قمحًا كان أم شعيراً ، وحيث توجد الغابات والحشائش ، كانت الأغنام والماعز والثيران والخنازير ترعى عليها .

كان هذا النوع من الضياع الواسعة موجوداً فى وسط إيطاليا ، وهناك أشباه لها فى مناطق ستابياى (Stabiae) ، وبومبيوم (Pompeum) وكذلك هركولانيوم (Herculaneum) التى كان بها أماكن للسكنى مريحة ، وهو ما يعرف باللاتينية باسم فيلا (Villa) ، وهى المنزل الريفى ... ولكن أصحابها هنا - بخلاف الآخرين كانوا يسكنون فى نفس مناطق مزارعهم ، ولا يديرونها من روما ، من خلال عبيد ، كما كانت تفعل الطبقة الطبقة الأرستقراطية من رجالات السناتوس أو طبقة الفرسان .

وجدير بالذكر أن نضيف مزارع إقليم كمپانيا (Compania) وڤيلاتها ، حيث كانت الضياع فيها تشبه ضيعة هوراتيوس فى كثرة المخازن وانتشار المراعى .

إن أهم إضافة إلى أوضاع الزراعة والمزارعين فى عهد أوغسطس هى قراره بفرض ضريبة عقارية على الشركات بنسبة ٥٪ ، وكان النبيذ وزيت الزيتون من أهم المنتجات الزراعية ، وكان مسموح بتداولهما وبيعهما فى السوق الحرة .

---

١ - كان الرجل الثالث فى عهد أوغسطس - بعد أجريبا - وزوج إبنة الإمبراطور الكبرى .

وفى ضوء الدليل الأثرى المتوافر لدينا - حتى الآن - نستطيع أن نصور حياة المزرعة الرومانية فى عدة نقاط :

(أ) وجود آلاف العبيد (Servi) والثيران (Vacae) والمحاريث الزراعية (aratra) .

(ب) وجود منازل كثيرة لإقامة هؤلاء العمال المأجورين (Vilici) . فكانت هذه المنازل القروية أشبه « بالعزبة » - فى مصرنا الحديثة - حيث الدور الحقيرة ، ذات الطابق الواحد ، والمبنية من الطوب اللبن ، مع وجود منزل كبير علي مستوى أرقى ، على نظام الڤيلا (Villa) لصاحب العزبة أو المزرعة .

(جـ) وفى ضوء الدليل الأدبى ، نجد أسفًا كبيراً على ماضى إيطاليا القديمة ، إذ هاجر المزارعون إلى كنف ملاك الأراضى ، وتزايدت أعداد العبيد والموالى ، وتحول المزارعون إلى مستوطنين (Coloni) ، واختفائهم الذى أصبح موضوعًا يوميًا على ألسنة الملاك كما نقرأ ذلك عند هوراتيوس (Horatius) .

(د) لم يحدث أن تدخل أوغسطس فى قوانين الأراضى والعقارات - إلا ما ذكرنا آنفًا - كما كان ذلك ظاهرة متكررة من ظواهر الحرب الأهلية ولم تكن القيادة السياسية على يد أوغسطس على استعداد أن تعيد إلى الأذهان فترات الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار .

ثانيًا : التجارة :

للتجارة ميدانان ، أحدهما فى داخل البلاد ، والآخر خارج البلاد ، أى هناك تجارة خارجية بين الإمبراطورية وبلدان أخرى وتجارة داخلية بين ولايات الإمبراطورية بعضها ببعض وبينها وبين روما .

(١) التجارة الخارجية :

التجارة الخارجية ، حياة مستمرة وحركة دائبة ، لابد لها من مقومات لنجاح ، أولها وعلى رأسها جميعًا ، الاستقرار[١] - كما قلنا سابقًا - ونعنى به استقرار الأوضاع السياسية خارجيًا وبالتالى داخليًا ، فيستقر المواطن ويطمئن إلى قيادته ويثق فى إجراءاتها مما يجعله ينشط ولا يدخر وسعًا طالما أن ذلك سيعود عليه بالفائدة المباشرة ، وهكذا يضمن يومه وغده فعم السلام ، وبدأت حركة العمران والتبادل التجارى .

---

١ - وهو ما تسعى إليه حكومتنا الرشيدة طيلة السنوات الماضية مما انعكس إيجابيًا على الوضع الاقتصادى المصرى وتحسن الأداء .

كانت الإمبراطورية الرومانية فى عهد أوغسطس قد مهدت لإنجاح النشاط التجارى فى أحسن صورة للأسباب الآتية :

١ - هيمنة الإدارة المركزية - فى روما - على أحوال الإمبراطورية فى الداخل والخارج ، فكان الجيش الرومانى بمثابة صمام الأمن والأمان فى كل مكان .

٢ - استخدام الطرق الحربية فى الاتصال والمواصلات مما ساعد على نشاط حركة التبادل التجارى .

٣ - فتح أسواق جديدة فى شمال إيطاليا ، فى الولايات الجديدة مثل الغال وأسبانيا وإفريقية .

٤ - تأمين الملاحة البحرية فى كل حوض البحر المتوسط ، ضرقه وغربه ، بفضل قوة الأسطول الرومانى .

٥ - إعطاء الفرصة للمدن اليونانية ، مثل كورنثا (Korinthos) وقرطاجة ، لممارسة نشاطها التجارى من جديد .

وإليك قائمة بأهم البضائع التى كانت ضمن سلع التبادل التجارى مع الإمبراطورية الرومانية، وسنذكر كذلك مصادر انتاجها .

(أ) الصفيح من أسبانيا .

(ب) الكهرمان وبعض الفراء والعبيد من ألمانيا .

(جـ) القمح من جنوب روسيا إلى اليونان .

(د) البلح من بدو الصحراء الكبرى وشراء العبيد الزنوج والتوابل .

(هـ) العاج والأخشاب الثمينة والذهب والمواد العطرية ، وكلها سلع تمثل تجارة مصر مع إفريقية وبلاد العرب حيث حصلت روما على التوابل والعطور والجمال والأحجار الكريمة .

ويجب ألا ننسى أن معظم الأثمان للسلع المباعة فى أسواق الشمال كانت سلع أخرى قادمة من الشمال ، أى أن التبادل التجارى كان يتم عن طريق المقايضة - فى أغلب الأحيان - وبصفة خاصة تجارة الزيوت والنبيذ والسلع المصنعة ، ولكن أثمان البضائع الشرقية فكان بعضها نقداً ، بعملات ذهبية أو فضية ، كما يذكر ذلك بلينيوس ، وكما كان يحدث مع

البضائع الشمالية فى الغالب ، فإن الثمن ، هنا كذلك ، كان عينًا من بضائع تم إنتاجها فى مدن الإمبراطورية ، مثل الإسكندرية ، وللأسف لم تكن التجارة الخارجية هذه ، كما عرفنا - مزهرة إلا فى بضائع الترف وبالتالى لم تكن ذات أهمية حقيقية بالنسبة للحياة الاقتصادية فى بلدان وولايات الإمبراطورية الرومانية .

(٢) التجارة الداخلية :

ويفهم منها - كما أوضحنا سابقًا - أنها عمليات التبادل التى تتم بين ولايات الإمبراطورية بعضها البعض ، سواء تلك التى تخضع للسناتوس أو للإمبراطور .

ويلاحظ أن أهم السلع التى كانت تتبادلها الولايات فيما بينها كانت النبيذ وفخار أريتيوم (Arretium) من إقليم إتروريا (Etruria) بوسط إيطاليا ، والذى انتشرت شهرته فى القرن الأول ق . م ، كأفضل أنواع الفخار الملون لدرجة أنه تم العثور عليه - أى على بعض نماذجه فى إفريقية . أما الفخار السيجيللاتى Terra Sigillata) فكان ذا لون أحمر لامع ومصقول ، ويقلد الأنماط المعدنية سواء الملونة أو غير الملونة .

ولاشك أن قصة تريمالخيو (Trimalchio) تؤكد بوضوح مدى الثراء الهائل من جراء تجارة النبيذ[١] .

---

١ - صوّر لنا بترونيوس أحد رفاق الإمبراطور نيرون (Nero) فى عمله ، ... الذى وصل إلينا باسم «مائدة تريمالخيو » (Cena Trimalchionis) وكيف أنه بدأ حياته عبداً عزيزاً على سيده ، وضحك له الحظ فورث سيده واستثمر أمواله فى تجارة النبيذ وكون ثروة طائلة .

To: www.al-mostafa.com

ماريوس ، عندئذ بدأت دكتاتورية سوللا الدموية[١] أى عام ٨٢ ق.م . وفرضت مظاهر الإرهاب الجماعى نفسها على الساحة الرومانية متمثلة فى :

- حمامات الدم والإعدام لأعدائه ومعارضيه بالآلاف .

- الإمعان فى التعذيب النفسى ، حتى لأعضاء مجلس السناتوس ، حيث يروى بلوتارخوس كيف أن أصوات المعذّبين كانت تصل عبر الجدران إلى مسامع أعضاء مجلس الشيوخ فى أثناء انعقاد جلساتهم .

- الإعلان عن قوائم بأسماء الأملاك المصادرة وأسماء أصحابها فى السوق العامة (الفوروم: Forum) . وكانت هذه القوائم تُعرف باسم بروسكريبتيونز « Proscriptuones » وتُرصد المكافآت المجزية للذين يقومون بالقضاء على أصحابها وقتلهم !!!) .

ويُقال ، وفقًا للروايات اللاحقة ، أن تلك القوائم شملت :

- ٩٠ (تسعين) عضواً من السناتوس كانوا يعارضون سوللا .

- ١٢ (اثنى عشر) قنصلاً سابقًا من معارضيه .

- ٢٦٠٠ (ألفين وستمائة) من رجال الفرسان (equites) من الطبقة الوسطى .

- حرمان أبناء الضحايا من تولى المناصب العامة والوظائف الإدارية .

وبعد كل هذا ، وتلك المقدمات الدموية ، والتى لا تبشر بأى تحول فى سلوكيات ذاك القائد الدكتاتور ، **تُفاجئ بتخليه عن سلطته تلك عام ٨١ ق.م ، ثم قراره بالاعتزال (!!) التام عن سلطاته فى سابقة تاريخية ليس لها مثيل فى كل التاريخ الرومانى القديم** ، وموته عام ٧٨ ق.م . ومن المؤكد حتى الآن أننا لانعرف سببًا واحداً جوهريًا لمثل هذا التحول الكبير ، من النقيض إلى النقيض لتلك الشخصية الغامضة (!!!) .

ثالثًا : الحملة الرومانية على الشرق بقيادة بومبى :

(أ) الحملة وأهدافها : كان الهدف منها أساسًا هو القضاء النهائى على قراصنة البحر المتوسط ولاسيما فى كيليكيا ، وبالرغم من أن روما كانت قد جردت عليهم حملات وجيوشًا

---

١ - يذكر الأستاذ الدكتور سيد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، : « تعجّل كاربو (مرشح العامة مع ماريوس لقيادة الحرب الأهلية ضد سوللا) نهايته ، فترك المعركة وهرب إلى موريتانيا ، بالرغم من أنه كان يستطيع - لو صمد (!!!) أن يهزم سوللا ، وإنقاذ روما من ديكتاتوريته الدموية » . ولكن من كان يدرى !! .

فى ١٠٢ ، ٧٧ ، ٧٤ ق.م، إلا أنها جميعًا لم تقض على أولئك قضاءً مبرمًا وكان القراصنة قد خرّبوا ميناء ديلوس اليونانى (Délos) - فى منتصف البحر الإيجى - فى عام ٦٩ق.م ، وأغاروا على الموانئ الإيطالية مثل برندبزى (Brindisi) كما قطعوا الطرق التجارية البحرية التى تنقل خلالها السفن القمح والغلال إلى روما ، ولهذا كان حتميًا ضرورة القضاء التام على هؤلاء فى قاعدتهم الجديدة فى جزيرة كريت وخرجت إليهم حملة رومانية فى عام ٦٨ ق.م، ولكنها للمرة الرابعة لم تسكت أوكارهم ، فكان من المستحيل تجاهل خطرهم المتزايد يومًا بعد يوم .

هنا فقط تقرر إيفاد بومبى عام ٦٧ ق.م، قائداً عامًا على رأس جيش كبير ، يتألف من ٥٠٠ سفينة وحوالى ١٠٠٠٠٠ مقاتل ومتمتعًا بسلطة حربية مطلقة (Imperium Infini-tum) لمدة تستمر ٣ سنوات ، وبحق لصاحبها (لأول مرة) ترشيح ١٥ - ٢٤ ضابطًا مساعداً (legati) وكل هذه السلطة والصلاحيات توضح بجلاء أهمية المأمورية الموكلة إلى القائد العام بومبى . كما ساعد الحظ بومبى كذلك عندما صدر قانون مانيليوس (Manilius) ، أحد الترابنة (نقباء العامة) فى عام ٦٦ ق.م بإسناد حكم ولايتى بيثينيا وكيليكيا وقيادة الحرب فى آسيا الصغرى كذلك ضد مثراداتيس وحليفه تجرانيس إلى بومبى[١] . هكذا أصبح فى يد بومبى سلطة عسكرية ليس لها مثيل فى التاريخ الرومانى ، كما أن تلك القيادة فى الشرق تركت آثاراً كبيرة ، تعتبر بحق تحول من الدستور الجمهورى إلى الدستور الإمبراطورى .

نجح بومبى ، أخيراً ، فى القضاء على مثراداتيس عام ٦٦ ق.م ، وعلى تجرانيس فى أرمينيا . وفى ٦٥ ق.م ، قضى هذا العام فى إخضاع الألبانيين حول بحر قزوين (caspium mare) كما استولى على دمشق (Damascus) فى سوريا ، وعاد إلى آسيا الصغرى عام ٦٤ ق.م ، فأعاد تنظيم شئونها واتجه مرة ثانية إلى سوريا عام ٦٣ ق.م ، لإعادة الأمن إلى أرجائها وواصل سيره حتى مملكة يهوذا (Iudaea) فى فلسطين واستولى على أورشليم مع نهاية عام ٦٤ ق.م، وكان ذلك بداية للصراع الطويل بين روما واليهود فى فلسطين . وعاد بومبى فى ٦٢ ق.م إلى آسيا الصغرى فنظم شئون شرقها وشمالها . وكانت له أساليبه فى إدارة الممالك الجديدة التى فتحها :

---

١ - وكان هذا هو الاقتراح الذى أيده شيشيرون (Cicero) فى خطبته المعروفة باسم " Manilia أو "Pro lege De Imperio cn. Pompei ") وقد ألقى شيشيرون ، الفيلسوف الرومانى الكبير ، تلك الخطبة على المواطنين الرومان فى اجتماع شعبى عام ، وذلك تعضيداً لبومبى ولصداقته له .

أ - أدمج بعض الولايات الجديدة مثل سوريا وكريت إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية ، وذلك لاعتبارات أمنية عسكرية .

ب - وانتهج السياسة الرومانية التقليدية فترك الإدارة فى أيدى أمراء وقواد البلاد الأصليين التابعين لروما .

جـ - وضع للولايات الجديدة والقديمة على السواء دساتير خاصة بها ، وظلت هذه الدساتير تحمل اسمه فى بيثينيا مثلاً ، حتى أوائل القرن الثامن الميلادى .

د - شجّع الحياة المدنية وفق الحضارة الهيللينية فى منطقة الشرق القديم ، فأنشأ حوالى ٣٩ مدينة فى آسيا الصغرى وسوريا ، وجمّع السكان من القرى للحياة فى تلك المدن .

هـ - فرض على معظم المدن الضريبة بما يعادل (عشر) محصول الأرض التى فى زمامها (decuma) وكانت نفس القيمة الموجودة قديمًا . أما الملوك والأمراء وكبار كهنة البلاد الواقعة على الجانب الغربى من الفرات ففرض عليهم جزية سنوية معينة (Stipendium) .

آثار حملة بومبى الشرقية على روما (النتائج) :

١ - زيادة كبيرة فى ثروات روما ، فقد وزع - بعد إنهاء حروبه - على جنوده ما يعادل (٣) ملايين جنيه ونصف ، ثم أودع حوالى (٤) ملايين أخرى فى الخزانة العامة لروما .

٢ - تضاعف دخل روما السنوى من الجزية .

٣ - تمتعت شعوب المنطقة - فى الشرق القديم - بسلام لم تشهده منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية .

٤ - تطهرت البحار من القراصنة وتخلصت سوريا من الفوضى .

٥ - زيادة هيبة روما فى الشرق .

٦ - يسّر انتشار الحضارة الهيللينية بإنشاء مدن حرة وإعطائهم الحكم الذاتى فى الشرق .

وبعد عودة بومبى إلى روما وتسريح جيشه عام ٦٢ ق.م، رأى أن ينهى مهمته نهاية موفقة، فتقدم إلى السناتوس بطلبين اثنين :

أولهما : أن يصدق السناتوس على قراراته الإدارية وتنظيماته التى أقامها فى الشرق .

ثانيهما : أن يعطى لحوالى ٤٠,٠٠٠ جندى رومانى من المسرحين أراضى زراعية .

وفُوجِئَ بومبى بحقد السناتوس عليه ، ورفضه لمطالبه وقيام جبهة معارضة فى السناتوس على رأسها لوكيوس وكاتو وكراسوس ، كما - أن المجلس أيضًا رفض بعض اقتراحات كراسوس فيما بعد حوالى ٦٠ ق.م، وعندما عاد قيصر (يوليوس قيصر) من أسبانيا فى يونيو عام ٦٠ ق.م، ولم يجبه السناتو كذلك إلى طلبه بدخول روما (دخول القائد المنتصر من الفتوحات الكبيرة فى أسبانيا ، ولم يقبل ترشيحه قنصلا لعام ٥٩ ق.م ، ساءت علاقات - كل هؤلاء القادة بمجلس الشيوخ . كون هؤلاء الثلاثة وهم كراسوس وبومبى وقيصر " الأتتلاف الثلاثى (Triumviri) ونجح قيصر فى تولى منصب القنصلية عام ٥٩ ق.م ، بمساعدة زميليه، وبدأ هو فى إرضائهما وتوطدت العلاقات بينهم أكثر فتزوج بومبى جوليا (يوليا Iu-lia) ابنة قيصر . ولكنهم لم يستريحوا حتى انتقموا من أعدائهم وبصفة خاصة شيشرون وكاتو اللذان أيدا السناتوس فى كل خطواته ضد هؤلاء القادة الثلاثة . فتم نفى شيشرون إلى خارج البلاد ، وتخلصوا من كاتو بإرساله إلى قبرص فى مهمة ظاهرها مصلحة روما ، وباطنها إبعاده عن روما لأكبر مدة ممكنة .

رابعًا : فتح بلاد الغال (فرنسا) :

ضم الرومان " غالة البعيدة " إلى أملاكهم فى عام ١٢١ ق.م، وقد وقفوا إلى جانب بعض القبائل هناك وأيدوها فأحرزت النصر على بقية القبائل ولكن لم يدم ذلك طويلاً ، فتبادلت الزعامة بعض هذه القبائل ولم تستقر الحال أبداً فى تلك المناطق الشمالية .

وعندما استنجدت إحداها بقيصر ، خرج على رأس فرق رومانية وحقق النصر على الهلفيتى (Helveti) [١]ولكنه لم يحقق عليهم نصراً نهائيًا ، وفى عام ٥٨ ق.م ، استطاع أن يهزم الجرمان هزيمة ساحقة .

خامسًا : ضم البلجيك إلى حظيرة روما :

وفى ربيع ٥٧ ق.م ، استطاع قيصر كذلك - بعد تعزيز قواته بفرقتين جديدتين - أن يهزم قبائلهم وفى مقدمتها قبيلة نرفئى (Nervii) وأرغمهم على الاستسلام ، وباع رجالها فى سوق الرقيق . إلا أنه عاد فى عام ٥٦ ق.م ، وأدب قبيلة ڤنيتى (Veneti) التى تزعمت الثورة ضد الرومان وسحق مقاومة قبائل نورماندى ، ثم دخل مع الـ (Veneti) فى معركة فاصلة فى المحيط الأطلسى ، حطم فيها سفنهم وأسر بعضهم وقتل زعمائهم وباع بقية السكان فى سوق الرقيق .

---

١ - عن بقية القبائل ، راجع . Caesar, Bellum Gallicum, 1, 29

سادسًا : غزو ألمانيا وبريطانيا :

وقف قيصر فى عام ٥٥ ق.م ، مرقبًا يقظًا من تحركات القبائل الجرمانية صوب الغرب ، وعندما تأهب لملاقاتهم عرضوا عقد هدنة ولكنهم خرقوها هم أنفسهم ، فلم يقبل منهم قيصر أى اعتذار وأسر زعمائهم وشتت شمل جماعتهم ، بل وأباد منهم بوحشية عدداً كبيراً[١] .

وفى عام ٥٤ ق.م ، عبر قيصر دوفر (Dover) والتقى بالقوات المعادية ، فى بريطانيا ، والتى كان يتزعمها زعماء « كنت » (Cint) قد أعدوها ، فانتصر عليهم ، بالقرب من كنتربرى كما تمكن من إخضاع ملك المنطقة الواقعة شمال نهر التيمز ، وفرض عليه شروطه ودفع الجزية للرومان .

سابعًا : ضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى :

أما ضم مصر إلى الدولة الرومانية فإنه تأخر قليلاً وإن كانت روما قد جعلت من نفسها وصية على الحكام البطالمة منذ بداية القرن الثانى ق.م، .. ولكنها تدخلت صراحة وأعلنت وصياتها عليها أمام العالم القديم ، عندما أرسلت أعظم قادتها فى عام ١٦٨ ق.م، وهو پوبليوس لايناس (P Laenas) وكيف أذل هذا القائد الرومانى الملك السورى (المقدونى) ، أنتيوخوس الرابع ، الذى جاء طامعًا فى مصر وخيراتها ، فما كان إلا أن أرسلت روما له تخيره بوجودها وأنها هى صاحبة النفوذ الحقيقى فى تلك المنطقة من العالم ، وإن لم تكن قد ضمتها فعلاً إلى حظيرة ممتلكاتها الخارجية .

وظلت روما تراقب عن كثب الصراعات الأسرية على العرش البطلمى حتى أوصى يوارجيتيس الثانى ببرقة إلى الشعب الرومانى عام ١٥٥ ق.م نكايةً في أخيه فيلوميتور ، ملك مصر ، وجاء من بعده ابنه عام ٩٦ ق.م، فلم تترك روما فرصة هذه الوصاية ، هذه المرة ، وهكذا تكون قد اقتطعت جزءاً من أملاك مصر الخارجية ودونما حرب أو أى مجهود من جانبها .

وإنه لولا انشغال روما بحروبها الخارجية من ناحية ، وبمشاكلها الداخلية ومحاربة الإيطاليين من ناحية أخرى ، هذا ، فضلاً عن وصول الرشاوى والهدايا البطلمية بانتظام إلى قادة روما حيث يقيمون ، لكانت قد استولت على مصر منذ وقت بعيد ، أى قبل عام ٣٠ ق.م، بوقت طويل .

---

١ - يقدم قيصر تبريراته لهذا الفعل الذى انتقده عليه بشدة كاتو الأصغر ولكن السناتوس احتفل بذلك النصر عشرين يومًا . Bell . Gall., IV 4 - 13 .

لقد كانت الحرب الأهلية الإيطالية ، بين زعماء الرومان وقادتهم المشهورين أمثال بومبى وكراسوس وقيصر من أهم عوامل تأجيل قرار البت فى المسألة المصرية ، وبالتالى دخول الرومان مصر ودخول الفاتحين ، كما حدث فى ٣٠ ق.م .

لقد وصل الأمر بقيصر فى عام ٤٨ ق.م ، وبعد انتهاء معركة فارسالوس بينه وبين پومپى، أن نظر إلى ساحة المعركة المليئة بالقتلى من أعدائه قائلاً (١):

" لقد أرادوا ذلك . ولو لم أستعن بالجيش عليهم ، لقضوا علىّ أنا نفسى بالموت ، برغم ما قمت به من أعمال جليلة " .

حقًا لقد فُرِضَ القتال على قيصر ولم يكن أمامه خيار إزاء تكتل الأرستقراطيين ومعهم حليفه القديم ، پومپى ، كما حاول قيصر جاهداً أن يتفاوض معهم ولكنهم كانوا قد أعدوا العدة للقائه ... وكان النصر حليف قيصر فى النهاية ، فأصبح دكتاتور إيطاليا كلها وواصل تعقب پومپى حتى وجده في مصر مقتولاً على أيدى أحد الضباط الرومان المأجورين لصالح الملك البطلمى الصغير ، بطليموس الـ ١٣ أثناء صراعه مع أخته كليوباتره السابعة على العرش ، فما كان منه ، وهو القائد الرومانى الكبير ، إلا أن حَزِنَ (!!) أشد الحزن على غريمه السياسى ، وإن كان ذلك الصراع قد أخذ شكل الاقتتال والحرب .

وشاءت الأقدار أن يعاصر قيصر فى مصر الصراع داخل البيت البطلمى الواحد ، ويحاول التوفيق بين الأخ وأخته ، ولكن تندلع الحرب المشهورة باسم حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) ويتحرج موقف قيصر فى الإسكندرية ، ويموت الملك البطلمى الصغير غرقًا وتحدث خسائر كبيرة فى قوات قيصر نفسه كما تُدمَّر دار العلم (Museion) والمكتبة (Bibiothéké) والمسرح ومدافن الأسرة المالكة(٢) .

---

١ – Suet. Div. Iul. 30 : " Hoc voluerunt, tantus rebus gestus Gaius Caesar condemnatus essem nisi abexercitu auxilium petussem " .

٢ – بل ربما كان موجوداً كذلك قبر الإسكندر (séma) لأنه لم يتم العثور عليه حتى الآن فى نفس الحى الملكى الذى يتاخم الميناء الكبير الشرقى . يقدر عدد لفائف البردى التى احترقت حوالى ٤٠,٠٠٠ (Biblia) كانت مودعة بالمكتبة لتصديرها إلى الخارج ، بالإضافة إلى ما كان موجوداً بالفعل ، ويقدر بحوالى ٧٠,٠٠٠ مخطوطًا . إن موضوع قبر الإسكندر الأكبر ، هو من أكثر القضايا الأثرية القديمة حيرة للعلماء والباحثين . حول أحدث النظريات ، راجع كتابي « قبر الإسكندر الأكبر : احتمالات موقعه وشكله (دراسة تاريخية أثرية) ، القاهرة ١٩٩٠ . والناشر هو المؤلف نفسه . وقد تم تسجيل الكتاب فى هيئة الآثار المصرية كإحدى نظريات الكشف عن المقبرة اللغز ، والتركيز علي احتمالية وجودها فى المنطقة الواقعة من أسفل التل الترابى الصناعى " تل كوم الدكة " وحتى آثار المسرح الرومانى ، وليس فى مسجد النبى دانيال .

وانتهت معارك (المعارك) واستسلم الإسكندريون بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا إلى جانب قوات الملك البطلمى الصغير ، وصار قيصر الإسكندرية هو المنتصر ، وقد صفح عن أهلها ، ونقل إلى سبب البلاء الكبير ، كليوپاترا ، نبأ وفاة أخيها ، وأرسل أختها العنيدة أرسينوى إلى روما لتلقى جزاء عداوتها للرومان .

ولاستكمال مشوار الدولة الرومانية وبداية عهد الإمبراطورية على يد أوغسطس (أوكتافيانوس) فى ٢٧ ق.م ، (بعد أن قضى على غريمه أنطونيوس فى موقعة أكتيوم البحرية ٣١ ق.م ، وانتحار كليوپاترا فى الإسكندرية ودخول مصر حظيرة الإمبراطورية الرومانية) انظر الباب الثالث حيث تقدم إليك ، أيها القارئ الكريم ، دراسة تفصيلية عن أحوال الإمبراطورية الرومانية قبل وبعد عام ٣٠ ق.م، وكذلك نعرض لأهم إنجازات الإمبراطور الأوحد أوْجوستوس (Augustus) - كما يجب أن تنطق باللاتينية - وتقييم علماء التخصص لعصره .

"وعلى الرغم من ذلك فانه على ما يروى على ارسطوبولس كان يميل الى النزول عن نصيحتهم او على الاقل الى تغيير اتجاهه ابان دخوله المدينة"[1].

الا ان الاسكندر اصر على دخولها بايعاز ونصيحة بعض حكماء اليونان الذين قالوا له بان التنجيم ما هو الا ضرب من الوهم وليس له اساس علمي[2] "وشق الاسكندر عصا الطاعة على الإله بعل، طوعا تارة وكرها تارة اخرى"[3] دخل الاسكندر بابل ولم يلاق فيها حربا "بل تم استقباله بالترحيب والمفاخرة بعد ان سلمه الحاكم الفارسي مفاتيحها ، وانتهج الاسكندر سياسة لينة ومتسامحة مع السكان على غرار ما حصل عند دخوله مصر"[4] .

وتجدر الاشارة الى ان مازايوس كان قد هرب بعد انكسار جيشه في كوكميلة وتذمره من سيده الذي لا يصلح أن يكون قائدا او ملكا وقد عامل الاسكندر حاكم المدينة وأهلها كما سبقت الاشارة الى ذلك معاملة حسنة[5] واتخذ جملة من الاجراءات منها ابقاء مازايوس كحاكم على مدينة بابل اسميا وقام وقام بتعيين قائدا عسكريا على المدينة الحق به جابيا ماليا وهما من اصل يوناني كما الغى جميع القرارات المجحفة السابقة التي كان الملك الفارسي قد فرضها في حكم المدينة[6] . والتي نالت من التقاليد القومية للبابليين منذ سقوط دولتهم عام 539 ق.م وقد منح مازايوس ايضا حق سك العملة "وكان هذا الحق من اخص سمات السيادة الملكية ويظهر ان ذلك كان من قبيل تسيير التجارة البابلية ومراعاتها اذ انها كانت تمثل وقتئذ تجارة العالم المتحضر"[7].

كما ابقى الاسكندر على الالهة البابلية بل ونجده يبدي احتراما وقدسية خاصة للديانة البابلية وتقاليدها وذلك بأن اعاد بناء جملة من المعابد البابلية التي دمرت في عهد الملك الفارسي ارتحششتا[8].

6. استمرار الزحف المقدوني صوب الشرق والعودة الى بابل :

بعدما تسنى للاسكندر احتلال بابل والسيطرة عليها اصبح الطريق امامه مفتوحا لمواصلة حملته واخضاع المناطق والبلدان الاخرى جهة الشرق . وهنا تبرز أهمية مدينة بابل وموقعها الاستراتيجي

(1) المصدر نفسه ، ص285.
(2) رستم ، اسد ، المصدر السابق ، ص41.
(3) اريان ، المصدر السابق ، ص285.
(4) باقر ، طه ، المقدمة ، ج2 ، المصدر السابق ، ص 445.
(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص80-81.
(6) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص421-422.
(7) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81.
(8) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص422.

بينها وبين الشرق الاقصى فهي البوابة التي يمكن للغازي ان يطل من خلالها على الشرق البعيد الذي اذا ما سيطر على بابل بامكانه السيطرة واخضاع الشرق برمته ونظرا لاهميتها فقد اولاها الاسكندر عناية فائقة حيث ادمجت بابل في مخططات الاسكندر ليتخذها عاصمة للعالم القديم فيما بعد ولتحقيق طموحاته واصل الاسكندر حملته هذه اذ كانت سوسة وبرسيبوليس المدينتان الفارسيتان محطتي الاسكندر بعد بابل[1].

فبعد خروجه من بابل توجه الاسكندر نحو مدينة سوسا حيث سيطر على قلعة المدينة واستولى على كنوزها وعين عليها واليا فارسيا واتجه بعد ذلك نحو مدينة برسيبوليس التي غنم منها مئات الالوف من الوزنات من الذهب والفضة[2] .

واصل الاسكندر حملته العسكرية ملاحقا الملك الفارسي دارا الثالث وقواته الذي بعد هزيمته في اربيلا التجأ الى اكبتانا، فلحقه الاسكندر الى هناك في اوائل سنة 331 ق.م من برسيبوليس ولكنه وجد ان الملك قد هرب الى مقاطعات القزوين فتبعه الى هناك مسرعا[3] وكان دارا قد استعد لملاقاة الاسكندر في معركة اخرى ، الا ان الاسكندر لم يسعفه الحظ في مواجهة دارا ذلك ان احد ضباطه القدماء تآمروا عليه وقتلوه[4] وكان ذلك في باكتريا بعد ان وضع في الاغلال وبوفاته تكون قد انتهت اخر حلقة تربط الملك الفارسي بامبراطوريته ، ودخلت المنطقة في مرحلة تاريخية جديدة اصبح الاسكندر على اثرها ملك اسيا والمناطق التي احتلها ، بسط نفوذه على انحاء شاسعة من الشرق الاوسط والاقصى[5]. تابع الاسكندر حملته فاتجه نحو بحر قزوين ومنه الى شرق ايران وسار الى بكتريا ومنها الى ارتوكوانا (Artocoana) عاصمة اريا (Areia) وتوغل شرقا حتى بلغ افغانستان واجتاز جبال الهندكوش ونزل الى نهر جيحون (oxus) وتمكن من دخول مدينة قندهار بعد ذلك اتجه نحو الشمال وعبر ممر خاواكا وقد كانت مغامرة كبيرة لا تضاهيها الا مغامرة حنبعل القرطاجي عندما عبر جبال الالب في ظروف قاسية جدا واستولى في هذه الاثناء على ميراقنت (Miracanta) المعروفة باسم سمرقند اتجه بعد ذلك نحو جنوب نهر جيحون "حيث انشأ على ضفافه آخر اسكندرية على حدود العالم"[6] وتعرض الاسكندر في بلاد الصغد الى مؤامرات استهدفت حياته الا انها منيت

(1) المصدر نفسه ، ص422-423.

(2) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81.

(3) بترى ، أ، المصدر السابق ، ص58.

(4) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81-92.

(5) المصدر نفسه .

(6) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص 422-438.

بالفشل واعدم المتآمرون وغادر مدينة بكتريا في صيف عام 327 ق.م في طريقه الى الهند[1].

في نفس السنة اجتاز الاسكندر للمرة الثانية الهندكوش ثم عبر سهل كابول ، وعندما تقدم الى مدينة جهيلم وتقع غرب باكستان اصطدم باحد ملوك المنطقة المدعو بوروس وهو امير على مملكة بورافا في معركة ضارية تكبد فيها خسائر فادحة الا انه تمكن من تحقيق النصر[2]. توغل الاسكندر في سيره شرقا إلى الهيفاسيس (Hyphasis) وهو نهر بياس (Beas) الذي توقف عنده وانتهت مغامرته في الهند[3].

ولما كانت الهند خاضعة للسيادة الفارسية فان احتلالها من قبل الاسكندر يعني الاستحواذ على الامبراطورية الفارسية برمتها[4].

بدت الامور بالنسبة للاسكندر منذ عام 325 ق م على عكس ما كان يتوقعه وتسير في غير تحقيق مخططاته. فقد بدأ الجيش يبدي تذمره واستياءه من المعاناة والمشاق التي كابدها في حملته الشاقة والمضنية مع ازدياد شوقه وحنينه الى الوطن ولذلك رفض الانصياع لاوامر الاسكندر وابدى عصيانه وتمرده [5] . إذ لم يجد الاسكندر من بد الا الانصياع لرغبات الجيش ومن ثمة قرر العودة بعدما تمت المصالحة بينه وبين جنده وقد خطط الاسكندر طريق العودة برا وبحرا حيث سار هو بجانب الشاطئ المحاذي للخليج العربي في حين سلكت الرحلة البحرية طريقها بموازاة شواطئ باكستان الحالية ثم عبرت الخليج العربي[6] .

وفي هذه الاثناء كان الملاح المشهور نيارخوس والذي كان الاسكندر يعلق على رحلاته البحرية امالا كبيرة يقوم برحلة كانت بداية انطلاقها ميناء كراتشي من الخليج العربي وحط عند راس مسندم في بلاد العرب وقد دامت هذه الرحلة ثمانين يوما حيث التقى الجيش والاسطول عند نهر امانيس (Amanis) الذي تمت فيه احتفالات والعاب رياضية صاخبة بالمناسبة[7] .

وسارا الجيش والاسطول في مسيرة واحدة نحو مدينة سوسا فوصلاها في عام 324 ق م وفي المدينة اقيمت مهرجانات احتفاء بانهاء كيان الدولة الفارسية السياسي وقد حضر

(1) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص 81-92.
(2) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص422-438.
(3) المصدر نفسه .
(4) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص141.
(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81-92.
(6) المصدر نفسه ، ص81-92.
(7) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص422-438 .

الحفل عدد كبير من الجنود والضباط الذين اقام لهم الاسكندر حفل زواج جماعي من فارسيات من ذوي الطبقة الارستقراطية وقد تزوج هو نفسه ايضا من احدى بنات الملك الفارسي دارا الثالث[1].

ومثلت سنة 323 ق.م التاريخ الذي دخل فيه الاسكندر مدينة بابل للمرة الثانية والاخيرة بعد دخوله اليها عام 331 ق.م ، بعد ان أتم رحلته في الشرق الاقصى والهند وبدأ يستعد لتنفيذ جملة من المشاريع في عاصمة امبراطوريته الجديدة بابل[2].

7. بابل والمشروع العالمي للاسكندر :

"كان الاسكندر وقد جذبه بريق الحضارة الشرقية مفتونا بماضي بابل المجيد فقد اراد ان يجعل منها عاصمة الشرق وراح يحلم بربط بطولاته الملحمية بابطال التاريخ البابلي القديم"[3].

"ولقد صمم على ان يجعل بابل مركزا مهما في امبراطوريته لربط الغرب بالشرق وعزم على ربطها بطرق تجارية ليس بالهند وحسب بل بمصر بقنوات من البحر الاحمر والنيل حتى انه شرع في بناء ميناء عظيم"[4] لذلك .

لقد ارست الحملة العسكرية التي قام بها الاسكندر في جهات الشرق الاقصى والهند اهمية بالغة في فكره فقد خلقت لدى القائد المقدوني تصورا عاما وشموليا حول امكانية انشاء امبراطورية عالمية يكون الشرق والغرب منضويين تحت لواء حكومة مركزية واحدة مقرها مدينة بابل[5].

ولذلك نجده يقوم باجراءات مهمة فور وصوله بابل بعد رحلته الطويلة في الشرق[6].

وعول كثيرا على الرحلة التي كلف بها نيارخوس بوجوب القيام بها وهي رحلة لها فوائد واهداف كثيرة في نظره حيث تدخل ضمن خطة شاملة مرسومة مسبقا غرضها استكشاف الخليج العربي والمحيط الهندي ومعرفة أسهل الطرق البحرية التي يمكن بواسطتها ربط عاصمة الامبراطورية بابل في الشرق بالمدن الاخرى الواقعة في الغرب ، وقد بدأ نيارخوس بالتحضير لهذه الرحلة الاستكشافية بأن

(1) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81-92.
(2) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص422-438.
(3) روثن مارغريت ، تاريخ بابل ، ط1 ، ترجمة : زينة عازار وميشال ابي فاضل ، بيروت، 1975، ص173.
(4) باقر ، طه ، المقدمة ، ج2 ، المصدر السابق ، ص446.
(5) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص438.
(6) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص92 .

جهز اسطولا بحريا بعد ان تم بناءه في مدينة بتالة وبنى له مرافئ عديدة واحواضا لهذه السفن "لضمان الجري مع الغرب" وقد لقي هذا الاسطول في رحلته العديد من الصعاب والمشاق[1] .

وتجدر الاشارة الى ان الاسكندر قد خصص لذلك مهندسين وفنيين وعمالا بغية دراسة وتحسين طرق الاتصال بين بابل والبحر وازالة كل ما من شأنه ان يعرقل حركة الملاحة في مياه الخليج العربي وقد انشأ عند مصب نهر دجلة مدينة سماها الاسكندرية ليتخذها مركزا تجاريا يربط بين اهم المدن الواقعة على الخليج العربي وقد ازدهرت مدينة الاسكندرية خاصة بعد ان اعيد بناؤها باسم خاراكس ميسيني (Carax- messene) كما بنى حوضا كبيرا بمثابة مرسى للسفن التجارية ويعد ذلك خطوة اخرى نحو السيطرة على الساحل الشرقي للخليج العربي وبذلك يكون الاسكندر قد جعل من مدينة بابل المحور والمركز التجاري والبحري الاهم في اسيا كما أنه "قام بدراسة الطرق المائية في الفرات وروافده ومدى استغلالها في تنشيط الملاحة وتوطيد طريق الملاحة الجديد بين الهند وبابل"[2].

ثم ارسل خمسمائة وزنة من الفضة الى صيدا لتسك عملة يستخدمها في تأجير او شراء بحارة وجلب مستوطنين[3]. "وقد اتخذ اجراءات فيما يخص السياسة المالية في الامبراطورية وهي توحيد العملة الفضية"[4] .

ادرك الاسكندر بأن الامبراطورية الواسعة التي يروم تأسيسها تجمع شعوبا متناقضة العادات والتقاليد والسلوك كما أنها مختلفة نوعيا في طبيعة تكوينها التاريخي وعقلياتها المختلفة ولكي يوجد ولو بعض القواسم المشتركة التي يمكن أن تلتقي فيها هذه القوميات على كلمة واحدة وفكرة واحدة فأنه لجأ الى ايجاد فكرة جيدة يمكن لهذه الشعوب ان تتفق بشأنها وتلتف حولها من شرقها الى غربها تلك هي فكرة تأليه نفسه، وقد لقي في اثر ذلك تشجيعا كبيرا من قبل الفلاسفة والمفكرين الذين راحوا يتحدثون عن الإله في صورة البشر ولاضفاء شرعية ألوهيته وفرضها على الاغريق انتزع من حلف كورنثة اعترافا يثبت ألوهيته ويتسامى على صفات البشر[5].

(1) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص171.
(2) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص438-439.
(3) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص185.
(4) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص445-446 .
(5) المصدر نفسه .

ان حكم امبراطورية كهذه يستوجب من وجهة نظر الاسكندر ان يوجد لهم فكرة الاله الواحد الذي يحتكمون اليه والذي تعود اليه السلطة والدولة وتتمثل فيه تمثلا كليا خلق وحدة سياسية تجمع مختلف الاجناس بطريقين .

"الاولى شخصية الملك التي يلتزم ازاءها كل جزء في الامبراطورية بالولاء المقدس والثانية عن طريق تشجيع التجارة ووسائل الاتصال الحضاري بين هذه الشعوب والقوميات بحيث لا تحس بأن هناك فواصل تفصل بينها وهي نفس الاسس التي اقام الرومان عليها امبراطوريتهم العالمية على يد اغسطس"[1].

كذلك من جملة الافكار التي راودت الاسكندر والتي بدأت تدخل حيز التطبيق الاحتفال والوليمة الكبيرة التي اقامها في مدينة سوسة عند عودته من الشرق والتي جمعت ضباطه الكبار فكان هذا الحفل ايضا مناسبة جيدة تم على اثرها زواج حوالي 10 الاف جندي مقدوني من فتيات شرقيات وتم ايضا زواج الاسكندر بأبنة الملك السابق دارا الثالث[2] "وكان ذلك الزواج المختلط اعلانا لافكار الاسكندر الايديولوجية في مزج الشرق بالغرب عنصر وثقافة"[3] . ويعكس هذا الاجراء نية الاسكندر في خلق نوع جديد من الترابط بين اليونانيين والشرقيين يقوم على اساس المصاهرات ورابطة القربى بين العوائل بعضها ببعض وتتجلى خطوات الاسكندر اكثر في مضيه قدما نحو تطبيق مشروعه في دمج الشرقيين بالغربيين عندما ادخل اعدادا كبيرة من الشرقيين في صفوف جيشه المقدوني وصل الى حوالي 30 الف محاولا ادماجهم وتدريبهم على الطريقة اليونانية الغربية[4].

وقد سبق له من قبل في اوبيس (opis) ان خامرته فكرة حول جمع الشرقيين بالغربيين عندما اعلن بمأدبة اقامها وترجى خلالها "ان تجتمع القلوب في اتحاد (Homonoia) ويلتئم المقدونيون والفرس في دولة موحدة فكان الاسكندر بذلك اول من تعالى فوق الحدود القومية...حيث تصور قيام اخوة بشرية لا يجوز ان يوجد فيها تفرقة بين اغريقي ولا برابرة وبدأت الفلسفة الرواقية (Stoic) بالتقاط الفكرة ومن ثم كشف مؤلف للفيلسوف زينون وهو (المدينة الفاضلة) عن مثل براق لم يغادر افئدة الناس منذ تلك اللحظة وقد حلم في ذلك الكتاب بعالم لا ينبغي ان يظل بعد ذلك مقسما الى دول منفصلة بل يكون مدينة عظيمة واحدة ستظل قانونا مقدسا واحدا . يكون الجميع فيها مواطنين واعضاء بالتبادل تربطهم جميعا رابطة عمادها الرضا والرغبة لا القوانين البشرية أي تربطهم رابطة الحب (كما عبر هو نفسه) وربما سميت هذه الفكرة احيانا بالنزعة العالمية

(1) المصدر نفسه .
(2) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص89-90 .
(3) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص449 .
(4) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، 89-90.

(Cosmopolitanism) وهي كلمة صاغها الكلبيون (Cynics) للدلالة على ان اصحابها لا ينتمون الى اية دولة معينة"[1].

ان الاحتفالات والمهرجانات التي اقامها الاسكندر كانت تسير على وتيرة واحدة وهي صهر العنصر الاغريقي بالعنصر الشرقي وقد اقام الصلاة من اجل ما اسماه بالوئام بين مختلف القوميات والاعراق التي تتألف منها امبراطوريته الجديدة وعلى ما يبدو فان الاسكندر كان جادا وحريصا كل الحرص في انجاح مساعيه نحو خلق جو من التفاهم والانسجام والوفاق بين الاغريق والأسيويين ولا سيما منهم البابليين والفرس وسكان الشرق الاقصى ومما يعكس جدية هذه المساعي ان الاسكندر اعتبر أن الناس جميعا مهما اختلفت قومياتهم وعناصرهم هم ابناء لاب واحد[2].

ولتجسيد فكرة الانصهار هذه كانت اولى الخطوات التي فكر فيها هي كيفية جعل مختلف الاجناس والقوميات التي اخضعها لسلطانه تعيش في وئام وسلام جماعي دائم يكونوا مرتبطين ارتباطا كليا بامبراطوريته الجديدة ولتحقيق مثل هذا الهدف فان الاسكندر بادر باتخاذ اجراءات سريعة وحاسمة تعيد العدل والنظام وتكسب الامبراطورية هيبتها وثقة الشعوب فيها واهم هذه الاجراءات تجريد بعض الحكام الموالين له من امتيازاتهم وسلطتهم على الاقاليم التي كانوا يحكمونها ، فقد اساء هؤلاء الحكام استخدام السلطة التي منحت لهم و "ارتكب كليومنيس في مصر كثيرا من المساوئ وراح هاربالويس يبذر الاموال مقلدا بذخ ملوك الشرق"[3].

اتخذ الاسكندر هذه الاجراءات وغيرها في عاصمة الامبراطورية بابل إذ اصبح يفكر في استقرار شؤونها التي وصلت حدودها الغربية من اليونان الى تلك (Hyphasis) في الهند ومن نهر (Jax-artes) الى (Nubia) في مصر وقد اصبحت هذه المنطقة متحدة تحت حكومة واحدة[4].

ان مما لا شك فيه ان الاسكندر كان يرمي الى انشاء امبراطورية عالمية تكون عاصمتها بابل حيث تصبح بابل مركزا لحكومة واحدة تمثل جنسيات مختلفة من بابليين وفرس واغريق ومقدونيين واسيويين وغيرهم ولا ندري فيما لو طبق المشروع وكتب له النجاح ماذا سيكون طبيعة هذه الحكومة وهيكليتها واجهزتها الا انه يبدو ان الاسكندر كان سيستعين بالتراث الشرقي في تطبيق مشروعه هذا والاعتماد على مختلف العناصر والاجناس المكونة لهذه الامبراطورية ولا سيما منهم البابليين والفرس والمقدونيين[5].

---

(1) تارن ، وليم وثروب ، الحضارة الهلنستية ، المصدر السابق ، ص89-90 .

(2) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص437-438.

(3) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص434-438 .

(4) Botsford , G. W. , op. cit, p. 282.

(5) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص338.

ولكي لا يجد معارضة لمشروعه هذا لدى اليونانيين نراه يصدر العديد من المراسيم الملكية التي تخص المنفيين السياسيين في بلاد الاغريق بالعودة الى بلادهم ما عدا سكان طيبة وكان ذلك خلال الالعاب الاولمبية التي عقدت عام 324 ق.م وهذا الاجراء بلا شك له اثاره وانعكاساته على الاوضاع العامة في بلاد اليونان والشرق وذلك بغية خلق مناخ من الوحدة والسلام ونبذ الصراعات التي تنشب بين الاحزاب ورغم ان هذه الخطوات كانت تعكس جرأته وقوة شكيمته الا انها في حقيقة الامر تعد تدخلا سافرا في الشؤون الداخلية للدويلات اليونانية ، هذه الحقوق التي اقرها مؤتمر كورنثة من قبل والتزمت بها جميع الدول الاعضاء الموقعة على نصوص المعاهدة[1].

اضافة الى ذلك فان الاسكندر لكي يوطد ملكه ويجعل من نفسه ملكا على الشرق والغرب وليكسب العديد من رعاياه نجده يتبع التقاليد والمراسيم الشرقية في طاعتهم لملوكهم فقد تبنى سلوكات تعد غريبة مثل نظام السجود على الاغريق والمقدونيين وعندما لم يجد من معارضة فعلية لهذه التصرفات فانه تمادى في تطبيق فلسفته في الحكم[2].

ولقد تطرف الاسكندر في نظر المقدونيين عندما اقدم على تنفيذ بعض من سياسته لدمج الجنس الاسيوي بالجنس الاغريقي الاوربي عندما توخى سياسة (التفريس) التي اعتمدها في عاصمته الجديدة بابل وقد خشى المقدونيين من هذه الاجراءات التي ستؤدي في نظرهم الى انتقال السلطة والسيادة من اليونان الى الشرق وتكون بيد العنصر الشرقي[3].

ولكي تكون مدينة بابل محور الشرق والغرب فقد اخذ يهيئ في الوقت نفسه لحملة على الجزيرة العربية، حيث كانت بلاد العرب تعد منطقة غير معروفة ويكتنفها الغموض بالنسبة للاسكندر، فالمعلومات عنها تكاد تكون معدومة وامكانية اكتشافها وفك رموزها ليس بالامر الهين على الاسكندر وقواته ولما كان ينوي تنفيذ مشروعه العالمي المتمثل باقامة امبراطورية عالمية تكون عاصمتها بابل وايجاد الطرق والسبل الممكنة لربط اجزاء الامبراطورية شرقا وغربا بالعاصمة فانه ادرك ما لموقع بلاد العرب من اهمية جغرافية واقتصادية بالنسبة لبابل والشرق ولذلك فقد شرع في بناء العديد من السفن الحربية في بلاد فينيقيا ونقلها الى الفرات وذلك رغبة منه في ربط بحر الخليج العربي بمصر والدوران حول الجزيرة العربية[4].

وقد اوكل تنفيذ هذا المشروع وبداية خطواته الى القائد والملاح نيارخوس الذي بدأ بالطواف "حول جزيرة العرب من الجانبين من الخليج العربي وخليج السويس في نفس الوقت، فابحرت سفينة من

(1) المصدر نفسه ، ص434-438.

(2) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص434-438 .

(3) المصدر نفسه .

(4) المصدر نفسه .

السويس جنوبا حتى وصلت الى اليمن وسمعت عن حضرموت"[1] ومن جهة قام اسطول اخر مؤلف من ثلاث سفن بنفس الرحلة باتجاه الجنوب من الخليج العربي وخلال هذه الرحلة الثانية تم اكتشاف جزيرة البحرين حتى وصلت الى رأس مسندم (Mussendam) وقد اندرجت هذه الرحلة الاستكشافية المتوازية ضمن مخطط مقرر من البداية وفق اوامر صادرة الى قائد الحملة بالطواف حول شبه الجزيرة العربية حتى وصوله قناة السويس جهة الغرب . (ينظر شكل 4) .

8. وفاة الاسكندر في بابل :

في الوقت الذي كان فيه الاسكندر يستعد لتجريد حملة عسكرية بحرية على شبه الجزيرة العربية اصيب بمرض انهكه قواه[2].

تجمع المصادر على أنه عندما رجع إلى بابل بعد حملته الشاقة في الشرق الاقصى انغمس في شرب الخمر، وبالغ في شربه إلى الحد الذي اصبح يتبارى مع ضباطه الكبار وكان من نتيجة ذلك ان أصيب بحمى شديدة اقعدته الفراش عشرة ايام[3] . ورغم ذلك واصل اصدار أوامره إلى ضباطه وقادته بالاستعداد للحملة بيد ان تدهور صحته شلت حركته نقل على أثرها إلى قصر الملك البابلي نبوخذ نصر حيث توفى هناك. وقد وقف ضباطه وجنوده في موكب مهيب يمرون من حوله مطأطئين رؤوسهم اجلالا واحتراما له وفي اليوم الثالث عشر من شهر يونيو عام 323 ق.م ودع الاسكندر الحياة عن عمر يناهز 33 سنة[4].

لما سأله قواده لمن يترك ملكه اجابهم بقوله "الى اعظمكم قوة"[5] .

لاشك ان النزعة الكونية في التراث اليوناني كانت بدايتها مع الاسكندر المقدوني الذي كان يروم انشاء امبراطورية شاسعة تمتد من بلاد اليونان غربا الى بلاد الشرق الاقصى في الشرق كما خطط الاسكندر وعزم النية على جعل مدينة بابل عاصمة ملكه وقد كان الرواقيون من انصار النزعة التي تستند على اساس وحدة الجنس البشري حيث اكدوا على مبدأ الاخوة الانسانية على اعتبار بأن الانسان كمخلوق عاقل يعد في الاساس متماثلا مع اخيه الانسان ويخضعون الى نفس القانون

(1) المصدر نفسه .
(2) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص 439-440.
(3) ديورانت ، ول وايريل ، قصة الحضارة ، مج2 ، ج2 ، المصدر السابق ، ص538.
(4) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص439-440.
(5) ديورانت ، ول وايريل ، قصة الحضارة ، مج2 ، ج2 ، المصدر السابق ، ص538.

الطبيعي ولهم حقوق متساوية[1].

ان ما ذكره زينون في مؤلفاته حاول الاسكندر المقدوني تم تحقيقه فعلا بجمع عدة شعوب في بودقة واحدة ، وبهذا قدمت المدرسة الرواقية الفكرة الايديولوجية الاكثر دواما للاسكندر الذي امر الجميع بأن يعتبروا الارض كلها وطنهم وجيشه كأنه قلعتهم الحصينة[2].

"كان عالم الهلنسة قد مسته يد التغيير واتسعت آفاقه ، ومع ان الروح الانفعالية التي انطوت عليها (دولة المدينة) الاغريقية قد كتب لها ان تظل في الواقع قوية ومتينة الى حد ما الا انها كانت قد تحطمت من الناحية النظرية واخذت تحل محلها فكرة العالمية الشاملة ونتيجتها: وهي الروح الفردية وتتولد تلك الفكرة عن وجود "عالم مأهول" (oecumene) بوجه عام وهو بمثابة تراث شائع للمتحضرين من الناس ونشأت لخدمة اللهجة الاغريقية المسماة باسم الكويني (أي اللسان العام) (koinne) الذي كان شائعا كذلك بين كثير من الاسيويين"[3].

إذا حاولنا تقييم سياسة الاسكندر تجاه البلدان التي احتلها، يمكن القول بأنه وان كانت نظريته ذات أبعاد انسانية شاملة وتحمل مشروعا انسانيا ضخما إلا انها كانت تبدو ابعد ما يكون عن التحقق الفعلي للواقع الملموس، فأفكار الاسكندر وان لامست جوانب مهمة من مشروعه الحضاري إلا انها كانت في حقيقتها مجرد أفكار خيالية "بدليل انه فشل في النهاية من تحقيقها ودفنت معه في القبر"[4] وكانت تكمن وراء هذا الفشل جملة من الأسباب، هي الفوارق العميقة في مستوياتها الحضارية والعنصرية والقومية بين الشرقيين والغربيين[5].(ينظر شكل 5) .

(1) غانم محمد صالح ، الفكر السياسي القديم والوسيط ، بغداد ، د.ت، ص131.
(2) جان توشان واخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، ط1 ، بيروت ، 1981 ، ص49.
(3) تارن ، وليم وثروب ، الحضارة الهلنستية ، المصدر السابق ، ص5.
(4) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص448 .
(5) المصدر نفسه ، ص448 .

أولا : الزراعة :

ظل المجتمع الرومانى كما كان مجتمعًا زراعيًا أولاً وأخيراً وقد ساعدت فتوحاتهم خارج حدود مدينة روما ، ومنها الأقاليم الأخرى فى إيطاليا ، على زيادة رقعة المساحة العامة للأراضى (Ager Puplicus)والتى كانت الدولة تملكها ، ثم تزرعها فى صورة إقطاعيات ، مثلاً ، بالإيجار ، لكن الأشراف بما لديهم من نفوذ وثراء كانوا يعتبرون ما يؤجرون من أراضى الدولة ضمن ملكياتهم وحيازتهم (Possessio) . وقد استغل المواطنون الرومان (Romani) أو اللاتين (Latini) عند إقامة مستعمرات (coloniae) ، عسكرية رومانية أو لاتينية ، المساحات التى كانت تخصص للاستغلال العام وكانوا يزرعونها بالمحاصيل التى تلائم الإقليم. كما كان الشائع كذلك ولا سيما ى حالات المستعمرات القريبة أن توزع مساحات من الأرض على المواطنين الرومان واللاتين الذين يرغبون فى الاستيطان بهذه المستعمرات الجديدة ، عندئذ تصبح هذه الأرض ملكًا لهم وذلك تشجيعًا لهم على البقاء والاستقرار فى هذه المستعمرات المدنية . والطريف حقًا هو أن الأشراف (Patricii) كانوا يحثون العامة (Plebs) على امتلاك هذا النوع من الأراضى حتى يتمكنوا من التخلص من العناصر المشاغبة داخل مجتمع روما .

ثانيًا : التجارة والحرف :

وكنتيجة طبيعية لما سبق الإشارة إليه آنفًا ، كان المجتمع الرومانى ، فى النصف الأول من عصر الجمهورية ، وما تلاه لا يستدعى أصحاب الحرف أو التجارة لأداء الخدمة العسكرية ولا يتم مثل هذا الاستدعاء إلا عند الضرورة القصوى ، مع مراعاة عدم الاعتماد عليهم فى فرق الجيش الرئيسية من مشاة (cohortes) أو فرسان (equites) وهذا يعنى كيف كان الرومان ... ينظرون إلى المهن الأخرى – خلاف الزراعة باعتبارها مهن أقل شرفًا ، وأقل ولاءً للوطن.

١ – وكانت تارنتوم (Tarentum) من أهم المراكز التجارية فى إيطاليا القديمة ويبدو أن الحرب قد أثرت تأثيراً سلبيًا واضحًا على عمليات التبادل التجارى بين المدن الرومانية بعضها البعض وبين تلك المدن والعالم الخارجى فلم تسفر الحفائر إلا عن أعداد قليلة للغاية من الآنية اليونانية التى تؤرخ بالقرنين الخامس والرابع ق.م .

وخير دليل على عدم اهتمام روما القديمة بالتجارة ، هى بنود الاتفاقية التى كانت روما قد عقدتها مع قرطاجة حيث سمحت بمقتضاها لهذه المدينة الفينيقية أن تحتكر تجارة غرب البحر المتوسط ، فضلاً عن تكاسلهم فى إيجاد عملة نقدية للتعامل التجارى حتى عام ٢٦٩ ق.م

بدلاً من المقايضة التى تُعَطِّل العمليات والنشاط التجارى . هذا بالرغم من معرفتهم وممارستهم لنوع من القواعد الموحدة لتقدير قيمة الأشياء . وكانت كلمة (pecunia) - التى هى مشتقة من كلمة (pecus) وتعنى (قطيع) - بمثابة الرمز عن النقود للدليل على تقدير ثمن الأشياء بما تساويه من ماشية وأغنام .

٢ - فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأ الرومان فى استخدام كتلة من البرونز (aes rude) غير مسكوكة ، زنة كل منها رطل أو (١٢) أوقية . وفى النصف الثانى من القرن نفسه ، صدر قانون يقضى باعتبار الثور الواحد أو عشر أغنام تساوى عشرة أرطال (asses) من البرونز .

٣ - وفى عام ٢٨٩ ق.م ، صدر قرار بضرورة استخدام العملة ، وتكوين لجنة ثلاثية تشرف على دار سك هذه العملة ، سمُّوا بـ (Triumviri monetales) وكانت أول عمل لهم هو إصدار سبائك مختومة (aes signatus) تزن كل وحدة منها حوالى ٦ أرطال وهذا يعنى أن أول إنتاج لتلك الدار لم يكن نقوداً بل مجرد عملات . الحقيقة أن أول انتاج لأول نقود سكتها روما كانت في عام ٢٦٨ ق.م ، بين فئتين : فئة الدراخمة الواحدة وفئة ذات دراخمتين . وكانتا تقليداً للعملة البطلمية ، الذهبية ، التى كان بطلميوس فيلادلفوس قد سكها بمناسبة تخليد ذكرى زوجته وأخته أرسينوى فى ٢٧٠ ق.م ، واضعين فى الاعتبار السفارة المتبادلة بين مصر وروما حوالى عام ٢٧٣ ق.م . وتجدر الإشارة إلى وجود نوع آخر من النقود ، ولكن من البرونز وتسمى عملته بالآس (as) .

وفى عام ١٨٧ ق.م ، حدث أن تغير النقد الرومانى فأصبح على أساس الفضة فظهرت النقود الفضية الجديدة « الدينار » (Denarius) وعملة أصغر من الدينار قليلا هى «السيستر تيوس »(Sestertius) .

الحياة الاجتماعية :

سبق أن تكلمنا عن الأسرة وتكوينها وعلاقات الأفراد داخلها ولكننا لم ندخل فى تفاصيل كثيرة عن نظام حياتهم الاجتماعى الذى كان من أبرزه ما يلى من مظاهر :

(أ) الزواج : هناك منه ثلاثة أنواع :

فـفى الأول : تنتقل العصمة للزوج بعد الزواج ، ويصبح هو صاحب السلطة عليها : Con-ventio in manus وتلازمه مجموعة أشياء :

١ – حفل دينى .

٢ – حضور (١٠) شهود وأحد كبار المعبد ليبارك الزواج بتلاوة عبارات مقدسة (solemnia verba) وكان هذا النوع منتشراً بين الأشراف (patricii) ويعتبر من أقدم أنواع الزواج الرومانى

أما النوع الثانى : فكانت سلطة الزوج تتحقق على الزوجة ، عقب توقيع صفقة بيع صورية (Coemptio) وهذا نوع قديم كذلك ولكنه انتشر بين أوساط الطبقات الشعبية (Plebs) وكان لا يلزم إقامه إلا حضور (٥) شهود . كما لا يُلزِم أى طرف بإقامة احتفال دينى من أى نوع .

والنوع الأخير (الثالث) : يعتبر أبسطها جميعًا ، ويقوم أساسًا على اتفاق الزوجين على أن يعاشر كل منهما الآخر ، فى ضوء حقوق متساوية للطرفين ، كما كان الزوج يمكنه ممارسة سلطته (manus) على زوجته ، إذا عاشرته معاشرة زوجية متصلة (ouas) لمدة عام كامل ، دون انقطاع ، حتى ولو لمدة (٣) ليالى خارج منزل الزوجية .

وكان الحد الأدنى في هذه الزيجات الثلاثة ، هو الرابعة عشرة للرجال والثانية عشر للإناث، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الزواج لم يكن له قاضى خاص للأحوال الشخصية ، ينظمه، بل كان مسألة شخصية بحتة ، شأنه فى ذلك شأن الحفلات التى كانت تصحبه فى النوع الأول منه ، وكذلك الطلاق الذى كان يسيراً ولكنه كان نادراً لشدة حرص الشعب الرومانى على تحقيق الوفاق العائلى وكيان الأسرة وكما هو الحال عادة فى الأسر الريفية فى كل مكان من العالم ، قديمه وحديثه على السواء .

وعندما نتناول دور الفرد فى الأسرة ، فنجد اسمه يرتبط باسم العشيرة (gens) واسم الأسرة (cognomen) مثل :

Puiblius	Cornelius	Scipio
1	2	3
Praenomen	Nomen	فباللاتينية : Cognomen
Forename	Name	وبالإنجليزية : Surname

أى أن اسم الشخص نفسه هو : پُوبْليوس .

واسم العشيرة هو : كورنيليوس .

واسم أسرته (لقبه) هو : سكيبيو .

وكانت لكل عشيرة طقوسها الدينية الخاصة بها (Sacra gentilica) لتكريم وإرضاء الآلهة التى تحميها ، كما كان هناك مجلس لكل عشيرة يتكون من آباء لأسر فيها ، للفصل بين المنازعات ودراسة أحوال العشيرة ، أما الأتباع فى كل أسرة فكانوا يعتبرون أتباع لكل العشيرة تضمن حمايتهم وتربطهم بها علاقات متينة .

كان نظام العشائر - فى العهد الملكى - قاصراً على الأشراف ، ولكن النظام الجمهورى ، وبفضل كفاح العامة ، أوجد هذا النظام بين أسر عامة الشعب ، الأكثر ثراء ، ولما حصل تقارب بين أولئك وهؤلاء ، خلقت الأوضاع الجديدة والتقاء المصالح بين الفئتين طبقة جديدة تمامًا ، هى طبقة أرستقراطية من نوع جديد مما أثر على شكل السناتوس ، والعديد من الوظائف العامة .

(ب) الدين :

كانت الديانة واضحة تمامًا فى عبادة الأسرة الرومانية لمجموعة من الآلهة الرومانية الخالصة فى العصر الملكى ، ولكنه بتقدم العصر الجمهورى دخل عدد من الآلهة اليونانية إلى عالم المعبودات الرومانية ، عندما دخلت عبادة الـ Dioscuri فى عام ٤٨٤ ق.م [١].

وفى عام ٢٩٣ ق.م ، بسبب تفشى الطاعون فى روما ، استقدم الرومان الإله الإغريقى اسكليبيوس (Asclepius) كما ازداد اهتمامهم بالموافقة على دراسة علم النبوءة على أسس التعاليم الإتروسكية (disciplina Etrusca) .

ولما كان الروماني مادى بطبعه ولا يعرف للخيال مكانًا فى عقله فإنه يتضرع إلى الآلهة أن تمنحه خيراً ماديًا وليس معنويًا . وذكر د. إبراهيم نصحى ثلاثة أسباب لتمكن الدين وسيطرته على العقلية الرومانية[٢] وهى :

١ - دور الدين فى تحقيق المودة بين أفراد الأسرة والدولة كذلك .

٢ - الإيمان العميق بقدرة الآلهة على تحقيق الخير لكل من يرضيها بالطريقة السليمة والطقوس الصحيحة .

٣ - الجرى على سنن الآباء (mos maiorum) والتمسك بها .

---

١ - انظر المؤرخ اللاتينى ليفيوس : Liv., II, 20, 12: 42, 5.

٢ - المرجع السابق ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(جـ) القانون :

من أهم ما خلّفته العقلية الرومانية فى تاريخها كله هو مجموعة القوانين الوضعية التى كانت تصدر تباعًا لسد الفجوات ، بين فترة وأخرى وذلك لضمان تحقيق الصالح العام ، ودرءاً لاستغلال فئة لفئة ولضمان حسن سير العلاقات البشرية والجماعات الإنسانية .

لقد كانت قوانين « الألواح الاثنى عشر » ، قوانين أساسية للدولة الرومانية فى النصف الأول من عصر الجمهورية ، وتدل دلالة واضحة على ذلك الحس الخاص الذى تمتعت به تلك العقلية المادية ، فى مجال القانون الخاص . فهى مثلاً فصلت فصلاً تامًا بين الدين والقانون واستبدلت بنظام الثأر تعويضات كان يجب على الجانى دفعها لأهل المجنى عليه .

وتعزيزاً لحق المواطن الرومانى إزاء الأحكام الصادرة صدر فى عام ٣٠٠ ق.م ، تشريع يعطى المواطن الحق فى استئناف كل الأحكام حتى لو كانت صادرة عن أى حاكم رومانى وقد سبق ذلك – على سبيل المثال لا الحصر – قانون ٣١٣ ق.م ، الذى قضى على عادة رهن شخص المدين واستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن دفع ديونهم .

(د) الفن :

الفن الرومانى ، بطبعه ، ميال إلى البساطة ، وتوفير سبل العيش السوية دون اللجوء إلى الكماليات إلا فى فترات الازدهار الحضارى العظيم ، فى العصر الإمبراطورى عندما فاءت عليهم مستعمراتهم الخارجية والولايات الأجنبية من خيرها الكثير . وهكذا اهتم الرومانى اهتمامًا خاصًا فى النصف الأول من العصر الجمهورى – بإنشاء الضروريات فقط ، مثل معابد الآلهة وأسوار مدينة روما وغيرها ، ووصف طرقها وشوارعها وحفر القنوات .

(١) وفى النحت – فى نفس الفترة ، كان الاهتمام قاصراً على عمل تماثيل للآلهة المعبودة داخل المعابد ، وكانت تصنع من الطين أو الأحجار ، ومنذ أواخر القرن (٤) ق.م ، تم عمل تماثيل تذكارية لتخليد كل من قدم خدمات جليلة لبلاده فى السوق العامة ، أمام المعبد ، كما حدث لقنصلى عام ٣٣٨ ق.م .

وتجدر الإشارة إلى أن صانعى تلك التماثيل – حتى فى نهاية القرن الرابع وأوائل الثالث ، لم يكونوا من الرومان بل من الإتروسكيين والإغريق الذين فرضوا وجودهم الفنى فى القرن الثالث ق.م ، ولم يكن هناك وجود للفن الرومانى الحقيقى فيما عدا فن التصوير الشخصى

(Portraits) قبل القرن الأخير من عهد الجمهورية ، تقليداً لنماذج الأقنعة فى الفن الإتروسكى .

(٢) وفى ميدان التصوير الجدارى ، بالألوان ، فليس لدينا أكثر من مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة فى صخور تلال إسكويلينوس (Esquilinus) والتى تؤرخ بالقرن الرابع ق.م .

وحقيقة الأمر أن المستوى الفنى التصويرى عند الرومان فى القرن الرابع ق.م لم يصل بل لم يحاكى الفنون الأخرى وكان دونها بالكثير وهذا ما تدل عليه نماذج الصور على النقود الرومانية ، التى سكت فى عام ٢٦٨ ق.م وما بعدها .

(٣) أما عن المساكن : فكانت تعكس الوضع الاجتماعى لأصحابها فمساكن الريف عبارة عن أكواخ من البوص المغطى بطبقة من الطين – وما أشبهها بمساكن ريف الصعيد عندنا اليوم وبصفة خاصة ، أكواخ الطبقة الدنيا من أهل القرية المصرية ولكن بعض المساكن الأخرى ، ولا سيما فى روما فكانت عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين ، إحداهما إما خلف الأخرى أو فوقها كدور ثانى . وكان صاحب أى حرفة يتخذ من الغرفة الأولى أو السفلى مكاناً لحرفته أو تجارته. وعادة ما كانت هذه المساكن تبنى من الطوب اللبن والأخشاب .

(٤) وكانت المعابد قليلة ، فقد استكمل بناء معبد الثالوث المقدس (چوبيتر : Jupiter) وچونو : Juno ومنيرفا : Minerva . بداية عصر الجمهورية كما أنشئت أربعة معابد إحداها عام ٤٩٥ ق.م للإله مركوريوس (Mercurius) إله التجارة والتجار ورسول الآلهة وآخر للإله أبولو (Apollo) عام ٤٣١ ق.م .

أما القرن الرابع ، فلا نعرف – بشكل عام – شيئًا عن إقامة أى معابد تؤرخ بهذا القرن بينما فى بدايات القرن الثالث ، حوالى ٢٤٠ ق.م أقِيم معبد للإله أسكولابيوس (Asculapius) ، إله الطب (عند اليونانيين أولا) .

والدارس لعمارة تلك المعابد يستطيع أن يتبين فروقًا كبيرة بينها وبين المعابد اليونانية من حيث :

أ – ارتفاع قاعدة المعابد الرومانية عن مثيلتها فى العمار اليونانية .

ب – بروز تلك القاعدة عن بهو قاعة تمثال الإله (Sökós) .

جـ - اختلاف طرز الأعمدة .

د - عدم وجود بهو الأعمدة الخارجى (Peristylio) ، (كما هو فى العمارة اليونانية والذى يحيط بالمعبد) .

وأخيراً ، فقد كانت المنشآت العامة ، فى النصف الأول من عهد الجمهورية ، قليلة منها :

(١) بناء سور حول روما عقب غزو الغال فى ٣٩٠ ق.م .

(٢) إنشاء طريقين هما :

أ - طريق لاتيوم (Via Latina) .

ب - طريق أبيوس (Via Appia) .

(٣) إنشاء قناتين لتوفير حاجة روما من المياه الصالحة ، هما قناة أنيوفتوس (Anio Vetus) وقناة أبيوس كلاوديوس (Appius Claudius) .

(٤) رصف شوارع روما الرئيسية بالأحجار وإنشاء مجارى فيها . وجدير بالإشارة إلى أن منطقة المعبد (Templum) كان يوجد بها سوق مكان فسيح (Forum) حيث تجتمع فى جزء منه جمعية الكوريای (Curiae) والجمعية القبلية (comitia curiata et comitia tributa) فى مواجهة المنصة (Rostra) الرئيسية ، التى بنيت خصيصاً ليتحدث فوقها الحكام والأمراء، أما جزء باسيليكاى (Basilicae) فكان جزءاً هاماً من بين مهام إيواء المحاكم .

وفى عام ٢٢٠ ق.م أنشأ الكنسور فلاقينيوس مضماراً جديداً لسباق الخيل والعربات فى ساحة الإله مارس (Circus) .

وهنا يجب ألا ننسى أن حياة الرومان منذ نهايات القرن الأول الميلادى وطيلة القرن الثانى كله تستطيع أن تعرف أدق تفاصيلها فى ساتيرات چوفينال Juvenalius : Satires, I-XVI فى أى طبعة أجنبية سواء فى سلسلة Loeb Classical Library أو فى سلسلة نصوص Oxfords الإنجليزية .

الفصل الأول

الغزو اليوناني لبلاد الرافدين

1. استعدادات الجيش المقدوني وبداية اطوار الحملة العسكرية على الشرق :

تعود البدايات الاولى في الاعتناء بالجيش المقدوني وتكوينه الى عهد فيليب الثاني ملك مقدونيا، الذي حرص كل الحرص على ان يجعل مقدونيا اقوى الدويلات اليونانية عندما أدرك الامكانيات الاقتصادية والبشرية الهائلة لبلاده وتوجيهها لخدمة الجيش والمجتمع[1]. ان الاموال الهائلة التي جمعها فيليب لبناء جيشه ومن ثم تطويره يعود مصدرها بالاساس الى مناجم الذهب التي استخرجها من بانجايوس[*] وذلك في سبيل "بناء مؤسسة عسكرية قادرة على تنفيذ مشاريعه السياسية مستقبلا"[2] فقد اصاب التطور والاستحداث الجيش المقدوني الذي رام فيليب ان يدخله عليه ليكون قويا ومتماسكا ، فقد كانت النخبة المؤلفة من هذا الجيش والمتمثلة بقوة الفرسان مصدرها ابناء العائلات النبيلة والارستقراطية التي كانت تمثل الدعامة الاساسية في اعداد وتجهيز هذه النخبة من الفرسان والمعدات الحربية الجديدة والمستحدثة، هذا وفي نفس الوقت شهدت فرق المشاة اهتماما موازيا لفرق الفرسان بان عمد فيليب الى ادخال انواع من الاسلحة الجديدة الصنع وتشكيلات عسكرية متطورة زود بها فرق المشاة .

ان هذه التقنيات الجديدة التي جاء بها فيليب ولاسيما ما ادخله على صنف المشاة والتشكيلات العسكرية ما هي الا تلك السياسة العسكرية الاثينية والطيبية المستحدثة. فبهذا التسليح والتشكيلات تمكنت اثينا في حربها الانتقامية ضد اسبرطه من تمزيق صفوف تشكيلات الفرق التابعة لاسبرطة، وكان القائد الاثيني المعروف في هذه المعركة هو افيكراتيس (Iphicrates)[3] الذي "اتخذ نموذجا جديدا من المشاة خفيفي التسليح المزودين بالحراب ذات الطعنات النافذة يفوق في قوته تشكيل (حملة التروس) بسيوفهم ذات الطعنات الواخزة وقد كفل هذا النمط الجديد للجندي حرية استخدام رمحه بكلتا يديه نظرا لان يده اليسرى قد ازيح عنها عبء ذلك الترس التقليدي الدائري

(1) باقر، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج2 ، ط1 ، بغداد ، 1956 ، ص439 .

(*) بانجايوس وهي منطقة جبلية في تراقيا غنية بمناجم الذهب وقد استغل فيليب هذه المناجم في بناء قوته العسكرية .

(2) توينبي ، ارنولد ، المصدر السابق ، ص127 .

(3) المصدر نفسه .

الثقيل"[1] واستبدل بنوع اخر من التروس صغير وخفيف الوزن يستخدم في اليد اليسرى والى جانب ذلك استطاع فيليب ان يجهز فرقا تتكون من المشاة ذات التسليح الاثيني العالي .

تعد سياسة فيليب العسكرية هذه الاساس الذي ارتكزت عليه سياسة الاسكندر التوسعية فيما بعد داخليا وخارجيا فقد امكن لفيليب ان يضمن لمقدونيا وبلاد اليونان قوة عسكرية توحدهم وتمنع عنهم شر (البرابرة) الفرس[2] وقد دخل فيليب في حروب طاحنة ضد الدويلات اليونانية لمدة خمسة عشرة سنة توجت اخيرا بانتخابه قائدا عاما لجميع اليونانيين في مؤتمر كورنثه للقيام بحملته على بلاد فارس وسحق الجيوش الفارسية المتواجدة في ايونيا التي تمكنت من صد هذه الجيوش ومعرفة مواطن ضعفها وقوتها الشي الذي ادى الى توحيد المقدونيين واليونانيين صفوفهم وقوتهم وتوجيهها ضد الامبراطورية الفارسية[3] ، الا ان الاقدار لم تشا لفيليب ان ينفذ خططه هذه فقد تم اغتياله عام 336 ق.م لاسباب غير معروفة وقد ورث ابنه الاسكندر اضافة الى الحكم والادارة اعباء هذه السياسات والمتمثلة اساسا في خطط والده وسياسته الاستراتيجية تجاه الشرق وامكانية غزو او ايقاف الاعتداءات المتكررة التي كانت الدولة الفارسية تقوم بها من حين الى اخر على الدويلات اليونانية ، ولتنفيذ هذا المشروع الاخير بدا الاسكندر تحضيراته واستعدادته العسكرية نيابة عن بلاد اليونان وممثلا لها في مؤتمر كورنثة الذي انتخبه قائدا للحملة[4].

وقد بدا الاسكندر باتخاذ اجراءات ترتيبية وتنظيمية سواء فيما يخص الاوضاع الداخلية في بلاد اليونان او بخصوص تنظيم الجيش المعد للحملة ففي بلاد اليونان شهدت سنة 334 ق.م بداية الانطلاق من مدينة بيلا بصحبة جيشه المؤلف من قوات عسكرية[5] "يزيد عددها على اثنين وثلاثين الفا من المشاة وخمسة الاف من الفرسان، كما نظم قوة اخرى لحماية مقدونيا اثناء غياب القوة الاولى عن البلاد وكانت قوة الحماية هذه مؤلفة من تسعة الاف من المشاة وستمائة من الفرسان"[6] اوكل مهمة قيادتها الى القائد العجوز انتيباتر الذي كان الاسكندر يرى فيه اكفأ الشخصيات القيادية في تولي

(1) توينبي ، ارنولد ، المصدر السابق ، ص129-130.
(2) المصدر نفسه ، ص131 .
(3) باقر، طه، المقدمة ، ج2 ، المصدر السابق ، ص439 .
(4) العسلي ، بسام ، المصدر السابق، ص56 .
(5) سرقس ، بحرجي ديمتري ، المصدر السابق، ص217.
(6) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص56.

شؤون بلاد اليونان وحفظ الامن والاستقرار فيها[1] وفي نفس الوقت يتولى رئاسة حلف كورنثة نيابة عن الاسكندر[2].

لقد دامت استعدادات الاسكندر في تجهيز هذه الحملة حوالي سنتين وهي مدة تبدو كافية لانجاز جيش سيتولى القيام بحملة خارج حدوده غير مضمونة العواقب[3] لذلك كان هذا الجيش الذي اعده الاسكندر متنوع التجهيز ومتعدد التركيب فضلا عن كونه عالي التنظيم من خلال هيكليته ووظيفته وملحقاته .

ومثلما مر بنا سابقا فيما يخص عدد الجيش المعد للحملة من فرسان ومشاة توجد قوات من المشاة ضمن هذا الجيش تابعة للاسكندر ومؤلفة من المقدونيين الخلص ويصل عددها الى حوالي اثنا عشر الفا وفيلق عدده تسعة الاف جندي مقسمين الى ست فرق اقليمية[4] كل فرقة منسوبة الى اقليم من اقاليم مقدونية الستة اما الفرق الاخرى الخاصة بحمل الدروع والتي تصل الى حوالي اربعة الاف فقد تم تقسيمها الى ثلاث فرق عسكرية[5] .

ان حملة الدروع هؤلاء كانوا مزودين بسلاح ثقيل شأنهم شأن مقاتلي الفيلق وكانت وظيفتهم مهمة وهي التخفيف من الاعباء التي يقوم بها المشاة ذوو التجهيزات الثقيلة وكانت ضمن المشاة هذه فرقة تسمى الاجيما (agema) ودورها يتمثل في حراسة القائد العام للجيش وهو الاسكندر اما فرقة الفرسان فكانت توجد فيها فرقة معروفة يطلق عليها تسمية الرفقاء وقد كان هؤلاء يجندون من ابناء ملاك الاراضي الصغار في مقدونيا ثم تقسيمهم الى ثماني فصائل اقليمية[6].

كان الجيش المقدوني ايضا مؤلف من مجموعة من المحاربين يضم جنود بلقانيون يشكلون نخبة مقاتلة وتحتوي هذه النخبة نفسها عددا من الخيالة التراقيين وهم يرتدون نوعا من السراويل الفضفاضة ويلبسون دروعا موشاة بالجلد وهؤلاء يقودهم ضباط من اصل مقدوني ، وكان دور هؤلاء الخيالة التراقيون في المعارك بمثابة البادئ والمستعد للغارات التي تتولاها فرق اخرى في الجيش المقدوني كما يقومون بحملات استطلاعية تستهدف معرفة قوات العدو وجس نبضها[7].

(1) سرقس ، بحرجي ديمتري ، المصدر السابق ، ص217.
(2) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر، ترجمة : زكي علي ، القاهرة ، 1963 ، ص33.
(3) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص59 .
(4) باقر ، طه ، واخرون ، تاريخ ايران القديم ، بغداد ، 1979 ، ص77 .
(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص56 .
(6) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص34-35.
(7) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص56-58.

اضافة الى ذلك توجد مجموعة من المقاتلين الثيساليين الشديدي القوة يصل عددها الى حوالي الفين[1] ويأتي بعد ذلك "مشاة من التراقيون واغريانيون مسلحون بالتسي والمرازيق وكذلك تريباليون واوجيسيون وايليون (البانيون) وعددهم يقرب من سبعة الاف ويضاف اليهم حلفاء اغريق يضفون مظهر الوحدة الهيلينية على قوات الحملة"[2] يمثلون الحلف الكورنثي ورغم ان عدد هؤلاء يصل الى حوالي ستمائة من الفرسان وسبعة الاف من المشاة الا انهم لم يحضوا بثقة تامة من قبل الاسكندر .

وقد جمع هذا الحلف ايضا فئة من المقاتلين "الاجريانيين الضاربين بالحراب والكريتيين الرماة والتراقيين وكان مشاة الحلف بوجه عام يستخدمون بصفة خاصة في الحاميات وفي المحافظة على خطوط المواصلات ولكن الرماة من الكريتيين الذي لم يكونوا من قوات الحلف كانوا لا غنى عنهم، شأنهم في ذلك شأن الاجريانيين انفسهم"[3].

يأتي على راس هذا الجيش نخبة من القادة الضباط الى جانب الاسكندر في الكفاءة والقيادة العليا وهؤلاء هم اركان الحرب من ذوي الخبرة العالية في قيادة الحروب وادارتها علما بان قسم من هؤلاء الضباط الكفوئين كان الاسكندر قد ورثهم من عهد والده فيليب ولاسيما منهم بارمينيون وابنه فيلوتاس إضافة إلى انتيجونس وغيرهم[4].

وتجدر الاشارة هنا وعلى ذكر الاسطول البحري الذي اعده الاسكندر والذي يندرج في اطار حملته العسكرية ، فان هذا الاسطول كان صغير الحجم مقارنة بالاسطول الفارسي، ولذلك لم يوله الاسكندر الاهتمام والعناية اللازمتين بل ولم يعول عليه كثيرا ويعتقد بان الحرب لا يمكن ان تحسم الا في معركة برية يكمن فيها تفوقه العسكري وقوته ، ورغم ذلك فقد جهز الاسطول البحري بحوالي 180 سفينة[5] من بينهم 120 سفينة تبرع بها حلف كورنثة للحملة مع فرق عسكرية مختصة بحصار المدن حيث يمكن لهذه الكتائب المختصة ان تبني جسورا من القوارب العائمة[6] وكان هذا الاسطول عند بدء بدء الزحف راسيا في مياه امفيبوليس[7].

وللوقوف على حجم هذه الحملة العسكرية الكبيرة التي أعدها الغرب الاغريقي لغزو الشرق ومدى التنظيم الكبير والاستعدادات الشاملة الذي عرفته هذه الحملة يجدر بنا ان نتطرق بالذكر الى ما

(1) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص34-35.

(2) المصدر نفسه ، ص34-35.

(3) المصدر نفسه ، ص33-34.

(4) المصدر نفسه ، ص34-36.

(5) رستم اسد ، المصدر السابق ، ص21.

(6) Haywood, Richard. Mansfield , Ancient Greece and the neareast , New york , 1968, 1968, P.571 .

(7) رستم ، اسد ، المصدر السابق ، ص21 .

رافقها من هيئات وملحقات اضافية اضفت عليها طابعا مميزا ، حيث ان هذه الحملة العسكرية شملت ليس فقط هذه الصنوف المختلفة من الجيش المقاتل بل ضمت ايضا هيئات ادارية ووظيفية ولجانا فنية كان الاعضاء المشكلون لها ذوو اختصاصات متعددة ومتنوعة ، وكانت كل هيئة لها رئيس خاص بها يتولى شؤونها بمعونة الاخرين من الافراد الاعضاء في كل هيئة كما كان يسير في تطبيق التعليمات على ضوء "مخططات الاسكندر العسكرية" وقد برز من بين هؤلاء عدد من الفنيين عرفوا بمهارات عالية في هندسة وتطوير المعدات والتجهيزات العسكرية ، وابرزهم في استحداث ادوات الحصار هو دياس التسالي السالف ذكره ، كما كان دينو كراتس يمثل دور رئيس فرع الانشاء والتعمير وهي هيئة مختصة بوضع المخططات والاشراف على سير اعمال مشاريع بناء المدن الجديدة التي يريد الاسكندر بناءها في البلدان التي يحتلها، وقد احتوى جيش الاسكندر ايضا لجانا استخباراتية وظيفتها "جمع المعلومات عن الطرق والسهول المناسبة لاقامة المعسكرات واقامة الكمائن وتسجيل المسافات التي يقطعها الجيش في زحفه"[1].

اضافة الى ذلك احتوت هذه الحملة عددا كبيرا من رجال العلم والادب وبعض الفلاسفة الذين يبدو ان وجودهم فيها كان بايعاز من معلم الاسكندر ارسطو[2]، فنجد الفيلسوف كليشينس (callisthencc) وانكسرخوس (Auaxarchus) وتلميذه بيرون (Pyrrhon)[3] كما رافقت هذا الجيش جملة من الجغرافيين والمؤرخين والمختصين في مجال علم النبات والتربة والحيوان[4].

ان هذه الحملة العسكرية الكبيرة والشاملة كانت ايضا تحتوي على سجل رسمي يتم فيه تدوين جميع الامور المتعلقة بالحملة والتي تحدث يوميا وذلك في شكل جريدة تصدرها الهيئة الادارية للجيش[5].

هكذا اذن بدت استعدادات الاسكندر العسكرية قبل انطلاقه في حملته على الشرق وعندما حان موعد انطلاق الحملة كان الاسكندر يقوم بنظرة اخيرة يتفحص العتاد والمعدات فقام بمراجعة الخطط اللازمة لذلك في جو يسوده التعجب من قبل قواده الكبار "وعند مطلع كوكب السماك الرامح من سنة 442 الاولمبية[*] تحرك الجيش المقدوني سالكا طريق الملك باتجاه مياه الدردنيل وكان الاسكندر يسير

(1) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص58-59.

(2) المصدر نفسه .

(3) رستم ، اسد ، المصدر السابق ، ص21.

(4) العسلي ، المصدر السابق ، 58-59.

(5) باقر ، طه واخرون ، تاريخ ايران القديم ، المصدر السابق ، ص77.

(*) أي سنة 334 ق .م ، فقد بدات الالعاب الاولمبية سنة 776 ق .م .

في صفوف القطعات المتحركة وسط الغبار وجواره البيوكيفالس يسير وراءه وقد امسك سائسه بزمامه"[1].

2. عبور الاسكندر إلى آسيا وموقعة غرانيكوس :

تمثل معركة غرانيكوس اولى المعارك في عمليات الاسكندر العسكرية في اسيا الصغرى فهي المعركة التي مهدت السبيل لبقية المعارك الاخرى التي خاضها الاسكندر على ارض اسيا وممتلكات بلاد فارس ، وقد سبقت هذه المعركة مجموعة من الاجراءت التي قام بها الطرفان اليوناني والفارسي قبل بدء الحرب ، وتتمثل هذه الاجراءات في الجانب المقدوني باستدعاء القائد بارمانيون في عام 335 ق.م من سواحل البوسفور بصحبة عدد من جنوده وقد عمد هذا الاخير الى ترك حامية عسكرية على هذه السواحل[2].

وتجدر الاشارة الى ان بارمينيون هذا قد تم انفاذه في صحبة قوة عسكرية استطلاعية منذ عهد فيليب الى سواحل البسفور باعتباره اكفأ الجنود واحسنهم قيادة بهدف حماية سواحل البسفور وكان على راس جيش يصل عدده الى حوالي 40000 جندي بين خيال وراجل[3].

امر الاسكندر القائد بارمينيون بالاستعداد لعبور الدردنيل (الهلسبونت) وفي هذه الاثناء قام بتقديم قربان يتمثل في ثور الى الالهة[4] ثم قال "سنزحف على اسيا مع بزوغ النجم السماك وان الخطط موجودة لديكم فاجلبوها"[5] "ووقف ينظر طويلا الى افق البحر الذي قد يكون في الحقيقة معاديا معاديا ولكنه قد يجد وراءه بعيدا في الشرق جبال البرايا نيسادس"[6].

نجد على الطرف الثاني في المواجهة العسكرية المرتقبة الجيش الفارسي، الذي كانت احواله "خاضعة لظروف نظام الارض السائد لدى الفرس لا في اسيا الصغرى فحسب بل في سوريا الشمالية وارمينيا وربما في جميع انحاء ايران كلها، وكان الفرس قد تخلوا عن اسلوبهم القديم المتبع في نظام الحرب وهو الذي كان يقوم على نشر الاضطراب واشاعة الفوضى في صفوف العدو وصب نار النبال والسهام على حشوده ثم الانقضاض عليه بعد ذلك بقوة الفرسان وكان رماة النبال والسلاح من الفرس قد اصبحوا سلاحا ثانويا ، على ان الامبراطورية كانت تزخر بخير القوات من الفرسان في حين

(1) لامب ، هارولد ، الاسكندر المقدوني ، ترجمة : عبد الجبار المطلبي و محمد ناصر الصانع ، بغداد ، 1965، ص118-119.

(2) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص61.

(3) Hogarth, D. G., The Ancient east , London 1945 , P 209.

(4) سرقس ، بحرجي ديمتري ، المصدر السابق ، ص217-218.

(5) لامب ، هارولد ، المصدر السابق ، ص114.

(6) المصدر نفسه، ص114.

الفصـــل الثالث
الفتوحات الخارجية
وتكوين الإمبراطورية الرومانية

أولاً : فتوحات روما داخل شبه الجزيرة الإيطالية :

١ – استسلام كمپانيا : (Campania) :

نجحت روما بأسلوبها المتميز في تحييد أعدائها أو بالقوة المسلحة مالم تنفع الوسائل الدبلوماسية فى إقناع كمپانيا بإلغاء تحالفها مع اللاتين ضد روما وتوصلت معها إلى عقد صلح منفرد ومنحت أهلها حق التعامل معها والزواج منها . كما ذهبت إلى أبعد من ذلك فأعطت بعض مدن كمپانيا حقوق المواطنة المدنية .

فأصبحت تلك المدن مثل كوماى (Cumae) جزءاً من روما بعد فشل مدن الوحدة اللاتينية، عقب ثورتهم في ٣٤٠ ق.م ضد روما وانهزامهم هزيمة ثقيلة عند جبل ڤيزوڤيوس (Vesuvius) عام ٣٣٨ ق.م .

وهكذا ردّت روما الصفعة صفعتين على وجه مدن العصبة اللاتينية ونجحت فى تحييد كمپانيا ، بل وكسبتها إلى جانبها ، ووجدت نفسها سيدة على منطقة فسيحة غنية فى جنوب إيطاليا الغربى وكذلك على جميع مدن إقليم لاتيوم .

٢ – الحروب السَّمْنِيَّة[١] :

نشب صراع مرير بين روما من ناحية وبين سكان المرتفعات الوسطى من شبه الجزيرة الإيطالية ، رجال الجبال أولئك وهم جماعات معروفة بقوتها وقسوتها ، ويسمون باسم (Samnites) استمرت تلك الحروب علي ما يقرب من ثلاثين عامًا : فالحرب السمنية الأولى استمرت من ٣٤٣ – ٣٤١ ق.م ، أى حوالى عامين ، بينما الحرب السمنية الثانية من ٣٢٧ – ٣٠٤ ق.م ، حوالى (٢٣) عامًا ، ولكن الحرب الثالثة بينهما استغرقت حوالي ثمانى سنوات فيما بين ٢٩٨ و ٢٩٠ ق.م .

---

١ – عن هذه الحروب وتأريخها ونتائجها على روما وسيادتها الكلية على وسط إيطاليا راجع :
Grant,M., History of Romem Great Britain 1978-79, pp. 52-56& Petrie, op cit., pp.21-23 .

وأهم ما يذكر من حلقات ذلك الإصرار العظيم من روما ، علي بسط نفوذها وسيطرتها على كل إيطاليا القديمة ، بما فيها سكان المناطق الجبلية ، تلك الموقعة المعروفة باسم موقعة الخَـنْـق (Fauces) عام ٣٢١ ق.م حيث فشل الرومان فى هزيمة القائد السامنى بنتيوس (Pontius) وأملى شروطه على القنصلين الرومانيين ، قائدى الجيش الرومانى . وما أن عاد القنصلان إلى روما لإقرار الاتفاق الذى وقعاه مع القائد السمنى ، حتى رفضه رجالات السناتوس وأجبروا القائدين الرومانيين على العودة لتسليم نفسيهما إلى القائد السمنى ليفعل فيهما ما يشاء . وما كان منهما إلا الطاعة والتنفيذ ، وهما يعلمان جيداً بأنهما هالكان لا محالة .

٣ - إخضاع الإغريق فى جنوب إيطاليا :

كان الساسة الرومان ، فى روما القديمة بعيدى النظر ويعرفون أصول الدبلوماسية الحقة ، فاتخذوا أول خطوة لفصل إغريق الجنوب عن القبائل السمنية القوية فى وسط إيطاليا ، وذلك بإنشاء مستعمرة ثنوسيا الكبيرة .

ولما كانت تارنتوم (Tarentum) هي أقوى المدن الإغريقية وأكثرها ثراء وخصوبة ، فقد حاولت روما أن ترجئ الدخول فى صراع مباشر معها ، ولاسيما أنها دائمة الاتصال بالممالك اليونانية فى بلاد اليونان ذاتها لتضمن حماية نفسها من الإيطاليين . وحدث أن استعانت تارنتوم بملك يوناني ، وكان يتشبه بالإسكندر المقدونى ، ويدعى بيرّوس (Pyrrhus) الـذى كان ملكًا على عرش إبيروس (Epirus) فى شمال غرب اليونان . وحاول هذا الملك أن يقوم بدور محرر الإغريق فى الغرب ، ولكنه اصطدم بروما الفتية ، ودخل معها ثلاث معارك تارة ينتصر وتارة ينهزم ، ولكنه فى النهاية خرج مهزومًا شر هزيمة عند بنڤنتوم (Beneventum) فى إقليم سمنيوم (Samnium) عام ٢٧٥ ق.م حتى ضُرِبَ به المثل فى تحقيق الانتصارات الباهظة الثمن والفادحة الخسائر وبالتالى الأقرب إلى الهزيمة[١] وسقطت تارنتوم بهزيمة حاميها بيروس ، ودخلت فى حظيرة روما القوية منذ ذلك التاريخ .

٤ - إخضاع شمال إيطاليا :

لقد تأخرت روما في شمال إيطاليا ، حتى مطلع القرن الثانى ق.م . وذلك لأنه كان مسرحًا للعمليات الحربية بين أقوى عدو لروما آنذاك وهو هانيبال (Hannibal) القرطاجى ، الذى كان

---

١ - شاع فى اللغة الإنجليزية تعبير (Pyrrhic Victory) وذلك لضرب المثل بتلك الهزيمة الثقيلة فى التاريخ القديم ، كثمن فادح لانتصار وهمى .

يحارب روما من الشمال ويحتفظ بإقليمين فيه . ولكنه بهزيمة هانيبال النهائية ورحيله من الشمال فى عام ٢٠٣ ق.م استسلمت لروما كل مدن وأقاليم الراين الهام من شبه الجزيرة الإيطالية . وكعادة روما فى الفتوحات الخارجية ، أقامت هنا كذلك عدة مستعمرات رومانية ولاتينية ، لتأكيد سيادتها ونفوذها ولضمان الولاء لها كما أنشأت عدداً من الطرق العامة المعبدة ، مثل طريق اميلوس (Aemilius) والذى أنشىء عام ١٨٧ ق.م ، وطريق كاسيوس (Via Cassia) عام ١٧١ ق.م ، وذلك لتسهيل الاتصال بروما عبر إتروريا وحتى وادى نهر البو . ولم تنس روما إنشاء قاعدتين بحريتين عند لونا (Luna) وجنوه (Genua) بعد هزيمة الغال فى عام ٣٢٠ ق.م .

روما سيدة إيطاليا :

وهكذا فإن روما ، حوالى نهايات القرن الثالث وبدايات القرن الثانى ق.م ، كانت قد غدت زعيمة لاتحاد إيطالى ، يمكن وصفه بأنه كان اتحاداً فيدرالياً ، يقوم على :

١ - عقد المعاهدات بين المدن الإيطالية وروما فقط ، وليس بين المدن الإيطالية وبعضها البعض مع احتفاظ كل مدينة بحكومتها وقوانينها الخاصة .

٢ - كان السناتوس الرومانى ، فى روما فقط ، يقوم بدور مجلس الاتحاد الفيدرالى ، ويصرِّف كل أمور هذا الاتحاد فى شتى الموضوعات والعلاقات ، سواء ما يتعلق منها باللاتين أو الإيطاليين أو إغريق أو غال .

٣ - كان الاتحاد الرومانى ذو طابع عسكرى بالدرجة الأولى إذ كان على المدن الأخرى أن تضع جميع مواردها العسكرية تحت تصرف روما فى أى وقت تشاء . وهكذا كانت إيطاليا كلها قوة محاربة تحت قيادة روما ، التى كانت تتصرف بحرية كاملة باسم هؤلاء جميعاً وثبت ذلك فى كل القضايا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

أما الشكل الاجتماعى والإدارى لهذا الاتحاد فيمكن إيجازه فيما يلى :

أولاً : المواطنين الرومان (Cives Romani) :

أ - وكان بعضهم يتمتع بكامل الحقوق المدنية والسياسية كذلك ويعرفون بطبقة (Cives optimo iure) وكانت تلك البلاد تسمى ببلديات الشعب الرومانى (municipia civium Romanorum) .

أو فى المراكز والقرى التابعة لتلك المدن أو المستعمرات الرومانية ، التى كان يتألف سكانها من المواطنين الرومان (coloniae civium Romanorum) وكانوا هم الوحيدون الذين يعفون من الخدمة العكرية لأنهم يدافعون عن مستعمراتهم أصلاً .

ب – وكان البعض الآخر لايتمتع بكامل حقوقه السياسية وهم المعروفون باسم (Cives sine suffragio) مثل الحرمان من حق الاقتراع أو الترشيح .

ثانيًا : الحُلفاء (الأجانب :Peregrini) : –

أ – الحلفاء اللاتين (Socii Latini)

وهم أشد سكان إيطاليا صلة بروما وأكثرهم ولاء لها . وكانوا يقيمون فى المستعمرات اللاتينية القديمة ، وكان لهم حق التزوج إلى روما لاكتساب الجنسية الرومانية بشرط ترك أبناء لهم فى سن الجندية ولكنهم لم يكونوا يخدمون فى الفرق الأساسية للجيش الرومانى (Legiones) بل كانوا يؤلفون وحدات خاصة مساعدة (Auxilia) من المشاة (cohortes) أو الفرسان (Alae) .

ب – الحلفاء الإيطاليين (Socii Italici)

وكانوا يشملون بقية سكان شبه الجزيرة الإيطالية من وأجناس أخرى مثل الأومبرى (Umbri) والأتروري (Etruri) والإغريق (Graeci) وكانت كل جماعة أو قبيلة (Tribus) منهم ترتبط مع روما بمعاهدة خاصة (Foedus) .

وجدير بالذكر أنهم كانوا مدنًا حرة مستقلة فى شئونها الداخلية فقط (Ligerae) ذات دساتير وتظم خاصة ، ولم تكن تدفع لروما أى نوع من أنواع الضرائب ولكنها كانت ملتزمة بمساعدة روما العسكرية ، وتخضع لسياستها الخارجية . كما أن المدن الإغريقية ، فى جنوب إيطاليا ، كانت معفاة من الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى ، لأنها كانت ملزمة أن تمد الأسطول الرومانى بالسفن والملاحين ، مما أطلق عليهم اسم الحلفاء البحريين (Socii navales) .

هكذا ، تجد مرونة السياسة الرومانية ، تتشكل مع كل ظروفها ، وتتأقلم ، بل وتتغير لتتلاءم مع كل موقف تفرضه عليها الأحداث والعلاقات مع الشعوب الأخرى التى خضعت لسيادتها وزعامتها .

وهكذا ، أيضًا ، بدأت روما تخطو خطوات واسعة وعملية نحو تنفيذ مخططاتها التوسعية تحقيقًا لاختيارها الصعب الذى فرضته على نفسها وعلى أجيال عدة ، من بعدها ..

فهل نجح التحدى الرومانى خارج إيطاليا كذلك ؟ .

ثانيًا : فتوحات روما خارج إيطاليا وتكوين الإمبراطورية الرومانية :

إننا هنا - فى هذا المجال - لن نتناول بالشرح والتفصيل معارك روما وانتصاراتها الخارجية وسنكتفى بعرض سريع موجز لفتوحات تلك الدولة الفتية ، التى أثبتت مقدرتها على التصدى وتحقيق طموحات قادتها وسياستها فى تدمير أعظم قوى ذلك الزمان ، ألا وهى قرطاجة تلك المملكة التى كانت يومًا ما حليفًا لها ، ولكن سوء النية عند الرومان ، وحقدهم على نفوذ وثراء قرطاجة ، جعلهم يأخذون موقفًا غريبًا ، من حادثة صغيرة ، حول مدينة "ميسانا"(Messana) فى صقلية ، وأصبحوا هم أعداء لقرطاجة مما فرض عليهم حروبًا طويلة، لم يفطن الرومان إلى خطورة أوزارها على مجتمعهم نظراً لسوء تقديرهم وعظم طمعهم.

ويعلل الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على[١] هذا الموقف الغريب للرومان من حليف آخر ، هو الملك ، هيرون فى صقلية ، تعليلا مقنعًا للغاية ، فيقول :

" إن نزعة النظام والطاعة فى الداخل ، لم تولد فى نفوس الرومان روح العدالة والشرف عندهم وعند تعاملهم مع الأجانب ، لأن نظرتهم العملية إلى الحياة ، وهى نظرة لا تتضمن العقل أو تهذيب الشعور ، لم تساعد على تنمية السلوك النبيل إلا مع بنى جلدتهم . وليس فى معنى كلمة ڤيرتوس[٢] (Virtus) التى تعبر عن واجبات المواطنين العملية ما يوحى بشرف التعامل خارج دائرة المواطنين ، فالمثل العليا تحتاج إلى شئ من الخيال لتجد لها مكانًا فى الحياة العامة وكان الطابع الغالب عالى الدبلوماسية الرومانية هو « الإلتواء » وسنلمس دائمًا روح الشدة ، التى كثيراً ما تبلغ حد القسوة فى سلوك الرومان إزاء العدو والمغلوب " .

لقد دخلت روما الحرب مع قرطاجة على ثلاثة مراحل :

١ - الحرب البونية[٣] الأولى (٢٦٤ - ٢٤٢ ق.م) .

٢ - الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) .

٣ - الحرب البونية الثالثة (١٥١ - ١٤٦ ق.م) .

---

١ - روما - الجزء الأول - تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩٩ .

٢ - وحول المضامين السلوكية لهذه اللفظة عند رجالات روما الجدد (Novus Homo)في مقابل عراقة الأصل وتصرفات النبلاء وفق مشاعر التعالى والسمو (Nobilitas)، راجع الطبقة الغربية لهذه المفاهيم عند Earl,D., The Moral and Political Tradituon of Rome, Thames and Hudson, England 1967, : pp. 20 - 58 .

٣ - سميت تلك الحروب بالحروب البونية نسبة إلى التسمية اللاتينية لهذه الحرب (Bellum Punicum) التى اشتقت من الصفة (Punicus) وتعنى قرطاجى ، أو " ذو لون أحمر أرجوانى " .

وكانت قد حققت فى المرحلة الأولى السيادة البحرية على غرب إيطاليا وحول صقلية ونسمع خلالها قصة القائد الرومانى «Regulus» الذى كان قد وقع فى الأسر بين يدى القرطاجيين وكيف أنه أوفى بوعده وشرف كلمته أثر قيامه بإقناع السناتوس بشروط قرطاجة وعاد فسلم نفسه أسيراً حيث لقى حتفه ، ضاربًا المثل على الفداء والتضحية (devotio) فى سبيل وطنه وكرامته (١).

وفى المرحلة الثانية ، استطاعت روما أن تهزم قرطاجة فى موقعة (Zama) زاما بشمال إفريقية عام ٢٠٢ ق.م بعد سلسلة طويلة من تبادل الهزائم والانتصارات بين قادتها وبين هانيبال(٢) القائد القرطاجى العظيم الذى أوقع بالجيش الرومانى أفدح الخسائر فى موقعة كنّاى (Cannae) عام ٢١٦ ق.م . تلك المعركة التى أصابت المجتمع الرومانى بالشلل والفزع التام ولفت سياسته بالحيرة وألبستهم رداء الشك والقلق على مصير دولتهم . فلجأوا وهم فى حالة الفزع " فزع دينى " إلى الآلهة لإرضائها ، لعلها تكشف عنهم تلك الغمة ، والكارثة العظيمة (٣).

ولكن روما ، بزعامة السناتوس القوية الصارمة ، والهادئة كذلك ، استطاعت أن تضمد جراحها بأسرع ما يمكن ولم تمض شهور على أعظم خسارة حلت بها ، حتى كانت أمورها تسير سيرها الطبيعى ، وقد خلقت من الهزيمة نصراً جديداً ، على نفسها وعلى عدوها ، فحققت نصراً كبيراً فى موقعة ميتاوروس (Metaurus) على هَاسْدرُوبال أخى هانيبال ، الذى قُتل فى الميدان عام ٢٠٧ ق.م ، وذلك بعد نجاح روما فى الذود عن نفسها ، وصد هجمات هانيبال نفسه عن أسوار المدينة فى عام ٢١١ ق.م .

أما المرحلة الثالثة ، فقد تمكنت روما من تدمير مدينة قرطاجة ذاتها وتم تحويلها إلى ولاية رومانية ، ضمن أملاك الشعب الرومانى أى (Provincia) فى عام ١٤٦ ق.م ، على يد

---

١ – ويذكرنا هذا بقصة المضيفة المصرية ، شادية ، التى كانت همزة وصل بين مختطفى الطائرة المصرية (بوينج ٧٣٧) فى مطار فاليتا بمالطة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٨٥ ، وكيف أنها خرجت من الطائرة لتوصيل شروط المختطفين والتفاوض مع مسئولى المطار وعودتها بكامل إرادتها إلى الطائرة مرة ثانية بالرغم من أو ذلك كان يعنى إنهاء مصيرها . وكان قدرها كذلك .

٢ – وتعنى الفنيقى ذلك لأن قرطاجة (Carthago) كانت مستعمرة فينقية ، أنشئت فى أوائل القرن ، ق.م ، ولمزيد من المعلومات عن عبقرية هانيبال الحربية ، أنظر/ بسام العسلى : هانيبال القرطاجى ، المؤسسة العربية ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ – أقرب مثل لتلك الكارثة هى نكستنا نحن فى عام ١٩٦٧ ، حيث فقدنا حوالى ٨٠٪ من أسلحة جيشنا وما يقرب من ١٠٠ ألف من الجنود والضباط ما بين قتيل وجريح ومفقود . وقد استعدنا ثقتنا بأنفسنا بعد ٦ سنوات وحققنا نصراً عسكريًا غاليًا على إسرائيل فى ١٩٧٣ . لقد فقدت روما كذلك فى عام ١٦ ق.م حوالى ٨٠ر٠٠٠ أو (٥٠ر٠٠٠) جنديًا رومانيًا وبدت وكأنها لن تقوم لها قائمة بعد ذلك .

القائد الرومانى العظيم سكيبيو أيْميليانوس (Scipio Aemilianus) الذى استولى عليها بعد حصار دام (١٥) شهراً ، وتم تدميرها تدميراً كاملاً عام ١٣٣ ق.م .

إننا هنا فى هذا القسم من دراستنا عن الفتوحات الرومانية الخارجية لن نتعرض لموضوعاتنا تفصيلاً ، ذلك لأن تلك التفاصيل والمعارك التى دارت بين القوات الرومانية وأعدائها ، لايجب أن تلهينا عن الصورة العامة للشعب الرومانى ، والآثار التى ترتبت على هذه الصراعات الحربية ، الطويلة سواء سلبًا أم إيجابًا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية من ناحية وعلى الحياة السياسية فى روما ، من ناحية أخرى ، وهذا فى حد ذاته هو الاتجاه الصحيح والحديث فى نفس الوقت ، لدراسة التاريخ بفروعه المختلفة .

ولكننا ، برغم ذلك ، وزيادة فى الفائدة ، سنعرض عرضًا سريعًا وموجزاً للغاية ، فى تسلسل تاريخى ، كلما أمكن ذلك للتوسعات الرومانية الخارجية ، حتى نتعرف على حجم المجهودات الضخمة التى بذلتها روما لتكوين إمبراطورية خارجية . لقد دخلت روما ميدان الحرب فى أكثر من جبهة فى آن واحد ، مما فرض عليها إرسال الجيش فى كل اتجاه ، وزاد ، بالطبع من أعباء الدولة والمواطن الرومانى على الخصوص .

أولاً : لقد حققت القوات الرومانية ، بعد معارك كثيرة ، انتصاراً غاليًا على يوجورتا ، أمير مملكة نوميديا (الجزائر تقريبًا) ، عقابًا لها على انحيازها مع القرطاجيين ضد روما فى موقعة زاما عام ٢٠٢ ق.م ، فلم تنس لها روما ذلك ، ودخلت فى حروب مستمرة مع هذا الإقليم فى شمال غرب إفريقيا إلى أن تم القضاء على يوجورتا[١] آخر أعداء روما فى المملكة عام ١٠٤ ق.م ، بعد أن دوخ هذا الأمير ، الإفريقى ، القادة الرومان فى حرب عصابات ، والساسة الرومان ... بأساليبه الملتوية ، فأوقعوه فى الأسر وزجوا به فى السجن حيث قُتِل. وكانت مكافأة القائد الرومانى العظيم ، ماريوس بأن رشحه الشعب الرومانى بإصرار ، قنصلاً لعام ١٠٤ ق.م ، للمرة الثانية رغم تناقض ذلك مع الدستور الرومانى ، بل إنه ظل فيها لمدة ٥ سنوات متوالية (١٠٤ - ١٠١ ق.م) نظراً لثقة الشعب الرومانى فيه وفى قيادته ثقة مطلقة ، فضلاً عن إنجازاته العسكرية والتفاف قادته العسكريين حوله وإيمانهم الشديد بزعامته

---

١ - بلغت جرأة يوجورتا أنه دبر مؤامرة لخصم له فى روما ذاتها لأنه كان ينافسه على عرش نوميديا . ولما كشف أمره أمرته الحكومة الرومانية بمغادرة روما والعودة إلى بلاده ، عندئذ قال قولته المشهورة عن مدينة روما عام ١١ ق.م . (Sallustius, Bellum Iugurthinum, XXXV, 10) مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة، إلا إذا وجدت من يشتريها (المشترى Lat) "Urbem venalem mature peviturам si emptorem . invenerit"

لهم وولائهم له فى الوقت الذى ساءت فيه سمعة رجال السناتوس ورشوتهم وهزيمة قوادهم فى أسبانيا وشمال إيطاليا أمام قوات القبائل الجرمانية الجائعة عام ١١٣ ق.م ، فكانت فرصة طيبة لظهور نجم ماريوس وتكوين جبهة شعبية ديموقراطية (Populares) بزعامته فى مقابل الحزب الأرستقراطى (Optimates) الذى قلت هيبته وتزعزت أركانه .

ثانيًا : كسر شوكة مملكة پنطوس (Pontus) على سواحل البحر الأسود وهزيمة مثراداتيس (Mithradates) ، الذى أثار متاعب جمة للإيطاليين والرومان المقيمين فى آسيا الصغرى ، عندما أعلن الحرب على روما منتهزاً فرصة إنهماكها فى داخل إيطاليا مع جيرانها من القبائل الإيطالية المختلفة . وقد زاد من قوة هذا الملك (اليونانى) تحالف كثير من المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى معه ومناشدة الشعب الأثينى نفسه ، فى عام ٨٨ ق.م لذلك الملك أن يخلص أثينا من حكومة الأقلية الموالية لروما . ولكن سوللا (Sulla) ، القائد الرومانى الكبير ، استطاع أن يحاصر مثراداتيس ، وبمساعدة قواده الآخرين ، وبهزمه فى البر والبحر مما أجبره على عرض الصلح الذى تم وفقًا للشروط الرومانية ، فى سنة ٨٥ ق.م .

ولكن مثراداتيس لم يهدأ ولم ينس أحلامه الماضية التى أجبر على التخلى عنها ، ولكن إلى حين لأنه عاد إلى مسرح الأحداث ، ومعه هذه المرة قراصنة من كيليكيا (Cilicia) ، شمال شرق البحر المتوسط ، وكانوا قد اعتادوا أن يغيروا على السفن التجارية الرومانية ، بل على سواحل إيطاليا نفسها ، يخطفون الأهالى ويبيعونهم فى أسواق الرقيق . فأراد السناتوس أن يوقف هذا العبث بمصير الرومان والإيطاليين ، فأوفد حملة ضد هؤلاء فى عام ٧٧ – ٧٥ق.م ، ولكنها لم تنجز مهمتها كاملة .

ولما آلت مملكة بيثينيا (Bithynia) إلى الرومان بناء على وصية ملكها عام ٧٥ ق.م ، وتحولت إلى ولاية رومانية خاف ميثراداتيس على مملكته التى تقع فى شمال تلك المملكة ، من الحصار الرومانى له فى بحر الدردنيل (Helles Pontus) والبسفور (Bosporus) وحَرَّض ابن ملك بيثينيا ضد الرومان . ولكن الرومان أوفدوا للبيثينيين أكثر من جيش ، كان أحد قواده يحمل سلطة حربية مطلقة (Imperium Infinitum) فى البحر المتوسط للقضاء على القراصنة فى أى مكان فيه . وحقق الرومان نصراً أكيداً هذه المرة على ذلك الملك المشاغب فى عام ٧٢ ق.م ، وفر الملك تاركًا مملكته للرومان ولجأ إلى أرمينيا .

الفلسفة والعلوم

لم يكن ظهور الفلسفة والعلوم في المجتمع اليوناني على يد أفراد من الفلاسفة بقدر ما كان في صورة العديد من المدارس الفلسفية التي حمل لواءها الفلاسفة والمفكرون، ونتج عن كل منها العديد من الأفكار الفلسفية والعلمية.

ويمكن أن نميز بين هذه المدارس الفلسفية " مدرسة ميليتوس" التي كان ينتمي اليها كل من " طاليس " و" انيكسماندر "، وكذلك المدارس الأخرى التي ظهرت في القرن السادس ق.م في شتى المدن اليونانية سواء في بلاد اليونان الأصلية أو في جنوب ايطاليا، حيث ظهر عالم الرياضيات الشهير " فيثاغوراث "، والذي ربط بين الفلسفة والرياضيات، وكان أول من وضع حقائق الحياة في صورة معادلات رياضية.

واذا انتقلنا إلى القرن الخامس ق.م فسوف نجد " هيراكليتيس " الى ظهر في مدينة السوس في مطلع هذا القرن، وهو صاحب نظرية التغير المستمر في الكون، وأن أساس هذا الكون هو التفاعل، وأن صور هذا التفاعل هي الانماط الطبيعية التي نجدها حولنا مثل الأنهار والأرض والمطر.

وفي منتصف القرن الخامس ق.م ظهر فيلسوف آخر هو " امبدوكليس " في جزيرة صقلية، وله آراء حول طبيعة العالم أوردها في فلسفته، ويرى أن الكون يتكون من اتحاد عناصر أربعة هي الماء والهواء والنار والتراب.

وقد بدأ التمايز بين العلم والفلسفة بداية من القرن الخامس ق.م، وذلك في الفترة التي بدأت فيها أثينا في الاهتمام بالتوسع السياسي والتجاري، وازدادت اهتمامات المواطنين السياسة والاقتصادية، وأدى هذا الوضع إلى ظهور طائفة من الفلسفة تحترف تعليم المواطنين شئون السياسة وتدريبهم على الخطابة، وهي طائفة السوفسطائيين، وقد تميز هؤلاء الفلاسفة بتوجههم إلى التعليم أكثر من الفلسفة.

وسوف نتناول فيما يلى أهم الفلاسفة الذين ظهروا فى بلاد اليونان فى الفترة ما بين القرن الخامس والرابع ق.م.

سقراط

ولد فى الثلث الأخير من القرن الخامس ق.م، وهى الفترة التى شهدت انتصار المدن اليونانية بقيادة أثينا على الفرس، وبداية تكوين الامبراطورية الأثينية، وزعامة أثينا السياسية والعسكرية للمدن اليونانية فى ظل حلف ديلوس.

شهدت أثينا فى هذه الفترة ازدهارا كبيرا فى الأداب والفنون والفلسفة، وكان سقراط واحدا من الفلاسفة الذين أسهموا بقدر كبير فى الفلسفة اليونانية فى ذلك الوقت، وقد امتاز سقراط عمن سواه من الفلاسفة بشخصية فريدة ، وكان أكثر من استخدم اسلوب الحوار وصولا إلى الحقائق التى يهدف اليها، وامتاز أيضا بالابتعاد عن السبل التقليدية فى الوصول إلى الحقيقة، كما أنه لم يكن يلتزم بأسلوب واحد فى تلقين المجتمع الأثينى أصول فلسفته.

كان سقراط يعتمد بشكل أساسى على ادعاء الجهل، ويبدأ فى اقامة حوار مع أى شخص انطلاقا من فرضية الجهل هذه، ثم يمضى فى الحوار حتى يكشف لمن يحاوره عن جهله، ثم يبدأ بعد ذلك فى وضع الأفكار الصحيحة أمامه بعد أن يصل به إلى التعريف الصحيح للأمر الذى يحاوره بشأنه.

وأيا كان أمر سقراط، فان المجتمع الأثينى فى هذه الفترة لم يكن مهيئا لتقبل هذا الاسلوب، واعتبره الساسة والحكام اخلالا بالقيم والمعتقدات الثابته فى المجتمع، واعتبروا أن محاورات سقراط واسلوبه هذا يعد تخريبا لعقول الشباب، وهكذا حوكم سقراط بهذ التهمة، وادين، وحكم عليه بالاعدام.

ورغم الظلم الذى أوقعه المجتمع الأثينى بساحة هذا الفيلسوف، فانه قد رفض حتى اخر لحظة من حياته أن يخرج عن شرعية هذا المجتمع، وفضل أن يموت

بحكم ظالم على أن يهرب من سجنة بمساعدة تلاميذه كما عرضوا عليه، وقد تم اعدام سقراط فى العام الأول من القرن الرابع ق.م

أفلاطون

رغم اختلاف الوضع بين سقراط وأفلاطون،ووجود تراث مكتوب خلفه أفلاطون وراءه من الأفكار الفلسفية فى شكل محاورات على العكس من سقراط الذى لم يخلف مثل هذا التراث، ورغم أهمية أفكار أفلاطون ومحاوراته وفلسفته، فان هذه الافكار والفلسفة تميزت بالازدواج والتعارض مع العلم.

وقد احتفظ تلاميذ أفلاطون بأصول مدرسته الفلسفية، ولكنهم عجزوا عن الاضافة لهذه الفلسفة أو الأفكار التى تتضمنها وتطويرها، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن فلسفة أفلاطون كانت تقوم على الغيبيات، وذلك ما جعل منها فلسفة غير قابلة للتطوير.

ولعل الفرع الوحيد الذى أمكن تطويره بعد ذلك من فروع مدرسة افلاطون الفلسفية هو فرع الرياضيات، فقد كانت الأفكار المتصلة بهذا المجال تتسم بالطابع العلمى مما جعل منها فكرا قابلا للتطوير.

أرسطو

أسس أرسطو " اللوكيوم " بعد أن ترك أكاديمية أفلاطون التى كان أحد تلاميذها، وقد أسس مدرسته هذه فى منتصف القرن الرابع ق.م، وتوصل من خلالها إلى نتائج بارزة فى مجال الفكر التاريخى وعلم الأحياء، واختلف بذلك عن أفلاطون الذى ترك وراء تراثا غير قابل للتطوير.

وقد امتد تراث مدرسة أرسطو حتى العصر الهلينستى، وتتوجت انجازات مدرسته فى شتى فروع العلم من الطب والتشريح، وحتى قواعد اللغة والموسيقى، ومرورا بالفلك والجغرافيا والرياضيات وغيرها.

وقد كان أرسطو أستاذا ومعلما للاسكندر المقدونى، وكان يعمل فى بداية يومه بتعليم مجموعة من الطلبة المنتظمين، ثم يقوم فى نهاية اليوم بإلقاء محاضرات عامة.

وقد استطاع أرسطو أن يضم إلى مدرسته مكتبات ومعامل ومناهج بحث منظمة، بعد أن كلف بعض أعضاء اللوكيوم بكتابة تاريخ شتى أنواع المعرفة، كل فى تخصصه.

وقد نتج عن مدرسة أرسطو تطورات سريعة وآراء متباينة خاصة بمن كانوا ينتمون اليها، وكان ذلك نتيجة طبيعية للمنهجية وحرية الفكر التى امتازت بها هذه المدرسة الفلسفية الكبرى.

3. موقعة ايسوس (333 ق.م) واحتلال سوريا ومصر :

واصل الاسكندر بعد انتصاره في معركة غرانيكوس مسيره نحو الجنوب وقد اتخذ سهل ايسوس الضيق الذي يؤدي اتجاهه الى سوريا ، وفي هذه الاثناء تمكن الملك الفارسي دارا الثالث (335-331ق.م) ان يسبق القائد المقدوني الى هذا الموقع[1] وقد سبق للاسكندر قبل ذلك أن اوكل الى بارمينيون مهمة استيلائه على الممرات المؤدية الى سهل ايسوس ، هذا السهل الذي عن طريقه يمكنه من احتلال سوريا واخضاعها مع بقية المناطق المجاورة لها وذلك نظرا لما يتمتع به هذا النهر من مكانة استراتيجية من الناحية العسكرية وفي اثناء ذلك تمكن الاسكندر من تأمين جناحه باستيلائه على مدن قيليقيا وتلال طرطوس الا ان الانباء التي وصلت الى الاسكندر جعلته يغير من خطته وذلك بأن انضم الى وحدات بارمينيون وترك ايسوس وحالها وفيها عدد كبير من جنوده من الجرحى والمرضى ويعد خبر سماعه دارا الثالث في أرض سوريا من الاسباب التي دفعته الى تغيير خطته[2] "وللتأكد من صحة هذه الانباء عقد الاسكندر جلسة مستعجلة مع القواد ثم خرج الى ضباط الافواج ليعلن لهم الانباء" وخاطبهم بقوله "انكم لم تروا الهزيمة ولن تهزموا الان"[3].

كان الملك الفارسي دارا يتجنب الالتحام مع الجيش المقدوني خلال تحركاته تلك الا أنه كان ينوي أن يشتبك مع الاسكندر وجيشه بالقرب من نهر بيناروس وهو مكان صغير لا يسع لاحتواء جيش ضخم كالذي اعده دارا[4].

وفي اثناء ذلك كان الملك الفارسي دارا الثالث يتعقب قوات الاسكندر محاولا رصدها فنزل في ايسوس حيث وجد عددا من المرضى والجرحى من جنود الاسكندر فأبادهم عن اخرهم "واصبح في وسع دارا ان يكره الاسكندر عن خوض المعركة ووجهه صوب قاعدة ارتكازه"[5] وعلى نهر بيناروس (Pinarus) تمركزت قوات دارا التي كانت تتألف من عدد كبير من الحرس والفرسان ورماة النبال فضلا عن مجموعة من المرتزقة الاغريق والكارداكيين وحيث وصل عدد الفرس إلى حوالي 600 الف مقاتل بضمنهم 30000 اغريقي مرتزق الا ان ذلك لم يثن عزم الاسكندر على خوض غمار الحرب بجيش وان كان اقل عددا من جيش دارا[6]. (ينظر شكل 1) .

---

(1) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص401.

(2) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص55-61.

(3) لامب هارولد ، المصدر السابق ، ص153.

(4) بترى . أ. المصدر السابق ، ص56.

(5) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص55-51 .

(6) المصدر نفسه ، ص55-61 .

سبق وان اشرنا الى ان الاسكندر قد اخضع اجزاء من قيليقيا بعد ان شفي من الحمى التي اصابته عندما كان بالقرب من طرطوس ، كما تمكن من انهاء حرب اهلية في ماليوس ، وقد وصلته الاخبار في حينها أن قوات دارا متواجدة في شمال سوريا بالقرب من حلب وتمركزت على رأس خليج ايسوس وعمد الاسكندر الى قيادة جيشه ما وراء نهر ميراندوس وسهل ايسوس املا ان يجبر دارا على التواجد في موقع ضيق لا يسمح لجنوده بحرية الحركة الفعالة[1] "وكانت الحالة هذه تشبه بعض الشيء تلك التي في غرانيكوس كما كانت الخطة العامة للهجوم واحدة من المعركتين"[2].

وقد ادرك الاسكندر الخطأ الذي وقع فيه دارا وجنوده ولذلك نجده يصرح امام جنوده قائلا "انكم لابد من ان تلتحموا مع خيالة وحكام اسويين ممن كانوا عند نهر الغرانيق، فستلتحمون هنا مع جيش من الفرس والميديين ، كامل العدة والعدد وعلى رأسهم الملك العظيم ، وستكونون محظوظين لانهم لا يستطيعون ان يستفيدوا من عددهم وعدتهم في هذه الجبهة الضيقة في حين تستطيعون انتم ان تستخدموا قوتكم الخارقة التي لا توازيها قوة، في ضربهم ، وعليكم الا تخشوا على الاجنحة لان البحر والجبال درعهم الحصين"[3].

وفي صباح الاول من نوفمبر عام 333 ق.م تقدمت قوات الاسكندر في شكل صفوف متراصة ومن ثمة اخذوا بالانتشار في خط واحد وهم يقتربون من نهر بيناروس ومرة اخرى كان جيش الاسكندر في اوج قوته، حيث يضم 40.000 راجل و 5000 فارس. منهم 3000 جندي مقدوني من المشاة و 2000 من المشاة الاخرين، اضافة الى 650 خيالا من مقدونيا وتيسالي واليس كانوا قد انضموا الى قوات الاسكندر عند فريجيا وقيليقيا[4].

في مقابل ذلك كان الجيش الفارسي تحت قيادة نابارزانيس (Nabarzanes) الذي يمثل بقواته القوة الضاربة الاساسية في الجناح الايمن للجيش وقد تمركز هؤلاء امام جناح الاسكندر الايمن بغية الهجوم عليه وتحطيم جيشه في ضربة واحدة، أما بالنسبة لرماة السهام فقد اتخذوا اماكنهم من جهة اليسار امام الكارداكيين في حين تموقع الجنود الخفاف في اقصى يسار جناح الاسكندر للالتفاف عليه وعرقلته عن الهجوم، اما دارا وحرسه الخاص فقد وقفوا خلف الوسط للجيش الفارسي، وقد سبق للاسكندر ان استولى على ممر يونان الاستراتيجي وعسكر فيه ذلك ان اخبارا وصلته تقول بأن قوات دارا الخاصة تتخذ مكانا لها وراء ظهره كان الاسكندر قد نظم صفوف جيشه بأن نشرها على خط قتال

(1) Hammond, N.G.L, op. cit, pp. 609 - 610.

(2) بترى ، أ ، المصدر السابق ، ص56.

(3) لامب ، هارولد ، المصدر السابق ، ص153.

(4) Hammond, N.G. L, op. cit, P. 606.

يمتد على طول السهل ، وتذكر بعض المصادر بأن قوات جيش الاسكندر في ايسوس كانت اقل عددا من تلك التي حارب بها في غرانيكوس[1].

وفي غمرة حماسة قال الاسكندر لضباطه وجيشه "خوضوا هذه المعركة وستجدون في النهاية الجزاء الاوفى واعلموا ان مهمتكم بعد هذه المعركة ستقتصر على احتلال الاراضي الاسيوية"[2].

وفي تشرين الاول من عام 333 ق.م بدأت المعركة بين الطرفين[3] وقد بدات بالاجريانيين الذين ردوا مجموعة من المقاتلين الفرس على اعقابهم الى التلول العالية وطاردوهم وقد ساعد ذلك الاسكندر على توجيه اوامره الى جيشه بالحركة صوب خطوط القتال وعلى اثر هجوم عنيف وكاسح قام به الاسكندر وخيالته تمكن من شل حركة النبالين ورماة السهام والكارداكيين الفرس وتشتيت فلولهم التي انهارت امام جحافل جيش الاسكندر[4].(ينظر شكل 2) .

وما ان رأى دارا ذلك حتى لاذ بالفرار من ساحة المعركة، تاركا وراءه عربته واسلحته وكنتيجة لذلك وقعت عائلته في الاسر وهي مكونة من والدته وزوجته وبنتاه كذلك استولى الاسكندر على قافلة تضم كنوزا كبيرة كان دارا قد ارسلها قبل ايسوس الى دمشق بهدف حمايتها، وفي الوقت الذي قيل للاسكندر بأن هذه عائلة دارا بعث بليونانيس ليقول لهم بأن دارا لا يزال حيا وسيعامل معاملة محترمة تليق بالملوكية[5]، وفي اليوم التالي ونظرا للعدد الكبير من الجرحى في صفوف جيشه والذي وصل الى حوالي 4000 شخص فانه قام بزيارتهم في حين قام بدفن 450 من القتلى، اما خسائر الفرس فلم تكن معلومة[6]. اما الاسكندر نفسه فقد أصيب بطعنة سيف في فخذه[7]. ادت معركة ايسوس الى نتائج هامة كان لها الاثر الواضح على سير الاحداث في اسيا والشرق ومنها انسحاب دارا وقواته وسقوط سوريا في يد الاسكندر واسر أسرة دارا بكاملها كما سبقت الاشارة الى ذلك، كما افضت معركة ايسوس بانضمام مختلف الاحزاب والحركات المعادية لمقدونيا الى صف الاسكندر وابدت تأييدها له[8].

(1) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص55-61.

(2) لامب ، هارلود ، المصدر السابق ، ص153.

(3) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص64-69 .

(4) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر، المصدر السابق ، ص64-69.

(5) Hammond, N.G.L, op. cit, P. 330.

(6) Botsford, G. W , op. cit, P. 280.

(7) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص401-402.

(8) المصدر نفسه .

اضافت معركة ايسوس ايضا عاملا غاية في الاهمية وهو ان المرتزقة الاغريق قد غادروا بلاد فارس عموما والاف منهم عبروا البحر الى بلاد اليونان خلال فصل الشتاء، فضلا عن ذلك اصبحت ابواب اقاليم غرب الفرات مفتوحة امام الاسكندر وقواته[1] .

وبعد انتصاره في معركة ايسوس اراد الاسكندر ان يوطد تواجده في سوريا والمناطق التي اصبحت تحت سيطرته فاوكل مهمة حماية خطوط المواصلات والمدن التابعة له الى مجموعة من القادة الكفوئين ثم اتجه نحو "الساحل السوري لحجب اية مساعدة عن الاسطول الفارسي المسيطر على بحر ايجه"[2] .

تابع الاسكندر زحفه باتجاه الساحل لغرض محاربة الاسطول الفارسي على الارض، وخلال مسيره رفض العرض الذي تقدم به الملك دارا[3] مفضلا متابعة غزو الامبراطورية الفارسية على الصلح الصلح خاصة وان الظروف الصعبة التي بدأ يلقاها التواجد الفارسي في الساحل السوري وقيام بعض حركات التمرد في وجهه نتيجة تقهقره امام المد المقدوني قد شجعت الاسكندر على المضي قدما في تطبيق مخططاته[4] وبالفعل وعند اقترابه من المدن الفينيقية الواقعة على الساحل اللبناني لقي استقبالا وترحيبا كبيرين من هذه المدن باستثناء صور (Tyre)[5]. التي اكتفت بارسال وفد الى الاسكندر مبدية مبدية توددها له، ان هذا العرض الصوري للاسكندر لم يكن في حقيقته سوى جس نبض من قبل قادة صور وزعمائها لمعرفة نوايا الاسكندر الحقيقية او لعل أهل صور كانوا يتوقعون من الاسكندر في صورة تقديم ولائهم له – العدول عن دخول المدينة الا ان الاسكندر أصر على دخولها بدعوى تقديم القرابين للاله (ملكارت) وعندما تكشفت للصوريين نواياه الحقيقية أبوا الا أن يقفوا في وجهه وتقدم قواته نحو مدينتهم التي استعدوا لتحصينها من قبل وعلى اثر ذلك امر الاسكندر بضرب الحصار عليها[6] لقد تفطن الاسكندر الى اهمية مدينة صور ومكانتها الاستراتيجية فاذا ما تم له دخول صور فبامكانه غزو مصر والشرق وقد صرح الاسكندر امام المجلس المقدوني قائلا لهم "لا يكون تقدم الحملة الى مصر مأمونا ما دام الفرس يمسكون بزمام السيادة على البحر" وقال ايضا "فاذا استولينا على صور فليس من مندوحة عن تحول الاسطول الفينيقي الينا ، لعدم وجود موانئ يذهب اليها ، فان يتم هذا نقبض على زمام السيادة على البحر وجزره ونستطيع عندئذ ان نتقدم الى مصر من غير ما جهد ...

---

(1) Hammond, N.G.L, op. cit, p. 330.

(2) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص71–74.

(3) Hammond, N.G.L, op. cit, p. 330.

(4) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص 71–74.

(5) Hammond, N.G.L, op. cit, p. 330.

(6) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص71–74.

ونستطيع عندئذ اذا ما عزمنا على ذلك ، ان نأخذ على عاتقنا القيام بالحملة برا الى بابل ونحن اكثر امنا، ذلك لاننا سنكون ممسكين بكل المدن البحرية والارض الممتدة الى الفرات"[1].

يبدو من كلام الاسكندر بأن هدفه كان بلا شك الوصول الى مدينة بابل التي كانت تمثل انذاك قلب الامبراطورية الفارسية فالسيطرة عليها يعني السيطرة على ايران والشرق البعيد ايضا وحتى مصر لم تكن هدفا بذاته يرنو اليه القائد المقدوني ويتجلى ذلك من خلال ما اعلنه لجنوده قبل اعطائهم الامر بضرب الحصار على صور بل كانت الغاية من الحملة هي غزو بابل برا ومن يتسنى له ذلك بامكانه ان يمسك "بكل المدن البحرية والارض الممتدة الى الفرات" على حد تعبير الاسكندر ذاته[2].

وتجدر الاشارة الى ان دارا تقدم بعرض في تلك الاثناء الى الاسكندر وهو ان يتنازل له عن الاراضي الواقعة غرب الفرات ويدفع له 10.000 وزنة من الذهب ويزوجه احدى بناته اضافة الى عقد صلح صداقة يكون فيها حليفه مقابل ارجاعه له عائلته وقد اشار بارمينيون على الاسكندر بقبول الصلح قائلا له، لو كنت انا الاسكندر لقبلت هذا العرض فرد عليه الاسكندر بالقول بأنه يفعل ذلك لو كان هو بارمينيون[3] وجد القائد المقدوني ان كل عروض دارا هي في متناوله ويستطيع ان يحصل عليها بدون صلح او تقديم تنازلات[4].

واصل الاسكندر حصاره لصور المدينة الفينيقية العتيدة التي استبسلت في الدفاع عن وجودها امام القوات اليونانية وتمكنت من تحطيم الحامية العسكرية وقتل الاسرى المقدونين[5] .

وخلال معارك ضارية بين قوات الاسكندر واهالي صور ابدى فيها اهالي صور شجاعة واستماتة نادرين في الدفاع عن مدينتهم تمكن الاسكندر بعد محاولات شاقة ومضنية وحصار دام اكثر من سبعة اشهر من اقتحامها ودخولها في تموز عام 332 ق.م "بعد صمود بطولي خارق...وقد كان صمود مدينة صور في وجه الاسكندر ثم نجاحه في اخضاعها سببا دفع بعض المؤرخين الى القول بأن فتح صور كان اعظم عمل عسكري قام به الاسكندر اعظم غزاة التاريخ"[6] وقد نكل الاسكندر بالمدينة واهلها شر تنكيل واتجه نحو غزة "وفي

(1) لامب ، هارولد، المصدر السابق ، ص183.

(2) المصدر نفسه .

(3) Hammond, N.G.L, op. cit, p. 330.

(4) ديورانت ول وايريل ، قصة الحضارة ، الشرق الأدنى ، مج1 ، ج2 ، المصدر السابق ، ص459.

(5) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص401-402.

(6) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص71-74.

عام 332 ق.م سقطت غزة بعد مقاومة عنيفة" وقد مثل سقوط غزة نقطة تحول خطيرة في مجرى الحرب ، اذ اصبح الطريق الى مصر مفتوحا امام القوات المقدونية[1].

رغم ان غزة قاومت هي الاخرى الاسكندر بأمرة قائدها باتيس وصمدت لمدة شهرين الا انها استسلمت في النهاية للاسكندر الذي اعدم قائدها باتيس واستباح اهلها[2].

بعد ان اخضع سوريا وحطم مدينة صور وغزة اصبح الطريق الى مصر امرا سهلا ويسيرا امام الاسكندر وقواته ، فقد دخلها في تشرين الثاني – اكتوبر عام 332 ق.م دون مقاومة تذكر ولم يحاول الحاكم الفارسي فيها مازيوس ان يبدي اية مقاومة للجيش المقدوني، ويبدو ان الاستياء العام الذي عم الشعب المصري من الممارسات التعسفية التي كان يقوم بها الفرس في بلادهم هي التي دفعتهم الى اتخاذ موقف ايجابي تجاه تقدم الاسكندر ودخوله مصر، ذلك ان الفرس استهانوا بالالهة المصرية ووضعوا قيودا تمس من حرية ديانتهم وقد وجد المصريون ضالتهم في الاسكندر عندما استغل كره المصريين للفرس وقام بابداء الاحترام والطاعة للالهة المصرية فور دخوله المدينة[3] ولذلك رحب به المصريون واعتبروه محررهم خاصة عندما منحهم الحرية الدينية وقدم القرابين لالهتهم، كما اعتبره كهنة معبد امون فرعونا للمصريين وذلك في عام 332 ق.م وفي الحافة الغربية لنهر النيل اسس مدينة جديدة سماها الاسكندرية نسبة اليه والتي ستصبح فيما بعد ثاني اكبر المرافئ التجارية في البحر المتوسط الى جانب بلاد وادي النيل[4].

كانت مصر حلقة ضمن الحلقات المسترسلة في عمليات الاسكندر العسكرية ولذلك قام بمغادرتها لملاحقة الجيوش الفارسية المتقهقرة شرقا وذلك بعد ان نظم المدينة عسكريا واداريا وماليا وجعل على حكمها واحدا من ضباطه وهو كليوفس وخرج الاسكندر من مصر باتجاه الشرق في ربيع عام 331 ق.م وعبر سوريا بعد ان ولى عليها احد قادته المسمى (الاومدون)[5]. ومن سوريا بدأ الاسكندر استعداداته لغزو بلاد الرافدين ومما ساعده على تحقيق هدفه هذا هي الظروف الموضوعية العامة التي كانت تعيشها البلاد ولذلك وقبل الخوض في اطوار وحيثيات هذه الحملة لابد لنا من الوقوف على حقيقة الوضع العام الذي الم بالبلاد .

(1) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص401-402.

(2) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص74.

(3) المصدر نفسه ، ص74-76.

(4) Hammond , N.G.L , Op.cit , P. 613 .

(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص76.

5. معركة كوكميلة وغزو بلاد الرافدين :

ان موقعة كوكميلة ، او اربيلا كما يطلقون عليها[1] ، تمثل المعركة النهائية في حلقة الصراع المسلح الذي دار بين الجيش الفارسي والجيش المقدوني وهي التي حسمت الصراع والحرب بين الجيشين وقررت مصير اسيا والشرق الى أمد بعيد، ولكي نقف على ما كان لهذه الحرب من اهمية حاسمة في سير الاحداث سنلقي الضوء على استعدادات كلا الفريقين والاحداث التي رافقت ذلك[2].

تعد المدة ما بين انتهاء معركة ايسوس وحتى توجه الاسكندر نحو الشرق لملاحقة التقهقر الفارسي بعد احتلاله مصر فترة استعدادات وتحضيرات عسكرية بالنسبة للملك الفارسي دارا الثالث فقد بدا باعادة تنظيم صفوف جيشه وبناء قوته العسكرية استعدادا لملاقاة الجيش المقدوني في معركة اخرى تكون حاسمة وفاصلة، وقد اصابت هذه التحسينات فرق الفرسان الذي يعتبر القوة الضاربة في الجيش الفارسي كما اعيد تسليحه بانواع جديدة من "الحراب القصيرة عوضا عن الرماح" وتعد هذه ميزة جديدة لها فاعليتها في اعطاء فرق الفرسان حركة اكثر في ساحة القتال عند الاشتباك مع العدو[3] كان دارا قد فقد كل امل في الصلح مع الاسكندر ولذلك وجه اهتمامه الى اعادة تجييش الجيوش من جميع المناطق المتبقية تحت نفوذه وهذه المرة اعد جيشا اعظم من السابق واكثر عددا من قبل وصل الى المليون مقاتل ويجمع اقوام وشعوب مختلفة ومتعددة منهم بابليون ، وارمينيون وسوريون وكبدوكيون وغيرهم[4].

في واقع الامر بالرغم من ذلك يبدو ان الجيش الفارسي كان يعاني من نقص كبير في عدد فرق المشاة الذي تقلص بعد ان تمت السيطرة للاسكندر على اسيا الصغرى وبلاد الشام حيث لم يكن في وسع الفرس في هذه المرحلة ان يحصلوا على جنود مرتزقة من الاغريق الذين كانوا يؤلفون اغلب فرق المشاة، الا انه رغم ذلك لم يكن هذا الجيش بمستوى اقل من الجيش المقدوني وانما كانت المشكلة التي لم يستطع حسمها وتجاوزها هي عزل ملكه دارا عن القيادة العامة للجيش في ميدان القتال وهو عين السبب الذي كان يقوده من هزيمة إلى أخرى[5] أمام الجيش المقدوني الذي كان اكثر استعدادا وتسليحا فقد نظمه الاسكندر أحسن تنظيم بان أدخل عليه أنماطا وطرزا قتالية جديدة غيرت الكثير في مجرى المعارك[6].

---

(1) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص86.

(2) المصدر نفسه ، ص86.

(3) المصدر نفسه ، ص76-81.

(4) ديورانت ، ول وايريل ، قصة الحضارة ، ج2 ، مج2 ، المصدر السابق ، ص460.

(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص76-81.

(6) تارن ، وليم وثروب ، الحضارة الهلنستية ، المصدر السابق ، ص69.

اشرنا الى ان الاسكندر الذي اصبح سيد مصر وسوريا قد تابع حملته نحو الشرق بعد خروجه من مصر ومع حلول فصل الربيع دخل القائد المقدوني مدينة صور ذلك ان جميع الارض الساحلية الان اصبحت تحت يده، واصبح الوقت مناسبا للتقدم نحو قلب الامبراطورية الفارسية، حيث كان على راس قوة عسكرية تصل الى حوالي 40000 من المشاة و 7000 فارس، ومع بداية فصل الخريف وصل الاسكندر مع قواته تفساح (thapsacus) الواقعة على نهر الفرات[1] فوجد الاسكندر جسرين من قوارب قائمين على النهر تم بناؤهما من قبل[2].

ان هدف الاسكندر في هذه الحملة كما اشرنا من قبل هو وصوله مدينة بابل والسيطرة عليها وبالتالي فانه بمقدوره اخضاع بلاد فارس برمتها وانهاء كيانها من الوجود ولذلك نجد بان الاسكندر قد اتخذ في سيره من ثابساكوس الطريق الشمالي حتى وصل شاطئ دجلة الشرقي حين وصلته اخبار مفادها ان الملك الفارسي وقواته محتشدة عند سهل كوكميلة استعدادا لملاقاته في معركة فاصلة[3].

بعد وصوله دجلة لم يجد الاسكندر الملك الفارسي دارا ولا أي من جنوده فتقدم نحو النهر وتمكن من عبوره في ظروف تقول بعض المصادر بانها كانت صعبة وشاقة على الجيش المقدوني مما حدى به الى تقديم القرابين تقربا للالهة واستعانة بها وبعد مضي حوالي اربعة ايام وصلت الاخبار الى الجيش المقدوني تقول بان القوات الفارسية تعسكر على سهل كوكميلة فاستعد الاسكندر لمواجهة الملك دارا الثالث وخوض المعركة ضده[4].

لقد اختار الفرس مكانا منبسطا لخوض المعركة عندما اعتقدوا بان هذا المكان سيعطي عرباتهم المنجلية امكانية الحركة الفعالة واستعمالها بشكل جيد وقد اراد الاسكندر لقاءهم في هذا المكان الذي اختاروه[5] وعسكروا فيه وهو سهل واسع بالقرب من قرية كوكميلة على بعد ثلاثين ميلا غربي مدينة اربيل ومعه جيش جرار[6] حيث ان الجيش الفارسي الموجود في هذا الموقع يصل عدده الى حوالي المليون جندي من المشاة واربعين الفا من الفرسان[7].

---

(1) Buy J. B, op. cit, P.774 .

(2) Ibid.

(3) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص420-422.

(4) اريان ، يروي "الايام الاسكندر الكبير في العراق " ، ترجمة : فؤاد جميل، سومر ، مج1 و 2 ، ج1 و 2، بغداد ، 1965، ص268-269 .

(5) Haywood , R. M. , op. cit, p.577

(6) بترى ، أ ، المصدر السابق ، ص57.

(7) الناصري ، سيد احمد علي ، المصدر السابق ، ص420-422.

بعد ذلك عبر الاسكندر نهر الفرات في شهر تموز –يوليو– عام 331 ق م ايذانا ببدء مواجهة جديدة بينه وبين الجيش الفارسي الذي كان يراقب عن كثب تحركات الجيش اليوناني، فقد كان القائد الفارسي مازيوس يتراجع امام تقدم قوات الاسكندر من غير ان يتصدى له او يقاومه، وعند اربيل تمركزت القوات الفارسية واخذت لها مواقع للقتال ، مؤلفة من ثلاثة خطوط قتالية : الأول وبه فرسان ورماة ، والخط الاوسط يتشكل من ميمنة وميسرة وكذلك له جناحان يحتويان على عربات منجلية يقودها فرسان ومشاة ونبالة ، اما الخط الاخير فهو مكون من فرق من الفرسان والمشاة اخذ شكلا نصف دائري يشكل الملك مركز قيادته ويقع هذا الصف خلف خط الوسط[1].

لقد تشكل الجيش الفارسي من مجموعة متعددة من الجنود المقاتلين الذين يمثلون كافة العناصر المكونة للامبراطورية فمنهم البكتاريين والبارثيين والميديين اضافة الى مجموعة من المقاتلين الذين تم تجنيدهم من بلاد الرافدين ومنطقة الساكا وكبدوكيا[2] حيث كان الجنود البابليين في الجيش الفارسي تحت قيادة بور باس ومعهم الكاريين اضافة الى مجموعة من الارمن والسوريين القاطنين في بلاد الرافدين الذين كانوا تحت قيادة مازايوس[3] .

في مقابل ذلك كان الجيش الذي يقوده الاسكندر لا يختلف كثيرا في تنظيم صفوفه وتمركزاته عما سبق معركة اربيل سوى انه ازداد من حيث عدده فضلا عن بعض التعديلات التي اصابته هنا وهناك مثل اضافة خط ثاني مؤلف من المرتزقة ويتمثل دوره في حماية الفيلق بتطويق جناحه الايسر من طرف القوات الفارسية اذ كان عامل الزمن يسير في غير صالح الفريقين المتحاربين، فالفرس كانوا يرومون تحقيق نصر حاسم وخاطف على الاسكندر بواسطة قوتهم الضاربة المتمثلة في الجناحين من الفرسان وذلك قبل ان يفاجئهم الاسكندر بشق صفوفهم من المشاة بواسطة فيلقه على حين كان الاسكندر يخطط في احراز نصر سريع وحاسم يشل حركة صفوف الفرس قبل ان ينالوا من جناحه الايسر[4]. (ينظر شكل 3) .

هكذا كانت استعدادات الجيشين جاهزة للدخول في مواجهة والتحام كامل "وفي صباح اليوم الاول – اكتوبر – عام 331 ق.م تقدمت مجموعة من قوات الفرسان الساكا التابعة للفرس بشن هجوم على جناح الاسكندر المكون من الفرسان والرفقاء وتجدر الاشارة الى ان الاسكندر قد قام بتعديل طفيف لتموقع فرقة الفرسان الرفقاء صباح يوم المعركة بان استبدلها على يمينه بحيث اصبحت مواجهة عربات الفرس المنجلية فرقة حملة الدروع وليس الفرسان الرفقاء لقد كبدت فرق الفرسان الفرس

(1) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص76–81.

(2) المصدر نفسه ، ص86–81.

(3) اريان ، المصدر السابق ، ص270.

(4) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص76–81.

الفرسان الرفقاء خسائر كبيرة قبل بداية تراجعهم في نفس الوقت قامت العربات المنجلية بهجوم آخر استهدف حملة الدروع الذين قبلوا باختراق صفوفهم اول مرة من قبل العربات ثم انقضوا على راكبيها وخيولهم مستخدمين الرماح والسهام الى ان تم ابادتهم عن اخرهم"[1].

بإمكان الاسكندر ان يكون في وضع ميداني افضل بقبوله نصيحة بارمينيون التي دعاه فيها الى القيام بهجوم ليلي على القوات الفارسية لبث الرعب في قلوبهم وتفتيت صفوفهم غير ان الاسكندر رفض الاخذ بنصيحة بارمينيون واعتبرها اهانة له وعارا عليه قائلا له[2] "انا لا اسرق النصر"[3].

كان الجيش الفارسي يتقدم موسعا خط قتاله في خطة لتطويق الجيش المقدوني ، وعلى اثر ذلك تفطن الاسكندر الى امكانية احداث ثغرة في صفوف الفرسان وقد تمكن من ذلك بعد ان احدث اضطرابا كبيرا وفوضى عارمة في صفوف الفرسان الفرس الذين لم يستطيعوا السيطرة على الموقف وتلافيه مما ادى الى انهيار مقاومتهم[4].

وكعادته في مثل هذه الظروف ادار الملك الفارسي عربته وهرب من المعركة تاركا جنوده في ساحة القتال يدافعون عنه بضراوة[5].

الا ان ذلك لم يثن من عزم الجيش الفارسي الذي واصل القتال بواسطة مجموعة من الفرسان الكبدوكيين والبارثيين الذين زعزعوا قلب الجناح الايسر للاسكندر وخطوطه الامامية وشطروها الى نصفين حتى بات قائدهم مازايوس يعتقد بتحقيق انتصار حاسم على الجيش المقدوني الا ان موازين القوى اختلت لصالح الاسكندر الذي هزم فرسان الفرس الفارثينين بعد ان استنجد بقائده بارمينيون الذي كان يتولى الجناح الايسر مما ادى الى اضطراب الجيش الفارسي وانهيار مقاومته وتراجعه امام ضربات المقدونيين المتواصلة وقد استمر الاسكندر في ملاحقة الجيش الفارسي المتقهقر دون اعطائه فرصة لالتقاط انفاسه وتنظيم صفوفه كما تمت مطاردة قوات دارا الى مسافات بعيدة[6].

"كان من حسن حظ الاسكندر ان يكون دارا جبانا ولكن الهجوم المميت الذي اخافه كان يعزى الى سوء الحظ اكثر من أي شي آخر اذ ما الذي يحدث لو ان دارا ثبت في الميدان امام قواته القوية من الاحتياط... اما ما حدث فهو ان القوات الاحتياطية الفارسية تبعته في هزيمته حتى مدينة ايسوس

---

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه .

(3) Bury . J . B, op. cit, p. 775.

(4) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص91 .

(5) Bury, J. B. , op. cit , p. 777 .

(6) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص76 –81.

ثم سادها الاضطراب واخذت تتخبط ببعضها وتسير على غير هدى وتراجعت الوحدات الاخرى على الاثر"[1].

ومرة اخرى يسحق الجيش الفارسي على يد الجيش اليوناني الذي كان متفوقا في أسلحته واستعداداته، وما تميزت به قيادته من حسن تدبير في ادارة المعارك[2].

كانت معركة كوكميلة بلا شك معركة فاصلة وحاسمة قررت مصير اسيا والشرق اذ استخدم الاسكندر في هذه المعركة طرقا واساليب مشابهة في التكتيك والمناورة في سابق معاركه تمكن من خلالها من تفتيت القوات الفارسية وبذلك بدا الطريق الى بابل سهلا اذ تقدم الاسكندر نحو مدينة بابل[3]. فدخلها في أواخر تشرين الأول من سنة 331 ق.م وكانت بابل آنذاك مدينة ذات تحصينات دفاعية هائلة دخلها من "باب بابل واطل على المدينة العظيمة بسوريها وابراجها"[4].

لقد استقبلت بابل الاسكندر وفتحت له ابواب المدينة، ذلك ان البابليين استاءوا من الحكم الفارسي وعانوا منه لعدة سنوات، فكان أي تغيير لهذا الحكم – كما ينظر البابليون من اية جهة كانت سيكون احسن بكثير من الحكم الفارسي لهم[5].

وتذكر بعض المصادر ان الاسكندر عندما كان يتأهب لدخول بابل بعد عبوره دجلة جاءه جمع كبير من الكهنة والفلاسفة البابليين الذين لديهم علم ومعرفة عميقة بالفلك ونصحوه بان لا يدخل المدينة لان ذلك سيكون خطرا على حياته نتيجة لنبوءه صادرة عن الإله بعل أوحى بها الى الكهنة ولكن الاسكندر لم يسمع نصيحة العلماء البابليين و "رد عليهم ببيت شعر ليوريبيديس ونصه : ايها الملك لا تدخل المدينة مهما كانت الحال ان كنت مرسلا النظر الى الغرب ، ولا تقد جيشا زاحفا الى الغرب ، عليك ان تسير شرقيا"[6].

لقد شك الاسكندر في النصيحة التي قالها البابليون وذهب الى انهم كانوا يرومون من وراء ذلك ابعاده عن مدينتهم ومنعه من دخولها وليست نبوءة معبد الإله بعل كما قالوا ومما زاد في عدم اقتناع الاسكندر باقوال كهنة بابل معرفته بثراء المدينة وما تحتويه من كنوز كانت تحت تصرف الكهنة

(1) تارن ، وليم وثروب ، الاسكندر الاكبر ، المصدر السابق ، ص161.
(2) ديورانت ، ول وايريل ، قصة الحضارة ، ج2 ، مج1 ، المصدر السابق ، ص460.
(3) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص 420–422.
(4) رستم ، اسد ، المصدر السابق ، ص36.
(5) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص 420–422.
(6) اريان ، المصدر السابق ، ص284.

"وعلى الرغم من ذلك فانه على ما يروى على ارسطوبولس كان يميل الى النزول عن نصيحتهم او على الاقل الى تغيير اتجاهه ابان دخوله المدينة"[1].

الا ان الاسكندر اصر على دخولها بايعاز ونصيحة بعض حكماء اليونان الذين قالوا له بان التنجيم ما هو الا ضرب من الوهم وليس له اساس علمي[2] "وشق الاسكندر عصا الطاعة على الإله بعل، طوعا تارة وكرها تارة اخرى"[3] دخل الاسكندر بابل ولم يلاق فيها حربا "بل تم استقباله بالترحيب والمفاخرة بعد ان سلمه الحاكم الفارسي مفاتيحها ، وانتهج الاسكندر سياسة لينة ومتسامحة مع السكان على غرار ما حصل عند دخوله مصر"[4] .

وتجدر الاشارة الى ان مازايوس كان قد هرب بعد انكسار جيشه في كوكميلة وتذمره من سيده الذي لا يصلح أن يكون قائدا او ملكا وقد عامل الاسكندر حاكم المدينة وأهلها كما سبقت الاشارة الى ذلك معاملة حسنة[5] واتخذ جملة من الاجراءات منها ابقاء مازايوس كحاكم على مدينة بابل اسميا وقام وقام بتعيين قائدا عسكريا على المدينة الحق به جابيا ماليا وهما من اصل يوناني كما الغى جميع القرارات المجحفة السابقة التي كان الملك الفارسي قد فرضها في حكم المدينة[6] . والتي نالت من التقاليد القومية للبابليين منذ سقوط دولتهم عام 539 ق.م وقد منح مازايوس ايضا حق سك العملة "وكان هذا الحق من اخص سمات السيادة الملكية ويظهر ان ذلك كان من قبيل تسيير التجارة البابلية ومراعاتها اذ انها كانت تمثل وقتئذ تجارة العالم المتحضر"[7].

كما ابقى الاسكندر على الالهة البابلية بل ونجده يبدي احتراما وقدسية خاصة للديانة البابلية وتقاليدها وذلك بأن اعاد بناء جملة من المعابد البابلية التي دمرت في عهد الملك الفارسي ارتحششتا[8].

6. استمرار الزحف المقدوني صوب الشرق والعودة الى بابل :

بعدما تسنى للاسكندر احتلال بابل والسيطرة عليها اصبح الطريق امامه مفتوحا لمواصلة حملته واخضاع المناطق والبلدان الاخرى جهة الشرق . وهنا تبرز أهمية مدينة بابل وموقعها الاستراتيجي

(1) المصدر نفسه ، ص285.
(2) رستم ، اسد ، المصدر السابق ، ص41.
(3) اريان ، المصدر السابق ، ص285.
(4) باقر ، طه ، المقدمة ، ج2 ، المصدر السابق ، ص 445.
(5) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص80-81.
(6) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص421-422.
(7) العسلي ، بسام ، المصدر السابق ، ص81.
(8) الناصري ، سيد أحمد علي ، المصدر السابق ، ص422.